إدوار الخرّاط

يا بنات إسكندريّة

رواية

يا بنت اسكندرية

يا بنات اسكندرية

رواية

إدوار الخراط

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٠

يا بنات إسكندرية
مَشْيُكُمْ على البحر غِيّه
تِلْبسوا الشاهي بتُلّ
والشفايف سُكَّرية

بنات إسكندرية متعددات، وفردانيّة، بـلا نظير. من أنتِ؟ لم ألتقِ بـلكِ وجهاً لوجه، لكني أعرفكِ معرفة الحميم للحميم، ليس بعدها معرفة.

حوريات الذِكَر والتخـاييل، مـاثلاتٍ أبـدأ عن أجساد وأرواح منـدثرة، تهاويم سحيقة القدم، احتشد بها الصبا والشبـاب، والكهولـة، متخطّراتٍ حتى الآن في أحلامي، بحياة أكثر جَسَدَانية من أية امرأة.

بنات إسكندرية، وبحر إسكندرية - غواياتٌ قـائمة لا تنتهي ومحَبَّـات لا تبيد.

مهما كانت كثيرةً فهي واحدة، مهما كانت عارضة خاطفة فهي أبدية.

كيف أقاومها؟

ادوار الخراط

١ ـ طائر الصبا سقط على البحر

كأنني أدخل من الباب الضيق مباشرةً إلى السلم الحجري المعتم، في بيت حارة الجُلّنار.

وكأنني أحس مُنى، متفجرةً بالحياة، هناك، خلف الباب في الشقة الأرضية، إلى اليمين.

أكبر مني قليلاً، ما زالت. تخرج الصبح ولا تعود، من مشغل روزا الخياطة الشاميّة في غيط العنب إلا على العصريّة. وبعدها بقليل، تعود جمالات أختها الكبيرة من فابريكة الغزل في كرموز.

قبل الإجازة، عندما أرجع من المدرسة، كان بابها ينفتح ـ دائماً ـ وأنا أمام السلم تماماً. وفي الفَسحَة الأرضية الصغيرة يضيء لي وجهها، فجأة، في اللحظة الدقيقة الهاربة بين انحسار العصر وعتمة المدخل الرطبة قليلاً.

فستانها لا يصل إلى ركبتيها، ينزل على فخذيها المدورتين بانسياب، وصدرها الصغير أحسه حُراً، ومتماسكاً، ناهداً وترفع وجهها إليّ، خجلةً وجَسوراً معاً، وتنظر إليّ بعينيها المتفتحتين المائلتين قليلاً، نظرة يرف لها قلبي ولا أعرف معناها. وتسلّم «سعيدة» بصوت ناعم، مرتعش وكله ثقة مع ذلك، وتكاد تمسني بجنبها وهي تخرج إلى الحارة، تسحب في قدميها السكرْبينة القديمة الممسوحة الكعب، ويثيرني حفيف فستانها ورائحة جلدها المغسول.

أما الآن، في إجازة الصيف الطويلة، فلم أكن أراها إلا على المغرب،

عندما أصعد إلى السطوح. أترقب وصولها من الشباك، وفي يدي قصيدة كِيتْس «السيدة الجميلة القاسية» من كتاب «التنين الذهبي» بالانجليزية. حتى أراها قادمة من أول الحارة، فأحس الدم يفيض من قلبي.

ذلك الصبيّ الذي كنت، ولما أزل، رومانتيكياً جداً، ومشتعلاً بيقظة جنسية متملكة، ويظن نفسه ساذجاً، في وقت معاً.

كنت أحب مُنى ولا يقين عندي من أنها تحبني أو أي شيء من هذا القبيل.

وكان في يدي ما زال، وكأنني نسيته، كِيتْس و«التنين الذهبي»، وأنا أدفع باب السطوح الخشبي، فيهاجمني نور آخر النهار، وطراوته نفاذة قليلاً من هواء الملاّحة القريبة وعطِنة قليلاً من روائح الحارة.

اندفع ذَكَر البط الكبير يمدّ رقبته إليّ ويسحبها ويمدها من جديد، وهو يفحّ، منافحاً بالحاح عن مملكته التي اقتحمتُها.

كانت مُنى متربعة على البلاط، وتحت فخذها البطة الكبيرة، مضغوطة برفق تحت اللحم الأسمر المَمْسُود، تمسك بالمنقار الأصفر المفلطح بيدٍ تقطر بالماء، وباليد الأخرى تزجّ بأقراص الردّة المعجونة بالذُرَة العُويجة. وصغار البط يمرح على السطوح ويضيء ويتأرجح ويتدأدأ مدوّراً أصفر الزغب بمناقير حمراء كبيرة.

كانت قد غيَّرت. أعلى فستانها البيتيّ، الصيفيّ، المنحسر عن فخذيها الرشيقتين، مبلول وملتصق بالصدر العاري، يحدد قوام ثدييها الصغيرين، مستكنّين بصلابة في البلل. ولم أكن أملك أن أحول عيني عن عمق العتمة المشتهاة بين فخذيها، يتخايل أكثر إضاءة وأوضح تلويناً في الخفاء المُلِمّ.

سمعت صوتي محبوساً قليلاً، وأبحّ: اسمعي يا مُنى، عايز نشوفك.

رفعت رأسها إليّ، ويدها ما زالت تفتح المنقار المفلطح الفاغر، وكان شعرها القصير الحالك السواد غير مسرّح، مجعداً بتموّج طبيعي، ورأيت، في ذقنها المثلث، لأول مرةٍ بوضوح، أثر جرح غائر، خطاً رقيقاً أكثر بياضاً من سمرة الجلد الناعم الذي التأم عليه.

كانت عيناها ممتلئتين بغرابة، تحت انتفاخ جفنيها الخفيف، وجادّتين، تُكذّبان النبرة المعابثة: أيُوه.. ما أنت شايفني أهوه يا خويا. سلامة الشوف ولا أقول لك إيه ـ شافتك العافية. ما تشوفش وِحِش أبداً.

فَجِمت، لم أستطع أن أجيب على الفور.

كانت قد أخلفت لي موعدين، غير مؤكَّدين مع ذلك، مرة في الشلالات، ومرة على قمة حارتنا وشارع راغب باشا.

قلتُ في زمنٍ آخر إنني لا أريدك أن تحملي عني صمتي، ولا أريدك أن تتحصني وراء هذا الصمت مني. فهل انكسر الصمت أبداً؟ وهل التقينا؟

قلتُ إن اليأس يقول لي: لا.

ولا أصدّقه، ولا أملك أن أصدّقه ولكنه ملحّ، وله سطوة مُقْنِعة.

طائر الصِبا الذي يحلّق بعيداً عني، في أفقٍ غامض، كأنني أمسكه بين يديّ، ويرفرف بين أصابعي.

استطعت أن أحملها، في النهاية، على أن تأتيني أمام حلقة السمك في المكس، يوم الخميس، الساعة الخامسة، إذ أنها ستذهب بعد ذلك إلى خالتها في السّيالة.

قالت لي مُنى إن خالتها كانت أصغر من أمها كثيراً، وإنها جاءت لجدّتها على كِبَر، وتزوجت من سنين، ملاحظ أنفار في المينا، ولكنها لم تخلّف حتى الآن. وقالت لي إنها جربّت كل الوصفات، ولبست كل الأحجبة،

وراحت لسيدي أبي الدردار، وفكت الحَبْس والرصَدَ والعمَل وعملت الزار وذبحت للأسياد بل ذهبت إلى مصر ومسحت قبور الأولياء والصالحين وكنست جامع السيدة ودقت المسامير في بوابة المتولي وفي شجرة العدرا مريم في المطوية على السواء، ولكنها لم تحْبل حتى الآن، وقالت لي إنه موصوف لها دم التِرْسة مذبوحة وهي حية وطالعة من البحر.

وكانت متوهجة الوجه، وأسنانها الصغيرة تلمع، وهي تحكي لي، وتقول.

كنت قد قلت لنفسي إنني لن أقبل أبداً الارتباط بها، ولن أخرج إليها أبداً، ولن أنتظر أن تأتيني على أية أرض، عن طريق الصدفة أو عن طريق التدبير سواء. ونكثت بعهدي لنفسي.

لم أكن قد نسيت لحظة واحدة نظرة العاشقة في عينيها الجاحظتين قليلاً، الممتلئتين بالوَله، وكأن العالم ليس هناك، وهي ترفع وجهها إلى محروس ابن خالتها الطويل الغليظ الشفتين الذي يسكن في بيت مِلْك على البياصة، بعد شارع ١٢.

ولا نسيت تدهور قلبي وبُرحَاء العشق الذي ران عليه الحبوط، ولم يختنق ولا صحَّ عودُه في آن.

ولا كفَّ وجيف القلب الغرير، على تمرّسه بالوجيعة التي لا تكاد تطاق.

وكنت، ولا زلت، أضحك قليلاً، في سرّي، على حكايات هذا القلب، مع أنها جدّ خالص ومرير.

بعد صلاة الجمعة ارتفع في الحارة فجأة صوت نفيسة وهي تنادي: «شُوبَش يا حبايب. . . شُوبَشْ والحاضر يقول للغايب ـ يا موونا. . يابتُ أم محمود» وفي نبرتها تحدٍّ لا يمكن أن يُرَدّ. وحَموة الشمس تُثقل النداء بجمل رازح.

ـ شُوبَش يا موونا يا ختي اطلعي لي أما أوريكِ اطلعي يا بت.
تعالَ يا محمود يا سيد الرجالة شوف أختك اسم الله عليها عملتْ ايه.
طَبْ جبّ وداري واكْرَهْ وداري.. ما طلع النهار خلاص وبان العَوار يا ختي يا حبيبتي.. قال على عينك يا تاجر قال اللي ما يشتري يتفرج.. وشُوبَش.

انفتحت شبابيك الحارة، كلها، وقرقعت، بالتتالي، وهي تخبط الحيطان وظهرت ألواح الزجاج الملصق عليها شرائط من الورق الأصفر العريض، خِلْف خِلاف. وفي هذا الظُهْر القابض خرج الأولاد والبنات بجلاليبهم القصيرة على اللحم، لا لون لها، وهم يصيحون ويتسابقون: «هِيه.. نفيسة أهِيه.. نفيسه أهيه..»

كانت نفيسة تطل بنصف جسمها كله، وصدرها الصغير الململوم دقيق التكوين وكامل التدوير، يكاد يخرج وهي تنحني من شباك بيتهم. كانت سمراء بُنية نقية الخد ومصقولة الوجه جداً، وشعرها مجزوز وكثّ وحالك، يضم رأسها بشدة. كانت في قامة بنت صغيرة ويخيل للواحد أنها لم تتجاوز الثانية عشرة مثلاً، حتى يرى صدرها المحكم الاستدارة يرفع فتحة فستانها الضيق اللامع دائماً، الذي يحيط بطنها باحتضان وثيق. كان جسمها المنمنم أنثوياً حتى النهاية، ومستحكِماً معصوباً لا رخاوة فيه. عيناها واسعتان ناضجتان في سمرة وجهها الناعمة، وفمها شهويّ وفسيح وناتىء الشفتين. كنا نعرف أن مُنى ونفيسة حبيبتان، الرُوح بالرُوح، وإنما يحبان معاً الولد محروس الذي يشتغل مع محمود أخي مُنى الكبير في ورشة جنب البياصة، ويجيء يتعشى عندهم تقريباً كل مساء. كنت لا أكرهه، ولا أغفر له.

تزلزل قلبي من صراخ نفيسة، كنت أعرف شُهرتها المدوية، ومقدرتها التي لا تضارَع على التلميح والتجريح والتلقيح والتصريح سواء. كان المعلّم

أبـو دراع العربجي، أبـوها ـ نحن نعـرف هـذا كلنـا ـ صـاحب سـطوة في الناحية. وكان له بـاع طويـل في حكايـات الأفيون والحشيش ونسـوان كوم بكير، والكل يعمل له ألف حساب. وكانت نفيسة مملكة الحارة بل الجيرة كلها في فن الردح العريق وخمّنت أن هذا اليوم لن يمر على خير.

جريت إلى النافذة، وأمي هتفت بأخـواتي البنات أن يـرجعن وراء، بلا قلة حيا، ورأيت على الفور أن شباك الست أم محمود، تحتنا، ظـل مُغْلَقاً. وكـان بـوسعي أن أحس التوتـر خلف الضُلف الموصـدة التي أعـرف أنها مسـدودة بـورق أزرق داكن بَهت قليـلاً من الشمس، مثبت عـلى الخشب بدبابيس الرسم المدوّرة الرؤوس، وأن أُحس، من فوق، الحضـور الفياض عن جسم مُنى، وأمها تحوشهـا بيديهـا وذراعيها عن الخـروج، وظهرهـا إلى الشباك.

كـانت الست أم محمود هي الـوحيـدة التي مـا زالت تـذكـر أن زوجهـا المرحوم كـان موظفـاً قدّ الـدنيا في البلديـة، الله يرحمـه، ومـا زالت تحتفظ بصورته، بـالبدلـة الميري والـطربوش، في منتصف الحـائط تمامـاً في صالـة البيت فوق ترابيزة السفرة التي لا تستخـدم أبداً، المكسـوّة بمفرش مشغـول تخلل تـراب السنين نسيجـه، يتوسـطه كرسي عبـاس كريستـال أصـلي فيـه برتقال وموز ويوسفندي من الشمع، وكـراسي الطقم المذهّب الناصل تـدور بالصالة، حرس قديم لا عمل له الآن.

كنت أعـرف هذه الصـالة، في عتمتهـا، والشباك مـوصد، ومعي مُنى، حق المعرفة.

وكـانت الست أم محمـود عنـدئـذ تـأتي لي من المـطبـخ بمـربّى البلح، كل ثمرة غـارقة في عسلهـا، ونديـة غضّة، امـرأة نحيلة مقددّة وطيبـة جداً وتصلّي الفرض بفرضه، منكسرة دائماً وتخدم أولادها الثلاثة بنور عينيهـا من سُكات.

كانت نفيسة قد استنفدت الآن مقدمتها التقليدية المحفوظة : وانتِ مين انتِ يا إبرة مصدّية، يا عصاعيص النقاريّة، على الكوم. . إلى آخره، إلى آخره، ومضت إلى الفصل الثاني من إبداعها الخاص.

رأيتها تنزل إلى الحارة، جرياً، حافية القدمين، وقد تحلّق حولها العيال صامتين الآن، مبهورين.

ألقت بنفسها على تراب الأرض دون تردد، وانحسر فستانها الوثيق، قليلاً، عن فخذيها الداكنتين بعضلاتهما الرقراقة القوية، وهي تتأوه وتنادي في شَبَقية غير منكورة ومن غير تحفظ «محروس» بصوت يذوب طَلَباً وغُلْمة.

كانت مُنى هي المرمية على تراب شهوتها، على الملأ.

وقف الأولاد الذين جاؤوا جرياً من الحارات المجاورة، ومعهم رجال محترمون بالمعاطف الخفيفة فوق الجلاليب البلدي، وعيال صِيّع من شارع راغب باشا، والنسوة بالملايات اللف التي سقطت من على أكتافهن. وبعد ضحك قليل وهمس سريع أو جهامة عابرة صمتوا جميعاً، مفتونين. وسقط علينا الظُهر فتجمدنا تحت وطأته. تقلصات الشهوة وأنينها الجارح في الصمت المطبق، ثم لحظة الاختراق وتشنجها المميت ولوعة صرختها في ذروة المتعة، والنداء الذي يخفت في راحةٍ وهمود.

كانت البذاءة الصّراح قد وصلت إلى منتهاها حتى هزمت نفسها، فلم تعد، تقريباً، تمس نفوراً أو تستثير غضباً أو حتى تستدعي ضحك الحرج والتأثم. بل أصبحت البذاءة سحراً ملتبساً له قوة غير مفهومة وغير مبررة. وكان حس الذكورة يملأ الحارة كلها ويطؤها. وكانت الظهيرة محتشدة بها، وقد عادت إلى براءةٍ أولية صَراح.

ثم وثبت البنت التي ذابت في جسد غريمتها وحبيبتها، وصرخت صرخة ثاقبة ألجمت الحارة كلها دَهَشاً وفَزَعاً، وهي تتلوى بجسمها الدقيق البارع

الخلجات، في تباريح المخاض، وتعوي بوجع الأمّ التي تكابد خروج الوليد، وإذا هي تحمله بين ذراعيها، فنسمعه في صيحة استهلاله الأولى الخافتة، ونراه، جميعاً، رأيَ العين، رقيقاً مغمض العينين أحمر الجلد. وهي تُخرج له بالفعل ثديها الصغير، في نور الظهر القاسي، وتلقمه الثدى المكوّر، تضغط بأصبعيها على اللحم الأسمر العذري: نِنّه هُوه.. نِنّه هوه.. ننّه نام..»

وتنقلب نفيسة، تخرج من جسد مُنى الذي تلبَّسَها، لتعود تصرخ إليها: وَدِّيتِ العيّل فين يا شرموطة.. تعالَ ياسي محروس شوف المحروس ابنك فين.. شوف المحروسة تاوِته فين يا حبيب.. بي.. ما هو بَعد الحَبَل والرضاعة بانت البضاعة.. وعلى وِشّك يبان يا مذّاغ اللبان يا ست موو.. نا..

وقد تحركت الحارة الآن، ونفست عنها الرّصَد، ونزلت الست سنية زوجة أبيها، وألقت عليها بجسمها الرجراج المتين، والتمّ حولها نساء الحارة يجذبنها معاً إلى البيت ويصرخن ويهمس في أذنها ويحتضنّها ويربتن عليها ياختي دا باسم الله الرحمن الرحيم.. والنبي، يجعل كلامنا خفيف. حواليكِ ولا عليكِ، خلاص ياختي خلاص، دانتو اخوات ياضنايا وما تستغنوش عن بعض، هوه الصُّوفر يطلع من اللحم برضو، خلاص ياختي خلاص.. تعالي..» وما زالت نافذة الست أم محمود صامتة، مغلقة على كرامتها الجريحة، مصونةً ما زالت، بعناد، وعلى فضيحتها غير المستحقة.

الانتهاك كنت أنا فريسته.

لا غفران أبداً لقسوة العالم. نهائية مطلقة، لا شيء يرجحها، أو يفسرها.

ونبض دمي يضرب في الوحشة، والصمت. ما أشد الإيجاع..

الدموع لا تجفّ ولا ترقأ، ولا تعني أحداً على أية حال.

عندما قامت نفيسة، بجسمها الصغير الذي ما زال يرتجف قليلاً كأنما على الرغم منها، كان فستانها الأخضر مترباً في أماكن الامتلاء، لامعاً عند تجويف الخصر الرقيق. انتزعت نفسها من نسوة الحارة اللاتي ما زلن يغمغمن بصوت حنون، أو يهتفن بصوت معدني، أو يلغطن في فرح مكتوم: يا ختي دي العِشْرة ما تهونش إلا على قليل الأصل، وأنتِ يا حبيبتي بنت الأصول برضو، دي مونا برضو أهي أختك وحُرة وبنت أصل، دِهْدِي...»

انفلتت نفيسة من بين الأذرع والأحضان النسائية، وحدها، ورأيت الدموع الصامتة تنسال في هدوء على وجهها المدوّر الذي شحبتْ سمرته المضرّجة الداكنة فجأة، كأنه وجه بنت ماتت وهي بعد بكر، غير ممسوسة. وكانت وحدها.

كنت جريحاً، مُمزّقاً لحمُ قلبي، أشتعلُ بالغضب، أعرف أنني أحبها وسأظل أحبها ولن أكفّ لحظة عن حبها، أُسكّن من هواجس نفسي وأُسلس شِماسَ وساوسها، وأُنحي عليها باللائمة وأصِمُها بالخَوَر وأعرف مع ذلك أنني صلب ومُحِبٌ حتى النهاية. وأعرف أيضاً أن الخيانة عندها بلا معنى، بلا وجود، وعجيج الألم الضاري الوَجِيّ الضارب في لحم القلب.

وكان البحر فسيحاً. مراكب الصيد الصغيرة بأشرعتها الضيقة تهتز على الموج الذي يكاد يكون مسطحاً، وداكن الزرقة، رأيت الصيادين بالصديري واللباس الاسكندراني الأسود الواسع الطيات، يبسطون شباكهم وينفضونها من السردين فيتتابع ويصطدم ويرتطم بخبطات طرية دسمة ويسقط على الكومة الفضية التي ترتعد ما زالت بالحياة، في قاع المركب،

وينحني الصيادون ويلقون بالسمكات الصغار إلى البحر، والأولاد بأجسامهم المحروقة يسبحون حول المراكب، منهم العراة تماماً ومنهم من اكتفى باللباس العبك المتهدل الذي يكاد ينزلق من على وسطه، يغوصون، برؤوسهم أولاً، ويخرجون على الفور وفي أيديهم السمكات التي تضطرب وتتملص وتتلوى وتنزلق، فيرمونها في أكياس مرتجلة من الخيش الغامق المبلول يشرّ منها الماء كلما خرجوا يشقون سطح البحر. والنوارس الرمادية الضخمة الأجنحة تنضّ فجأة من علٍ وتخطف صيدها من المراكب، ومن أيدي الأولاد، صدورهم المخسوفة يلمع جلدها مشدوداً على العظام الناتئة، ترتفع وتنخفض باستمرار، وتحلّق النوارس ظافرة، صاعدة في خط مستقيم، وهي تنعق مهدّدة، غاضبة أو خائفة.

وكنت أعرف أن أمي، وقد مات أبي بعد ذلك بقليل، سوف تأتي إلى هنا لتشتري لنا هذا السمك الشيّ، بالشّرْوة، بكم؟ بتعريفة ونص؟ أم بالقرش الصاغ الصحيح؟

كنت قد أخذت ترام المكس المفتوح من الجانبين، وكان ألم الحب، والغيرة والامتهان، يعتصرني وله رائحة المدابغ النفّاذة العطنة التي خنقتني، ولم أكن واثقاً أنها سوف تأتي، وتعمدت أن أتأخر، وتعللت بكل الحجج، ومشيت من البيت حتى محطة مصر، وكنت أظن أنني أسير على مَهَلي وأعرف أنني أمد خطوي، بل أهرول وأخبط الناس القلائل في الشارع، وتركت الترام يفوتني، بعد أن جريت وراءه، وكدت أجنّ قلقاً لما تأخّر الترام التالي.

عند صهاريج البترول الكبيرة والشعلة المتقدة المتطايرة التي لا تنطفىء، رأيت على سِيف البحر صفاً من العساكر الأمريكان الشِداد يقفون وظهورهم لنا، ينظرون في اتجاه البحر، شاكي السلاح، مشدودين، وكانت البارجة الأنجليزية شاهقة بيضاء راسخة في البحر ومشرِعة مدافعها نحو

مركب حربية صغيرة رأيت عليها حروفاً باليونانية والعلم الأحمر يرفرف من بعيد، كأنما باستهانة، على صاريها، ورأيت صفاً من العساكر بخوذاتهم وأقنعتهم الزجاجية التي لا ينفذ منها الرصاص، مدجّجين، يسدّون الشوارع الضيقة التي ذرعها الأنبياء والشعراء والحالمون، في القدس ورام الله والناصرة وبيت لحم والخليل، يقذفون الأطفال بالرشاشات السريعة الطلقات والقنابل المسيلة للدموع، يحيطون بالنصب الدائري الجرانيتي الذي يلمع بالليل في قلب ميدان التحرير ويضربون الاولاد والبنات بالهراوات، ويسوقون الأسرى إلى عربات السكك الحديدية المغلقة الخانقة وإلى الخنادق الموحلة المثلجة في وارسو وسيبريا وغرف الغاز في داخاو، ويجُرّوُن وراء عمال الغزل والنسيج في المحلة وكفر الدوار وكرموز وطلبة الحقوق والطب وسائر العلوم على ربوة العباسية في محرم بك. دباباتهم الصفراء الصغيرة عارفة بنواياها، ويضربون بالرصاص من البنادق الطويلة القديمة الطراز فيسقط المئات في الساحة الفسيحة أمام قصر الشتاء، وتصفر سياراتهم السوداء المسدودة أمام السوربون، ويجُرُّون بمقاودهم الجلدية الكلابَ المدرَّبة الشراسة فتنهش سيقان السود في جوهانسبرج، أو المسيسبي على السواء. وسوف أعرف بعدها بسنوات، أن الأنجليز قتلوا مئات من البحارة الثائرين الذين انضموا إلى جيش التحرير في اليونان، وأسروا الباقين، حتى انكسرت الثورة بعد الحرب.

عندما سألت سوّاق الترام وأنا نازل في آخر محطة اكتشفت أن الساعة ما زالت الخامسة إلا خمس دقائق، وكنت قد تيقّنت الآن أنها لن تأتي. أقف، غير مدركٍ تماماً ماذا يقع لي، تحت سور القلعة القديم بأحجاره الكبيرة الرماديّة، يرتفع إلى يساري شاهقاً يحجز انهياراً دائم الحدوث، وكأنني لا أرى البيّاعين والصيّادين جالسين القرفصاء أمام مشنّات ومغالق وقُفف تفيض بالسردين والبوري والمِياس والجمبري والكابوريا، وأحاذر أن أدوس على

أجسام السمكات الصغار المنفيّة، مهروسة على الرصيف، مسطحة، انبعجت من أبيضها بروزاتٌ مُدمّاة باهتة عند البطن والرأس المدعوك المسوّى بالأرض.

كان كل شيء يبدو معادياً، وقريباً جداً مني، كازينو زفير بخشبه الأخضر الداكن وزجاجه المغبّش يلوح لي غير بعيد. كشك مزلقان السكة الحديد وعليه بالخط الثلث الكبير: ثابت ثابت وشركاه نترات الشيلي الطبيعي. كانت هذه الكلمات تجعلني أحلم باستمرار منذ أن كنت أجيء مع خالي ناثان إلى الكازينو. ونأكل السمك بالليمون والبصل والبهارات في وَرَقة دسمة طالعة سخنة من الفرن. كان البيت ذو الشرفات العربية المنمنمة الذي تعرّفته، حائلاً وشكله مهجور ولكنه هو، بعد ذلك بأربعين سنة. فندق سي جَلْ - لم يكن عندئذ مَطْعماً مزخرف الأناقة - مَبْنيٌ مُصْمَتٌ الجدران رمليّ اللون مغلق على أسراره المشبوهة.

تأتيني حتى الآن رائحة الملح والسمك الطازج ويود البحر تفغمني.

نزلتْ جماعة صاخبة من العساكر الاستراليين، بقبعاتهم العريضة الواسعة، من عربة حنطور وقفت أمام الكازينو، وهم يصفّرون للبنات والنسوان بملاءتهن المحبوكة على الأرداف، ويهتفون دون جدية ودون اهتمام تقريباً: كام أونْ بنت.. فانتازيّة.. كم أونْ وقلت لنفسي لماذا قلت لها أن تأتي هنا؟

تَزلزلَ قلبي وأنا أراها، مرةً واحدة، تقف أمام صيادٍ فارع وشاب، محروق الوجه ووسيم وأزرق العينين، وهو ينحني على طشت كبير وعميق مليء بماء البحر، تخبط في جدرانه النحاسية المستديرة ترْسة ضخمة، محبوسة وحيّة وبطيئة الحركة، ولما وقفت إلى جوارها، لم تلتفت إليّ، لم تحيّني. قلت لنفسي: خائفة على نفسها أن يراها معي أحد. قلت لنفسي: أنكرتْني للمرة

الثالثة. وكانت تساوم الصياد الشاب بصوتها الأغن قليلاً، تنظر إليه بعينيها المرفوعتين المُغويتين. قلت لنفسي: كل الأسلحة مباحة. والأنوثة ـ وحدها ـ سلاحٌ هي تعرفه. وكانت تلعب بعقدها الكبير الحبات حول عنقها، أصابعها الطويلة تتحسس الجزء العلوي من جِيدهاَ البينّ.

ـ لا يا خويا عشرة صاغ كتير أوي والنبي. دي بشلن ونبقى كارمينك وعشان خاطرك أنت بس. طب وحياة النبي ومن نبىٌّ النبي نبي داحنا عايزين نكرموك، داني حنيجي على نفس بس عشان ذوقك، وبجدعتك. يالله بقى، بيع، ربنا يعوض عليك.

فقال لها الولد الإسكندراني الحليوة: ماشي كلام الحِلوين، بس قولي لِي العنوان يا ست الكل واحنا نوصّلْ لِك لحدّة الباب عندكو، والناس لبعضها برضك.. وكله قسمة ونصيب.

فلم تقل له إن الترسة ليست لها، هي، وظننت أنا أنها تركت له ساحة الغواية مفتوحة، كعادتها.

رمقتني بسرعة، بجانب عينها، نظرةً أحسستها تُغرقني بانهمارٍ مضطرب سخن وغير صاف، نظرة تغريب تنفيني وتلغيني. وعرفت عندئذ أنها سوف تحيلني إلى شفرة في رقصة أرقام لا أدري ما حِسْبَتُها، وأنها سوف تُفرغ دمي، وعرفت حِس أن أكون شَبَحاً، مسطّحاً ليس له إلاَّ بُعد واحد، لا صوت له، عرفت عندئذ أنها سوف تقول لنفيسة، وأن نفيسة بدورها سوف تقول عن سرها لأختي عايدة التي ترددتّ كثيراً وكانت خائفة أن تقول لِي حتى وادعتُها وطمأنت من روعها: ما أنا مش عارفة حنعمل إيه مع الواد التلميذ ابن الجماعة القَبَط اللي فوق. طب هوه بيحبني، حِلو، يا فرحتي. وكلامه ي ختي ساعات كده يبقى حلو أوي، وساعات ما نفهمش منه حاجة.

بيحبني. بيحبني. أهو كلام. ابن عم حديت. طب وبعدين؟ يُوه.. ما هو محروس بيزعل برضو. طب حنعمل معاه إيه؟ يوه بقى.

كانت الشمس تحترق قبل أن تغوص تماماً عند الأفق. وسارت مُنى، ناكرةً لي، مبتعدةً عني، تحت سور القلعة القديم، ومعها الصياد الشاب يدفع عربة كارّو عليها الطشت الكبير والتِرْسة الحبيس.

كانت مشتعلة الوجه من الحر، وهواءِ البحر اللاذع، وقُربِ الفتى ورجولته التي انتصرتْ هي عليها، بأكثر من معنى. وكانت ما تزال تلعب بعقدها الكبير الحبات على صدرها، لا تكاد أصابعها الطويلة بأظافرها القوية تمس خط الشريان الأزرق الرفيع الذي يبدأ من أعلى النهد المجسّم في فستانها الصيفي الخفيف. وكانت حركة فخذيها لدنة وموسيقية في سيرها، بلا مبالاة، بحيوية. فرسٌ شَموس، زهرةٌ بحرية تنضج في موجٍ حار.

الرياح المُوج تعصف، لا ضابط لها، لوافِحُها من وقدةِ اضطرامٍ داخليّ عقيم، لا تستنيم إلى راحة.

كانت عيناها الجاحظتان قليلاً تنظران إليّ مباشرة، وهي تسبح في الماء الأزرق الرائق المحيط بنا، وسطح البحر سماءٌ بعيدة يومض عليها التماع أشعة الشمس، نقط نور مدببة حادة، تهتز شاهقةً على فلك السماء المتموّج. وكان عنقها المدور جِلدُه محلّى بطيّاتٍ ثلاثٍ رقيقةٍ ينثال الدم من جرح دائريٍ حوله، يترك في عمق الماء خطاً أحمر، يشجّ متعرجاً، محدّد الجانبين، وكثيفاً في داخل حدّيه القاطعين.

بينما الموج شفاف ورقراق وصافٍ حوله، من كل الجوانب.

جسدها السابح بانسيابٍ حيوانيٍ هادىء كأنه بلا حدود. لكن الصَدَفة الصلبة تمسك به، لامعةُ الخُضرة، وفخذاها تضيئان في الموج بسمرةٍ

مونقة. وكانت القواقع المدورة اللامعة الظَّهْر ملتصقةً بنهديها، مشرِعة أشواكها.

كنا نسبح معاً، في عتمة الماء الرقراقة، دون ضغط، دون لهفة، دون توتر. كنا نسقط معاً ولم نصل أبداً إلى قرار.

العتمة المائية الخفيفة، وحدها مثيرة. حسُّ جسمها، قريباً مني، دافىء وسرّيّ يومض بسمرته الغضة، تحت فستان من الشَّبَك، واسع الحلقات، أخضر الموج، يصل إلى ما فوق ركبتيها، وخيوط شبكته ناعمة ورقيقة النسيج، محبوكة وثيقة، ووجهها يلتصق بعنقي، لا أراه، بل أحس ضغط الشفتين الكبيرتين المليئتين.

خدشتُها بأظافري، وتقطر منها الدم النزْر ورحيق الحب النزر.

كان بيت الحب طويلاً وحاراً وعميقاً، وناعم الزغَب، وحضيّ الرائحة، ومدفوناً في اللحم الطيِّع، وقد اخضلّ عشبه.

كان عَبَقها الحميم حرّيفاً وحاداً. وكانت مُكرَّسةً للذّة، سيدةَ لعِب العشق الذي لا تُضارَع نشوتُه، تعاطيني، بحِنكة ومرانة، من غرائب شبَقها ولطائف عشقها ما لم يعرفه بشر.

ما زلتِ ماثلةً في دخيلتي.

ما زالت أحلامي هائمة حول جمالك الخاص، وما زالت أوهامي تحوم حول تجسّدك، حول سرّك.

أحقٌ أنني لم أرك، بنتَ البحر والتراب، هذه الأيام الطوال، هذه السنين، هذه الدهور؟ وماذا إذن في أحلام ليالِيّ المضطربة الشَّبَح، وفي سَبَحات تجسداتك في العتمة وفي النور؟ كأنما من هواكِ، فقط طوارقُ الأبد، ومنكِ أيضاً أشباح النهار الملازِمة. وهذا العشق الذي لا يرِثُّ ولا يبيد.

نارُ تحقّق الجسد هي نور الحق نفسه، ساطعاً، لا ينطفىء.

خمرة النشوة بلورة غضة في حبّة العنب لا تغيض.

وما زلت أضرب في مَتالِف موجِ الشوق، ظمآنُ إلى ملْح المحبة، أكابد روعات الهوى والطلب، ومهالكَه.

انكسرت سفينتي، أنا أيضاً، فإلى متى أستطيع أن أخوض غمراتِ اليَمّ؟

وهل أحطّ عند مرسىً قريبٍ أو بعيد؟ أهناك قارب، هناك، على شاطىء البحر، ينتظرني، متروكاً لي، ماثلاً على جنبه؟

٢ - أعمدة الخشب القديم في الموج

أذكُر، عندئـذ، أن هذا المبنى الشاهق وأنا صغـير كانت لـه هيبة، ومـا زالت.

واجهته رخامية سامقـة، وبين عمـودين شـامخين من الجرانيت لـه بوابـة حديدية ضيقة، موصدة، دائماً.

ومن النوافذ الصغيرة العالية وجوه ناتئة، لشيوخ وعجائز لا نكاد نفـرق بينهم، بيضـاء، شفافـة الجلد على العـظام البارزة، شُعث الشعـر، عيـونها غائرة وعمرها سحيق، كأنها مبتورة عن هياكلها العظميّـة، لم تبق فيهـا غير أثارة من حياة تغمغم بها وتزقزق وتوحوح، بلغةٍ لا نعرفها، من أفـواه حادة مشقوقة كأنما بسكّين.

نسرع الخطو من أمامها، نكاد نجري، ونحن نشد معنا خالتي سارة التي أحبها والتي لا تكبرني إلا ببضع سنين، وأنا أدفع أمامي أختي عايـدة وأختي هنـاء وماريّـة بنت خالتي حنـونـة، وكـانت مـاريّـة زنجيـة البشرة ووسيمـة التقاطيع مع ذلك. مـمسمة.

نزلنا من ترام محرم بك في دوران وابور الميّة، بحديقته الصغيرة المعشـوشبة يُسوِّرها حديدٌ مشغول رقيق وتزدهر فيها دائماً ورود ضخمة وحشية اللون.

وقفنا مع أناس قلائل في البقعة الخالية تحت هـذا المبنى، في نور الصباح اللؤلؤيّ.

ومـرت بنا سيـارة الأمير الصغـير شاهبـور محمد رضـا بهلوي، رأيتـه في

السيارة الباكار السوداء الطويلة، بحاجبيه الكثيفين وشعره المفروق على اليمين في بدلة عسكرية مقفلة الرقبة في هذا الصيف، وفي السيارة التي بعدها الأميرة فوزية التي كنت أحبها، قريبة جداً وجميلة جداً بوجهها الطفلي وضفيرتين طويلتين، تبتسم عن سنّ أمامية بارزة، تحيط بهما الموتوسيكلات الرفيعة العجلات، يركبها الكونستبلات الأنجليز ـ أو الملاّيطة ـ حُمر الوجوه غِلاظ الأجسام، وهي تدور حول المنحنى قادمة من آخر شارع فؤاد، تقرقع في هدوءِ الشلالاتِ المخيّم وخضرتها النضرة، تحت الأشجار الأثيثة القويةِ العضلات.

ذهبنا إلى الشاطىء، ونزلنا من السلالم الحديدية التي سوف أجد التنين الصغير تحتها راقداً في طيات طحالب البحر وأعشابه الحية، لم يأخذني التنين عندئذ في يأس الذي أردته أن يكون أخيراً. احتضنته وآويته في سريري وغذوته بحبات نجوص.

جرينا إلى الماء وخلعت أختي عايدة وأختي هناء وماريه بنت خالتي فساتينهن القصيرة المشجّرة وكن يلبسنها على المايوهات الطويلة أمّ حمالات، وضربنا الموجُ برشاشه الصلب وكتل زَبَده، فرجعنا جريا، نضحك.

وسوف أمر أيضاً من تحت هذا المبنى بعد أن رأينا نتيجة التوجيهية في العباسية الثانوية، أنا وحسن عبد الفتاح المَرْدُني وشوقي الضبع ومصطفى مصطفى مصطفى (تكميب). صعدنا إلى التلّة الضيّقة المسنودة بأحجار ضخمة قديمة وأعمدةٍ من الخشب مغروزة في جوانب الربوة المطلّة على كركون باب شوقي ذي البرج الوسيطيّ المستدير.

تكلمنا عن آمالنا الصبيّةِ الطالعةِ من البحر مبلولةَ الشعر ما زالت، وقلت لهم إنني سأدرس الأدب العربي وسأذهب إلى باريس مثل رفاعة رافع الطهطاوي، لكنني دخلت كلية الهندسة، أولاً لأن أبي كان يريد أن يراني

مهندساً عظيماً مثل عثمان محرم باشا، وأساساً لأن قسم اللغة العربية عندئذ لم يكن يقبل الأقباط.

تعاهدنا على أن نصون الود ونرعى حق الصداقة ثم تفرقت بنا مضارب الحياة وانشعبت بنا مسالكها ولم نلتقِ أبداً، وبعد سنين طويلة رأيت المَرْدْني في شارع النبي دانيال ونظرنا إلى أحدنا الآخر وعرفت في عينيه أنه يسألني من أنا، وترددنا، تلك اللحظة الهاربة بين السؤال والنكران. لم نُحيِّ ولم نتكلم ومرت اللحظة وأخذت معها سنوات الصبا كلها، مرة واحدة، ولن تعود.

في السنة الماضية كنت هنا مع صديقي جورج الذي لم يدخل التوجيهية وقال إنه التحق بالطيران الأنجليزي، وكانت معنا علبة بولوبيف كاملة قال إنه جاء بها من «النافي» وأكلناها نيئة من العلبة، وشربنا من الحنفية الضخمة فتحناها بصعوبة فانصبّت بماء دفّاق يُرغّي، ولقينا، هنا وعندئذٍ، بحاراً انجليزياً بالطاقية البيضاء اللبنية والبنطلون الجرَس الواسع الحافّة، وكانت معي نسخة من «العاصفة» استعرتها من المكتبة البلدية، واعترضْنا البحارَ نصف جادِّين نصف هازلِين لنسأله عن كلمةٍ شيكسبيريّة كنت أعرفها مع ذلك، وفاجأنا البحارُ بلهجته المثقفة الرصينة ومعرفته بالأدب وشكسبير، وسوء فهمه لبلادنا، واستغرب جداً وصُدم عندما عرف مني أننا في مصر نريد الاستقلال التام عنهم وجلاءهم عنا مباشرة بعد الحرب. أما جورج فقال له إن هذه الحرب نعمة وبركة وإنه سيحارب فيها بأي شكل من الأشكال مع أنه معجب بهتلر لأنه مؤمن بفلسفة نيتشة.

من تحت هذه التلّة ومن أمام هذا المبنى تحملني العربة الحنطور المزدحمة بأخوالي يونان وناثان وسوريال وعمّ مقار الأسود الضخم زوج خالتي حنونة، تذهلني ضربةُ الفقدان والشمس وهواء البحر المرّ، خلف العربة السوداء التي تجرها ستة خيول مطهّمة يتقدمها بساط الرحمة البطيء، عليها

ملاك الموت الذهبي المليء بالشباب. وإليها سوف أخرج بعد أن رُدِم القبر بلا مبالاة وكان الرجال الضِخام رافعين أرجل جلاليبهم يدخنون ويثرثرون بعد أن أخذوا المعلوم، وما عدت أعرف أين الآن قبر أبي. من هنا مضت أختي عايدة التي أحبها، ومضت أختي لويزة إلى مقابر الغرب الغرباء، وبعد أربعين سنة كانت السيارات تتزاحم بإلحاح وأصوات أبواقها مرتفعة ومتعجلة وراء جنازة أمي، ومن تحتها سوف أمضي إلى قبري الذي أعرف أنه لن يزوره أحد. وسوف أرى هذه الأكمة السحرية وقد حالت وشحبت ونصلت غضارتُها، سقط خشب أشجارها القديم منخوباً جَوْفُه مُسْوَدّ أشعث ومتآكل، وقامت فيها جدران من الطوب الأحمر، بذيئة بقبحها، ومكاتب شرطة مدهونة بالأبيض القذر.

كانت الضفيرتان السميكتان تنوسان على ظهرها وتصنعان مع بلوزة المدرسة، الموسّلين البيضاء، موسيقى خاصة، وهما اللتان اجتذبتاني، كالمنوَّم، فسرتُ خلفها على طول شارع السلطان حسين بأشجاره الأرستقراطية ثم شارع صفية زغلول حتى أخذت ترام الرمل.

صعدتُ وراءها وقطعت تذكرة طوّالي وكانت معها شلة من أربع خمس بنات، في نفس اليونيفورم، بلوزة بيضاء وكرافتة حرير سوداء وجيبة كحلي، يثرثرن ويضحكن بخفوت ومُداراة، والشُنط المدرسية مضمومة إلى صدورهن الفتيّة، عرفت انهن من مدرسة نبوية موسى وسمعتهن يناديها سوسو. وبعد سيدي جابر نزلن وتركنها وحدها فانتقلتُ، أحس قلبي يضخ ووجهي نزفت منه الدماء، إلى المقعد الخالي أمامها. كانت قريبة جداً وقوية الحضور، ولما نزلتْ في باكوس سرتُ خلفها أعرفها تحسّ بأنني متتبّعها، وكان هناك توتر قائم حيّ بيننا في الشارع الخالي تقريباً المظلل بأشجار قديمة وقصيرة وكثّة حتى وصلتْ إلى بيت حجريّ مربّع من دور واحد على سطحه تكعيبة عنب وله سور حديدي مكسور على ممرّ ترابي.

نظرتها الخاطفة، وهي تدفع بـاب السور العتيق، غاضبـة ومتسـائلة ولا تصدني في وقتٍ معاً.

عدت، سعيداً وخفيفاً كطائر وأنا أمشي لا أحس أني قطعت شارع أبـو قير كله حتى وجدت نفسي فجـأة في سيدي جـابر وكـان هواء أكتـوبر قـوياً ومبلولاً ويملأ صدري.

أما طقس العودة معها في ترام باكوس، فقط لأكون معها، والسير رفقها ووراءها بخطوات قلائل، ونظرة التوديع المخطوفة التي تتراوح يوماً بعد يوم من السؤال إلى الفضـول إلى الـدعـوة إلى الـرضى إلى العتـاب إلى استفـزاز النِفار إلى ابتسامة خفية تتخايل عـلى الشفتين النـديتين المسحـوبتين قليـلاً، فقد كان طقسـاً كاملاً ومقفلاً على ذاته.

كنت أحب، كعادة صباي وكهولتي معاً، حباً كظيماً لا أعرف مـاذا أفعل بـه ولا مـاذا يفعـل بي. كـانت نـوريس فخـري زميلتي في الكليـة، وحلماً متفجراً في الكتمان ومـدمـراً لـروحي. وكـانت سوسـو تستهـويني وتجـذبني فغـامرت. فـماذا سوف أخسر؟ فكـأنّ المسألـة كلهـا مسلّيـة قليـلاً، وكـأنها تُصرِّف بعض الوجع والألم. والألم قـاسٍ على الآخرين، كما هـو قاسٍ عـلى النفس، وأناني.

نـزلتُ من الـترام وراءهـا وهي تـرمقني بسرعـة، والـرذاذ الهـينّ يسقط متقطعاً من خلال صفاء نور بعد الظهر الذهبيّ الممسوح، والشمس واهنـة لكنها هناك، حولها هالة شاحبةُ الحمرة.

أسرعتْ خـارجة من تحت سقف المحـطة الأنجليزيّ الـطراز بقرميـدهـا الأصهب يضرب لونه بسرعة إلى الدكنة، من البلل. وترددتْ لحظة قبل أن تغامر بعبور الشارع الذي بدأ الأسفلت فيه يلمع تحت المطر الخفيف.

ودون أن أفكر لحظة واحـدة وجدت نفسي بجـانبها، وسمعت صـوتي،

أبحُّ وخافتاً وكأنه غريب عني ولكن كلامه مألوف ومردِّد: سوسو، عايز نشوفك!

وكأننا نعرف أحدنا الآخر من زمان.

لم تردّ، حدجتني بنظرة متوسّمة، فواصلت أوسوس بالكلام دون أن أعرف ما سوف أقول، كأنني أنا نفسي مفاجَأ بما أقول: اسمعي. أنا في كلية الهندسة، سنة أولى، عايز نقولك مسائل أساسية. حنستناك الخميس، الساعة خمسة بعد المدرسة، في كازينو الشاطىء، جوه. حنستناك، ما تنسيش الساعة خمسة.

ولم أنتظر، عدت لا أحس ساقيّ تحملانني وركبت نفس الترام الذي نزلنا منه منذ لحظة، لا أصدق شيئاً مما حدث. هل قلت لها ذلك كله ـ على قِلّته ـ أم أنه من مِزَق خيالاتي التي لم تتوقف قط، وهل كنا في ٤٣ بالفعل أم كأن ذلك كله يحدث في شطحات وهمٍ عاتمات غوامض؟

في العَتَمة الموصَدة على سبَحات الجسد همستُ بالاسم السريّ. آوِي إلى غيبوبة الإثم والحلم، وأحطّ على شطّ الكفران، من غير زاد. وقلبي لا يأوى إلى شيء، شأن قلوب سائر أهل الموت.

أرسلتُ إليكِ ـ كم أرسلتُ إليكِ ـ تحية الساقطين، من هوّة الصمت المقيم، وما زلت. ما زلت.

جدران الألم تهتز، أعواد فيها هشاشةُ القش الخاوي، وأصابعي ماتت على سياجٍ يهوى فوق حافة قُبور الأشياء.

أنفاسه تهب على وجهي، بسأمٍ وصبر، يقظ، وعيناه سودوان.

والبحر جثة يلقيها الغسق، تحت أقدام المدينة.

الاسم يسقط مني، برغمي، بين يدي الموت.

فهل سمعتُ أبداً صوتَكِ المُحيي؟

وهل رأيتُ أبداً، على سقفي، نجمة الوجْد الواحدة؟

ولكنها جاءت.

الشيء الذي لا يُصدق ولا يُعقل حدث.

جاءت في الميعاد: بل قبل الميعاد قليلاً فيما يبدو، لأنني وجدتها، هادئة الطير، في ردهة كازينو الشاطبي الدائرية التي كانت جديدة وفسيحة وخاوية ودافئة قليلاً في بعدِ ظُهريّة أكتوبر، وزجاج الردهة المقفل يدور حولنا، كل لوحة مغبَّشة قليلاً بالزرقة الباهتة، تعكس بحراً خاصاً لها، معووجاً قليلاً، تلعب أمواج الزرقة المدهونة بأمواجه الصغيرة وتؤطّره بين جانبي الستارة القماشية المربوطة بكل نافذة على حدة، بحارٌ كثيرة شائهة ومحبوسة.

لوّحتْ لي وجوهُ الميّتين بأيديها المنفصلة عنها من فتحات الرخام العالية ولكني كتمت روعي باحتمالٍ طفوليّ ما زال معي، ولم أصرخ، بل أمسكت بيد أمي، بشدة، وهي تسير بسرعة ورشاقة أمام مبنى الملجأ اليوناني الذي يبدو خاوياً تضرب الوحشة جدرانه.

كنا ذاهبين إلى حمام الشاطبي، وكان اليوم الأربعاء هو يوم الستات.

مشينا على الجسر الخشبي الممدود على أعمدة حديدية نال منها الصدأ مغروزة في كتلٍ من الحجر والاسمنت مدفونة في الرمل. أحسست الجسر يتأرجح تحتنا وأنا أرفع وجهي، وجسم أمي في فستانها السمنيّ الناعم الطويل يقتطع نسيج السماء الزرقاء فوقي.

دفعت أجرة الحمام إلى امرأةٍ سمينة جداً مجعدة الشعر وهائلة الوجه تجلس وراء ترابيزة وبجانبها خَزْنة حديدية صغيرة، وتركتْ لها حقيبتها الجلدية، أمانات، وأبقت معها الشنطة القماش وفيها ساندوتش بيض وساندوتش جبنة

تركي وزجاجة كازوزة سعد مصطفى وفتاحة ومشط ويشكير، وأخذت مفتاحاً خشبياً كبيراً غريب الشكل من لوحةٍ عليها أرقام بالافرنجية فقط جنب الخزنة، وسرنا بين صفين متقابلين من الكباين المتجاورة كالمقاصير أبوابها مردودة، وفي آخر الممر أولجتْ المفتاح في شقٍ طولي وحركته ببراعة وانفتح الباب وهو يصر قليلاً وقالت ليّ: «استني أنت هنا، إوعَ تتحرك».

ردتّ الباب عليها، وأحسست من واجبي ألا أتحرك حركة واحدة فوقفت لا أكاد أتململ وأنا أحسّ بحرجٍ ووجلٍ وحدي بين الكباين، وجاءت سيدة من أول الممرّ، تدور برأسها طاقية جلدية مبلولة حمراء، والمايوه الأسود لامع ملتصق بحنايا جسمها يحبس انصباب طواياه الممتلئة، ظننت أنها تنظر إليّ من بعيد باستغراب واتهام، ولم تتكلم واندفع الدم إلى وجهي والحمد لله أنها دخلت إلى كابينتها من سُكات.

فتحت أمي الباب وكانت بالمايوه الكحلي الذي خاطته بنفسها والذي يرتفع إلى أعلى صدرها وينزل قليلاً بعد دوران البطن على ساقيها، وفكرت أن جسمها، فيه مرتاح وحلو وبياضه ناصع وإن لوّحتْه سمرةُ الصيف، وقالت لي: «تعالَ». وعادت وردت الباب علينا. وكانت عَتمة الكابينة رائقة، ورائحةً مائيّة محبوسة تملأ الهواء الثقيل، وكانت أرضيتها الخشبية زلِقة داكنة الأركان خضرة لزجة خفيفة جداً لها عبَق حرّيف. والشقوق بين ألواح الأرضية تبدو خطوطاً مستقيمة منيرة، وتحتها حفيف الموج واصطفاقه.

بين حائطيْ الكابينة دكّة طويلة يبدو خشبها جافاً ونظيفاً، جلست أمي عليها وهي تجذب عني الشورت القطيفة الأسود بينما أخلع قميصي الأبيض الحرير فتطلع معه الفانلة الواسعة أيضاً، وهي تسندني بيدها الأخرى حتى لا أنزلق، ثم تشد الحذاء الأبيض بكعبه الفِلّ الرماديّ السميك، وتقشر عن قدميّ جواربي البيضاء، رأيت فستانها السمنيّ معلقاً يتموّج على المشجب الخشبي ويضيء في نصف الغُبشة نصفِ الضوء الصباحيّ الصافي.

وضعت أمي حذائي جنب حذائها على المقعد الطويل، أما القميص والشورت والجوارب فقد طوتها جميعاً بعناية ورتبتها في الشنطة القماش التي انتفخت الآن وخمّنتُ أن فيها كذلك ملابسها الأخرى، وأسندتْ الشنطة إلى الحائط الخشبي الذي فيه نافذة مربعة لها ضلفة واحدة، صعبة الحركة، تطل على البحر من ناحية السلسلة.

كنت أنهج، أحاذر أن أنزلق، حافياً، على الأرضية المبلولة، وأنفاسي مخطوفة من الفرح، والجِدّة، والتشوف إلى البحر.

هبطنا السلم الزّلج الذي ينزل إلى الماء وأرى درجاته الحديدية معَوجّة وسوداء تحت سطح الموج، أُمسك بالدرابزين بشدة. كانت أرضية الكازينو فوقنا الآن، ونحن تحتها في الماء، وقاع البحر قريب. وقفتُ على آخر درجة من السلم. وابتل المايوه الصوف الأحمر الذي اشتغلته لي خالتي سارة ووصل الماء إلى ما فوق وسطي بقليل فأحسست رقرقته الباردة الهادئة حولي.

كانت الأعمدة الخشبية السمكة التي تحيط بها من جانب واحد دِعامات مسطحة من الحديد، ترفع أرضية الكازينو والحمّامات والجسر، الماء يصطفق بينها بكسل، وحبالٌ سميكة ممدودة بين الأعمدة متراخية قليلاً تهتز لا يطولها البحر، والطحلب طرياً لامعَ الخضرة، يغطي الأجزاء المغمورة من أعمدة الخشب القديم ويصعد قليلاً فوق الماء يَرُشُه الزّبَد القليل ثم يجف بسرعة. الأمواج في هذا المحبس المائي تحت الكازينو كثيفة بخضرتها الداكنة ولها رائحة عطنة قليلاً من أعشاب البحر وطحلبه، كرائحة الكابينة. والضوء بارد له إشعاعات تنعكس وتهتز وتتموج من تحت، على السقف الخشبي فوقنا، ورأيت نور الشمس بعنفوانه وسطوته ينزل، بعد آخر الكازينو، على البحر المفتوح الفسيح المتقلب الذي تأتي أمواجه بسرعة

بَزَبدها ورغوتها وكتلتها المائية الصلبة فترتطم بأُولى الأعمدة الخشبية، ثم تنسال إلينا بعدها، وقد انكسرت شِرّتها، معتمة هادئة.

لم يكن بالبحر حولي غير السيدات ينزلن على السلم ويشهقن من صدمة الماء ويقفن قليلاً يمسكن بالحبال القوية بين الأعمدة، ثم يتحركن مشياً إلى البحر يتهادين بحرص، ثم يرمين بأجسامهن في الغِمار الطلقة المضطربة ويسبحن إلى عالم لا أعرف كيف أقترب منه.

قالت لي أمي: خليك هنا، مش حنغيب.

تركتني وانطلقت إلى اليمّ العريض تضرب الماء بذراعين واثقتين عارفتين، تصعد وتهبط مع الموج بنعومة، وقد وقفتُ وحدي في نصف الماء نصفِ الهواء البارد في الكِنّ بين أرضية الكازينو والبحر، وكأنها تركتني إلى الأبد، أخبط الماء بذراع واحدة وقد بدأتُ أرتعش قليلاً، أنظر إلى الأجسام الأنثوية العالية حواليّ، والأجزاء الغارقة منها تبدو لي، في الماء الصافي، منحرفة قليلاً، أكثر استضاءة وأنضر استدارة في الموج الساكن، ولا أملك أن أحول عينيّ عن العَتَمَة البضّة، الداعية بغموض، بين السيقان العارية، وكأنني أريد أن أعرف لها قواماً، ومعنى. وهن ينظرن بفضولٍ أو برِقّةٍ، وربما باستياء قليل، إلى هذا الطفل الذَكَر الصغير الوحيد الذي يرتجف من بهجة الماء والاكتشاف والغرابة، حتى جاءت إليّ، شعرها الطويل ملفوف ومعقوص بعصابة زرقاء لم تبتل بعد، ونظرت إليّ بحنان وقالت: «بردان؟» «وانحنت عليّ»، وكانت عيناها خضراوين وتمتلئان بنور أصفر ثم بلون عسليّ داكن كلما تموج الماء بتقلباته الهينة في عَتَمة تحتِ الأرض تحت البحر الرائقة، وكان وجهها قناعاً نحاسياً سطحه حار في البلل، ويكاد يكون مسطحاً بتدويره القليل. وابتسمت لي عن سنٍ بارزة قليلاً جداً ورفعتني إليها، وأحسست نفسي خفيفاً وأنا ألتصق بصدرها الكبير المرتجّ فوق الماء وأرى ظهرها المدوَّر، أسمرُ ومتينُ البنيان وناعمٌ ونسائيٌّ

وقريبٌ جداً من عيني، وجهي يأتي جنب عنقها الطويل وأشم رائحتها الأنثوية المميزة، وكنت سعيداً في حضنها المبتل، ولم أتكلم، ولم أكن خجلاً ولا مستوحشاً وطمأنني أنها لم تقلْ لي: «يا شاطر» أو «يا ولد»، ولم تسأل حتى عن اسمي، وكأنها تعرفني، وقالت لي: «دلوقتي حنعوم سوا، كده وكده مش بصحيح، أنا حنمّسك فيك وأنت بقى غطّس راسك يا حبيبي». وسمعت في صوتها الذي وجدته عذباً ودفيئاً لثغةً خفيفة ما أرهفَها، سحرتني، فغمرت رأسي في الماء من غير تردد، وفتحت عيني في الموج الساجي، وشهدت عالماً تحتياً خاطفاً ومضيئاً ومن غير صوت، موسيقاه خفيّة، وشهقت واختنقت وكنت أحب هذا الغرق ولا أريد أن أنجوَ منه، ولعلني ما زلت أخطف بلهفةٍ في غمرته وأطفو، طلباً لألفةٍ حميمة أريدها ولا أطيقها معاً.

وبين أعمدة الروح التي غشّاها الطحلب ما زلتِ لي نجمةٌ صافية واحدة، وعندما أنام تحت وجه الحب المبلول المشتعل فإن عينيّ ما زالتا صاحيتين في موج الغمر الأخضر الكثيف، وليس عندي من جديد، منذ غرارة الصبا، بل تأكيدُ ما لا يحتاج لفرط يقينه إلى معاودة التأكيد، بل السؤال بلا انتهاء من جديد، وقلبي ما زال مشعوفاً باليقين وبالسؤال معاً.

عندما خرجنا من كازينو الشاطي الجديد، على جسره الحجري المنمق الآن بسور مصقول الحجر، رأينا شمس أكتوبر، تنزل فوق قلعة قايتباي الطالعةِ فجأة، بعناد من البحر، وكنت قد حكيت لها وحكت لي عن آمال الصبا الأول وحبوطاته وأحلامه الوحشيةِ الملامح التي كان لها عندئذ وجهٌ عاقل وممكن وقريب. وحدثتها عن عقيدتي في الحياة، وكيف أن جبرة أفندي مدرس الأنجليزي في العباسية الثانوية سألنا عندما كنا في الثقافة عما نريد أن نعمل، في الحياة فقال زملائي: طبيب، مدرس، مهندس، طيار، وقلت عندما جاء دوري: أريد أن اشتغل شاعراً. فضحك جبرة أفندي

وقال: نعم، وماذا؟ شاعر مفهوم، ولكن ماذا تعمل؟ قلت: شاعر فقط. ولم يضحك، ولا ضحكت هي، وحدثتني عن إخوتها الكثيرين وأبيها الذي مات من طفولتها، وأمها الصلبة التي تمسك بأعنّة الأسرة بأيدٍ قوية، وقالت إنها والمصحف الشريف لم تخرج أبداً مع أحد، غير إخوتها، من قبل، وإنها وحياة الرسول لا تعرف ما دعاها إلى أن تلبي طلبي، فلم تفعل مثل ذلك قط. ولم تكن تعتذر ولا في لهجتها استرضاء أو غواية أو مَنّ بالجميل بل كانت تقرر، ببساطة، فأحسست أن الضربة، عن غير قصدٍ منها، موجِعة. ولكننا كنا سعيدين بمعنىً ما، ونسينا العالم كما نميل أن ننساه في غروب الطفولة وغيابات جب الصبا الغرير، ولم أكن قد سألتها عن اسمها، وحتى الآن لا أعرفه، كنت أناديها بسوسو فقط.

قلت لها: نمشي ع الرمل تحت شوية.

وأدهشني قليلاً ـ مع أنني كنت بدأت أعرفها ـ أنها لم تمانع بل لم تتردد، وأحببتها في تلك اللحظة لذلك، وحده، جداً. كانت قد خلعت شريط الكرافتة الحرير الأسود وكان عنقها الغضّ البنّاتي يَتِعاً راسخ المغرِز ويافعاً، وكان حذاؤها المدرسي منخفض الكعب ولا يغوص كثيراً في الرمل. كان سور الكورنيش على اليمين ونحن نتجه إلى كامب شيزار عالياً جداً، وتحته الكباين الخالية المتنوعة الأشكال والتصميمات لكل منها خيالاته المجسّمة على هيئة مقاصير وأبراج من خشب ومظلّات من حصير ونوافذ من زجاج ملوّن سميك، المربّع منها والمستطيل، المسطّح القريب من الأرض والعالي تطلع إليه بسلّمتين أو ثلاث، وكانت كلها مهجورة وخشبها باهت وحائل من شمس الصيف، ومحرَّم كالداتيللا أو مصمّت، وجدرانه مخطّطة بشقوق رأسية رقيقة. جاءتنا من الكورنيش، فوق، صيحات شلّة عيال صِيِّع وصفيرهم علينا، ولكننا لم نكد نحسّ بهم ومرّوا بسلام، وبينما أغرقني الحرج لحظة، لم يكن يبدو عليها أدنى اهتمام، كنت أنحني على الرمل

وجمعت لها من قرب الشطّ كومةً من الصدف الأبيض الناصع والأحمر المُموَّج الصُهبة والقواقع الصغيرة الكاملة التكوين، ما زال حيوانها الهلاميّ حيّاً في كِنّها العميق، متحيراً، ينبض.

هبّ الهواء، قوياً، من البحر وجاء من الأفق، بسرعة، سحابٌ قاتم واربدَّت السماء وادلهمّت فجأة وخفق ضوء البرق واستطار، مرة واحدة، في نور الغروب، واشتد عصف الهواء. جلجل الرعد وقَصَف بعنفٍ فوق رأسيْنا مباشرة كأن العالم ينقضّ، وقبل أن نتحرك انهلّ مطر كثيف ضخم القَطْر أغرقنا في لحظة، وأحسست الرمل تحت قدميّ داكناً ومتماسكاً فقد هشاشته، وابتل شعرُها الوحْف كله دفعةً واحدة وسقط خصلاً غامقة لامعة على جبينها المدوّر وعلى ظهرها، والتصقت البلوزة الموسلين البيضاء بصدرها وتغير هبوب الريح فسمعت للنسيج صوتاً طرياً يمتلىء بالهواء من أمام وهو يلتصق بظهرها.

جرينا، دون أن نتكلم، كأنما على اتفاق، إلى أول كابينة، وكانت شرفتها الخشبية مغطاة عريضة، وأحسست الكِنّ الجاف مطلوباً ومرغوباً بيننا وابل المطر يدق السقف الخشبي دقاتٍ متقاطرةً، والهواء يهز الحصير من على جانبي الشرفة وقد طلعت له رائحة ابتلال البوص القديم الحادة الريفية. وسمعت حفيف تموّج الحصير تحت هبات الريح المتتابعة.

نظرنا إلى أحدنا الآخر، وفجأة دون كلمة، انفجرنا معاً بالضحك.

تملكتنا معاً نوبة الضحك التي لا تفسير لها، ربما، إلا في بهجة الجسم وتحدي الصبا بجوارحه الفتيّة. لم نستطع أن نقول شيئاً، في اهتزاز الضحك المتصل، وكان لضحكتها في ضجيج المطر والريح على الكابينة الخشبية رنينٌ صاف غير مسموع تقريباً، ولكنّ العالم يحتشد به.

أما أنا فقد صمتُّ فجأة إذ صدمني صدرها الراسخ المخروطيّ تحت النسيج

الموسلين وقد أحال الماء لونه الأبيض إلى شفافيةٍ التصقت بتقاطيعه وحددتها في البلل، تحبك النهدين الكاعبين، وواضح لعينيّ أنهما حُرّان، قائمان لوحدهما، دون قيد ودون مأوى، وقد بدت ثمرتاهما الصغيرتان مدوّرتين وصلبتين، وخصرها دقيق جداً كأنما اتسعت عليه الجيبة الكحلي فجأة، وقد بان لي أعلى قميصها الداخلي، بلونه الفضيّ الباهت وقماشه الساتان الناصل قليلاً، وشريط الدانتيللا على حافته العليا مشعّثٌ وممزّقُ الخروم ظهرت فيه خِياطة رفيعة الغُرَز بين جسم القميص الخفيف والدانتيللا التي تبدو كما لو كانت في الأصل غالية وأنيقة.

خلعتُ جاكتتي الصوف الزرقاء الطويلة وكانت قد ابتل كتفاها فقط، ووضعتُها بصمت على كتفيها، فسكتت عن الضحك، جادةً ومتمالكة.

كفّ المطر فجأة كما انهمر فجأة، وصَحَت السماء، وجاء نور الغروب مصفراً ذهبياً باهتاً مرة أخرى.

التفتت إليّ، وسألتني عن اسمي، لأول مرة، فقلت لها، في شرفة الكابينة المغطاة التي للصوت فيها صدى، وكان وقع الاسم القبطيّ القُحّ غريباً، حتى في مسامعي، وغير مبرّر، شأنه طول عمري، فهل هكذا، في سياقٍ آخر، وجودي نفسهُ أيضاً؟ ولم تقل شيئاً، ولم يتغير تعبير وجهها الذي ظل قناعاً نحاسياً لامعاً بالحنين والحبوط، له نضارته دائماً.

خرجنا، صامتيْن. طلعنا إلى الكورنيش عند كامب شيزار، وأوصلتها حتى المحطة، وعندما جاء ترام باكوس خلعتْ الجاكتة وردتها إليّ دونٍ كلمةٍ، دون شكرٍ ودون لوم أيضاً، وصعدت الترام وحدها.

لم أرها أبداً بعد ذلك.

فماذا حملتِ معك، يا طفلتي الحكيمة، من مغامرة ذلك القلبِ المضروبِ

الأهـوج الـذي كـان يتملص من وَجعِـه، يتتبـع معـك حكـايـةً مقـطوعـة بالضرورة؟

مـا زلتِ معي، في تجسدك المتعـدد المتوحـد معاً، في كـل سهول الخيـال الخضراء، وحقـول الشِعر الخـرافية، وأمـاكن الرُوح المخضلّة، وصحـاريها الخـالصة الصَراح، وذُرى جبـالها الشُم الشـائكةِ الصخـر التي لن أزورهـا جيعاً، أبداً. معي على حفافي البحيرات الزُرق الساجية في بـلادٍ ليست من هذا العالم، معي في كل الحصون والقلاع والقصور والغابات التي لن أراهـا أبداً.

عندما أفقت فجأة، كانت بين يديّ رمال تنثال، وكان فجر الشتاء يسيل من شروخ السماء، ودخل عليّ بسرعة وعنفٍ خفّاشٌ يضرب بجناحيه ضربات توترٍ لا تطاق، من نافذة مفتوحة مضيئة بوداعةٍ خادعة. ثم سَكَن الخفاش، وطـوى جناحيـه عليه، واستقـر وعيناه جـاحظتـان إليّ، حارتّين وناطقتيْنْ بالألم، في الركن الأيمن، على كومةٍ عالية من الكتب القديمة المتربـة. كان هناك، يجثم هادئاً، حُضوراً فضياً ناصـلاً ومحسوساً بشدة، مُنـذراً، وكأنـه غـير مرئيٍ في الـوقت نفسـه، يحمـل إليّ رسـالـةً لا أستـطيـع أبـداً، مهـما حاولت، أن أفكها، وكأنّ حياتي كلها تتوقف على حلّ الشفرة، ولا أحلّها، وكنت كالنائم، وكل خلجة من جسمي وروحي شـديدة اليـقظة، وبجانبي التنينّ الصغير أحسه دفيء الجسم ويقظاً مفتوح العينين، واندفع الخفاش من جانب وجهِ الشيخ المبلولِ الغارق بين الشجر، خارجاً كما دخل كـالسهم، برفرفةٍ موجّهةٍ خاطفةِ السرعة ومخترقة.

ولم تبق من خمرتي، أنـا أيضـاً، إلا حُشـاشـة تشعّ في الكَتْم، سخنـة ونـاصعة أبـداً مع ذلـك، لا تغـرب أبـداً، والمـرّ معقـود في عينيّ. نـوافـيرُ الأشواق من غير ماء، وما زالت السماء مكسورةً على الحيطان.

ما الفاجعة بكلمة.

لا. ليست كلمة.

وهي لا تجيب، حتى عندما قالت: نعم.

فهل سيجف أبداً الطينُ الحيُّ المعجونُ بالحب والوجع؟

٣ ـ بقرش لبن حليب

جسده يحاصره، ولا فرار من اللامحدود الذي يقيم على حدوده، متفجّراً بلا انتهاء.

سئم المَجاز بلا وصولٍ ممكن أبداً، ومَجَّ الدقائق بتفاصيلها ونورها الملتبس. كان يطلب فَنَاء النور، والعمَى كامل السطوع، ويعرف أنه ليس مستطيعه ولا هو أهلٌ له، إلّا بلاعجة الشوق وحنين الجسد.

العَتَمة السرية كِنٌّ حريز له متعته. وهي في حضنه حرية ونسيان، عبقها الداخلي نشوة خالصة الحسية، له طعم محروق. الساتان الفضي ناعم الوَبَرة، يضيء بجسديةٍ أنثوية تمس شفتيه وتنسال على وجهه. عيناها خضِلتان تلمعان بصفرةٍ صُلبة، غاض منها كل حنان، فيهما تطلُّب فقط، وغياب. نهداها متلاقيان معاً، خصبهما الحمران وحده يُكذِّب الخصر المخسوف، ويده على البضاضة المدورة العميقة. نوافحُ كاللبن الساخن واعدةٌ بالزُبد اللدن، ومعها خريرٌ يملأ العالم ويثير توقاً غامضاً في عظامه التي كأنها تسيل بشهقة مفاجئة بشيرٍ بانقضاء توترٍ كأنه المدّ بلا انحسار.

يظل جسده يترصّده. هيكلٌ مسكون ولكنه ثابت لا يهتز. أسراب الملائكة الصغار سود الجسوم تغطيه أسنانها لا حصرَ لها، تبحث عن طِلْبتها، ببطء، في أغواره، أجنحتها لا حصر لها، شفافة، بِيض الحفافي في الشمس، تهفهف عليه من كل جانب. وازيزها حواليه تقشعر له كل خوالجه، متوتراً بدغدغةٍ لا تكاد تُحَس، برعدةٍ تسري ذبذبتها المتلاحقة في أوصاله، أمواجها الصغيرة لا ينقطع، مستنفَراً، لا يطيق جلدَه وخزة

مفاجئة بطعم العسل اللاذع، ناضجاً وعجينيّ القوام. صرخته مكتومة وهو دفينٌ بين دفّتيْ سحابة مغدقة المطر، طيرٌ شاسع الجناحين يرفرف يُسِفّ عليه ويطوي ريشَه المبتل.

سهرنا ليلة الأمس، احتفلنا بالغطاس، وذبحت لنا أمي وزة، وجاء رَفْلة أفندي ابن عمتي المدرّس في المرقسية الشانوية، وتعشّى معنا، وأوقدنا الشمعَ في داخل كراتِ قشرِ البرتقال المجوَّفة الململمة التي كانت تضيء بنورٍ مرتعش فتبدو الحُبيبات البارزة على القشرة كأنها من حَجَر ثمينٍ هشٍ وشفاف. وكانت أمي قد ملأت كل القلل والأباريق الفخارية والزجاجية معاً بماء الحنفية الصافي بعد أن بخّرته، لأنه في ليلة الغطاس يحلو طعم الماء في آنيته. وسكرنا منه قليلاً فقد كانت له عذوبة اللبن والخمر معاً.

في أول الصبح نزلت، وأنا نصف نائم، من بيتنا الذي كان يطل، من شارع ١٢، على دوران الترام في آخر شارع النخيل. وأول ما خرجت من الباب شهقت من صدمة الهواء البارد. وكان صوت التَرام يحتك بقضبانه في الميدان عالياً جداً في السكون.

جريت من أمام البيت الخرابة الذي على قمة شارع البان. الحارة السّدّ الضيقة: موحلةٌ بطين المطر الذي لم يجف بعد. أحاذر الماء ولكن الشبشب الجلديّ القديم واسع في قدميّ قد ابتلّ وأحسّ الماء العكر يطس رجليّ ويُندّي أسفل جلابيتي الكستور الداكنة الدافئة الوَبَر. تحاميت من الماء وسرت على النَشْز الترابي الضيق الجاف تحت السور الحجري الواطىء الذي يحد مصنع الحلاوة الطحينية، برائحته الخاصة التي أحبها، حتى وصلتُ إلى الباب الخشبي العالي الذي أريده، في يدي الكسرولة النحاس الكبيرة ويدي الأخرى معقودة على القرش المخروم الذي تعلمت، منذ قليل، أن أقرأ الكتابة عليه: حسين كامل. سلطان مصر. خمسة مليمات، وكتابة

بالافرنجية لا أعرفها، والرقم ١٣٣٥ الذي كان يبدو لي سحرياً، غير مفهوم.

كانت يدي ممتلئة بالقرش فنقلته إلى اليد الأخرى الممسكة بالكسرولة، مرعوباً أن أفلته من قبضتي، وشببت كي أطول المقبضَ الحديدي الغليظ الذي كان على شكلِ رأسِ ثورٍ مفتوح الفم له قرنان ملتويان راجعان، وخبطته بالخشب، مرة واحدة، بعنفٍ غير ضروري.

كان للباب، من الداخل، سقّاطة تنزل في مستقرٍ لها على الخشب، مربوطةٍ بحبل، فإذا شُدّ الحبل، من جُوَّة، ارتفعت السقاطة. وهكذا كان عم أنيس التونسي، اللبان، يفتح الباب، وهو في دفء غرفته الداخلية، يكتفي بأن ينادي، بصوته الأجش: «مِنّ؟» مخطوفةً بلهجة أحسها غريبة، فأكتفي بأن أرد: «أنا.. عايز بقرش لبن حليب» دون زيادة في التعريف. فيقول، من الداخل ما زال: «أُدخلّ... أُدخل أُمال يا بْني» كأنني أمانع في الدخول.

دفعت الباب بجنبي كله، بجهد، وخطوت إلى مدخلٍ عريض غير مسقوف، أرضيّته ترابية، ورائحته مَكْمُورة مع أن السماء فوقه صافية الزرقة تجري فيها سحب طفيفة بيضاءُ الريش.

وإلى جنب الجدار الحجري السميك، الذي أعرف أن غرفة النوم تقع على جانبه الآخر، تقف الجواميس الثلاثة، مربوطة من سيقانها الخلفية بحبال قصيرة ثخينة في حلقات حديدية مدقوقة بحجر الحائط جلْدها الدفيء الشكل مشدود وداكن على أضلاعها المقوسة البارزة، وعظامها ناتئة، وتنظر إليّ بعيونها الجاحظة الهائلة، تجترّ، رغوتها البيضاء اللزجة تنزل من أشداقها.

وكان حمار عم أنيس أبيض فارهاً وغندوراً، يقف تحت ظلّة من الخيش، مائلة

وممدودة على أعمدة خشبيّة قائمة غليظة، وعوارض أفقية رفيعة تهتزّ قليلاً.

هاجتْني الرائحةُ الحيوانية الكثيفة.

كان الروث الطازج تحت الجاموس حار الشكل وطرياً وخصيب النكهة.

وفي آخر المدخل الترابي الطيني رأيت الولد صالح مكوماً نائماً في قميص متصلب من الوسخ الجاف، على فرشته، جنب الحائط. كانت ساقاه السوداوان مفتوحتين وعضلتين والانتفاخ بينهما واضح وكبير. كان الولد صالح قصيراً مدكوكاً متين البنيان وأبله قليلاً، وكان يحلب الجواميس ويمسحها ويطعمها وينظف تحتها ويعجن الروث ويجففه ويقرّص منه الجلّة، وكان يقبّل يد عم أنيس في الدّخْلة والطّلْعة، ويدخل على امرأته الجديدة دون دستور. ولم أكن أخاف منه بل كنت أحبه، وكان أحياناً يعطيني، في السرّ، لقمة عيش سخنة مدهونة بالزُّبد الطازج.

نفختْ جاموسة بشدة، وخرج البخار من منخريها أبيض سريع التطاير، فأجفلتُ وأوشكتُ أن أنزلق على بقعةٍ طينية مختلطة بروث لزج، وانحرفت بسرعة إلى يميني وأنا داخل إلى البيت، وفي أول ممر مبلط ومسقوف كان باب غرفة النوم مفتوحاً.

كان عم أنيس جالساً على تلة مرتفعة صُلبة الجوانب، يصنع قهوته على الكانون الحجري الصغير الذي بناه تحت الحائط الحجري العالي، وكانت غرفة النوم هي الغرفة الوحيدة في البيت، واسعة ودافئة، ولمحتُ السرير الكبير في وسطها، لا تكاد تبين من بين ملاءاته أمينة الصغيرة، العروس الجديدة، نائمة.

كان عم أنيس في جلبابه المغربي الأبيض بلون الكريمة، وبعد ثلاث أربع سنين عندما انتقلنا إلى البيت الذي يطل على ترعة المحمودية، في شارع النخيل، أمام الاصطبل، كان يأتي على حماره الأشهب، وقد ارتدى

البُرْنُس المغربي الواسع أبيضُ أميلُ إلى الصفرة الباهتة، فوق هذا الجلباب، وأرخى الطرطور الطري على مؤخرة رأسه، وينادي من تحت: «لبَ.. ان.. لبَ.. ان، يا أهل الله». وكان قد ربّى لحيته الشيباء وشدّ بها وسوّاها، وشفّ جلدُ وجهه حتى لأكاد أرى تحته الشرايين الدقيقة الزرقاء، ولكنه كان قد امتلأ ولوحته الشمس قليلاً. وكنت قد عرفت عندئذ أن امرأته الصبية قد تركت له البيت، لأنها كانت ماشية في البطّال، وأن اسمها الآن ميمي قشطة، ولم أكن أعرف بالضبط ما معنى ذاك كله ولكني كنت أحدس بالطبع أنه من أسرار النسوان الشائقة والمخيفة معاً. لكنه لم يطلقها، بل سمعت أنها شالت عنه القضيّة، حتى بعد أن تركته، وأنها قضت في الحبس ثلاث سنين وأنه استمر طول المدة يصرف عليها وعلى أبيها العاجز وأخوتها الكثيرين. وقالت أمي إنه رجل رَطْل، وقال أبي إنه شهم وابن أصل.

أسعار اليوم قمح صعيدي مواني فول صعيدي منقّى ونباتي ومسقاوي وعلّيق وأذرة فيومي وصَفْرا وشامس وبحيري وناب وعُوِيجة وقمح هندي ذَوَاتي وعدس صحيح إسناوي وفَرْشُوطي ومجروش أسيوطي وتِبْن صعيدي معبودتي الماكرة سنحيا متعانقيْن ونموت في قبلةٍ واحدة إذا قُدّر لنا في طريقنا إلى قصرنا الصفصافي الضائع ولنفْنَ في هذا البحث وماذا يهم أحدهما يتأمل والآخر يُحبّ «بعيداً بعيداً سوف أطير إليك ليس في عربة باخوس وبين شعرائه المرحين بل على أجنحة الشعر الخفية هوذا الليل ساحرٌ في رقته والملكة الغَادَة فوق عرشها الفضي تتناثر حولها جنياتها الصغيرات النقيات» محترق العينين ممتلئاً بالنار نحو الظلال المتجهمة يتصارعان في جنون يتحدان ليكونا إلهاً كاملاً غريباً «أمس وصلني جوابك وفيه تطمّنت على غالي صحتكم أما نحن فلله الحمد من يوم الاثنين لغاية الآن لم يحصل بطرفنا شيء ما بالكلية ولا صفّارات ولا غارات ولا قنابل بالمرّة ومتعشّمين تستمر هذه الحالة بالنسبة لاشتباك ألمانْيَة مع الروسيا وناكل عيش في

اسكندرية» يا لُعبتي الصغيرة الجميلة مَنْ لي بحياةٍ كحياتك بيضاء زرقاء جمودٌ حيٌّ معبدٌ قديم على جبل مغبر أشهب اليأس يعبث بي أشعُر ببرودة أصابعه مهيضة الأغصان في كبرياء بشريةٌ ضائعة أنغام قبْرةٍ تمزق السكون مرسلاتٍ غدائرهن كليلٍ أو كبحرٍ مائج الظلماتِ فالشِفاه سقْم وهنّ شفاءُ الرحمة هي ثروة الحكيم صَرَخَ صوت الدم من أعماق الصمت الشاحب أجسامُهن فضة دافئة مذابة أين أنتِ ألقتْ على بشرتها النقية بقناعٍ مذهّب شفّاف موغِلاً في شعابٍ مظلمة جافة شائكة السوسن الوادع والنغم الشارد لا بداية لها ولا نهاية يطرد الأرواح الشريرة خَدينَ هوىً وجوىً طاح بي كصرخةِ طيرٍ بمهجورٍ بيدٍ شجواً يُرجِّعُ والدياجي هُجَّعُ والنجم يُصغي والأزاهر تونقُ وهبَّت العاصفة القاسية المجنونة ارتعش الأفق وانهارت سحب السماء وانطلقتْ الزوبعة في زئيرٍ كقهقهة شيطان «لكنني في هذا الظلام المطبق أتلمس العذوبة التي تجود بها الأعشاب والآجام والأشجار البرية والورد الوحشي بين المراعي والبنفسج سريع الذبول كم من مرةٍ حننت إلى الموت وكم من مرة ناديته بأعذب الأسماء في نغمات مستغرقة ذاهلة» وكأقدام كابوس تحطمت الزهور ورقدت أشجار الصفصاف على حافة الغدير وقد هدمها الريح الجبار وسُودُ الدياجِي تكاثفن كالراهب القائمِ المكتسي بالبُرود في جِي غضِّ الأثأبِ الأرعلِ غمْر كمينٌ غرثانٌ لا يتململُ والجو أسحمُ والغابُ مطِنب فيها الدجَى كالمُجْهَلِ قلبي عتريسٌ قطِمٌ هائجٌ بطِشٌ عفْر المُعصْفَرِ لا بل دِثاره مخملٌ وإذا بصدى صرختي يرن عميقاً ممتداً متطاولاً يردّده ألف فم وتنطلق في إثره ألف قهقهة ساخرة جهنمية غريبة رائعة «أكلُ اللحم وركوبُ اللحم ودخول اللحم في اللحم» ودارت عيناي في شبه جنون وانطلقت أجري وعينا رنت بالأصيل المذاب بموج الأراكِ وخمر برودٍ كأنما في أعقابي الهلاك صائحاً متعثرًا بالصخور أتخبّط في الأشباح أصطدم بالأجداث تدمى قدماي على الأشواك والعظام كنت في جانبٍ من جوانب كهفٍ من كهوف

جهنم من سعير «وهي في مقعدها تأكل ثوراً وتخرى بقرة» اليوم وردت رسالتكم وعند ورود البضاعة نصرّفها بجهدنا لصالحكم بصل وارد شندويل وسوهاج وبرديس وأبو شوشة وطهطا وطما وديروط والعميرات وبني مزار ومَغاغة وبيض لباحة وصعيدي ومرفوت والمبيوعات أمس في أسواق بلاد برّة القنطار أقة ٤١ سوق ليفربول وسوق هول ولوندرا وسوق تريسته نشرة تجارية يومية» «يا آنيةً إفريقيةً يا عروس السكينة والهدوء يا بنت الصمت والزمان البطيء يا مؤرخة الغابات والأحراش أنتِ يا قادرةً على ان تحكي لنا أساطير القدم الزاهرة «هو الحب يبدو كطفلٍ غفا ساهِمَ العينين جيّاش الحنين كيف عيناها كأمواج الغَسَق أم كخمرٍ سكبتها شهرزاد الا ضاق صدري بوردِ الخدودِ وهمسِ النجوم يفنى حنيناً خلابَةُ اللحظِ يجري السحر من فيها بروسبيرو ساحرُ العاصفة أيتها الأرواح يا ساكنة التلال والأحراش والينابيع والبحيرات الآجنة الحوريات اللاتي تداعبن بوسيدون برشاقتهن الساحرة تشاكسنه «أيا مصر هذا لِواء الهرم على النيل يخفق منذ القدم تمر عليه جيوش الزمان» وتغرقنه يا عرائس البحر الراقصات على الشط دون أن تترك أقدامكن قَصَصاً على الرمال ٥ مليم لبن ٣ مليم خلّ ٢ مليم معدّية من راغب باشا إلى غيط العنب ٢ مليم محابس حنفية ٥ مليم عيش ١٧ مليم زيت ٥ مليم طماطم ١٠ خيار كاليبان الطاغوت الزنيم وأربيل يرقب أشرعة السفن وقد ملأها الهواء نفثاتُ قلبي وقطراتٌ من روحي صببتها على الورق فكانت سلواي وعزائي في حياة موحشة مُقفرة يومض ٣ مليم فول و٥ مليم بذر مَرْو ٥٧ مليماً سبعة وخمسون مليماً في ١٦ مارس ١٩٤٢ أسعار الخيش بصل وقطن زكايب وزن ٥ مربعة ومستطيلة لقد هامت روحه الظامئة وتركت له جسماً يتحرك في بطء وذهول وتأوهت الأزهار في خدورها الخضراء وأصغت الآلهة وتساقطت دموع الفتى الراعي وأفلتت يدُه القيثارةَ محبوبَته الوحيدة الوفية التي ظلت وحدها تحتضنه حتى النهاية النور ولكن سرعان ما يخبو ما أحبها إلى روحي

يا بِتّ يا شايْلة السَّمنَة في الزَلَعْكَة عُكّة عُكّة هِيِيْ نُوِني هِيِيْ فاتراتِ اللحْظ يُضرمـن قلبي بالفتورِ والجمرُ في عَبْراتي وبعد أيها الوادي العميق حيث يجثم كهف الظلام ويبسم معبد الأحلام أيها الوادي حيث ترتطم الأمواج الصغيرة في أعماق الهوة المظلمة فيرتفع أزيزها حيث تتغنى الوردة الغضة على فَنَنِها الهافي ويحتضنها الأرج العِبق في شغف صُغْ من فؤادك أنغاماً تُسلسلُها ككوثرِ الخلد ألفاظاً تغنّيها طُظّ في طُظّ في طُظّ تكعيب.

قال لي عم أنِيس: أُدخل يا بني يا حبيبي سَمّ وادّخل.

ثم هتف وهو على الشلتة يرقب كَنَكة القهوة قبل أن تغور: يا أمينة، قومي صُبيّ له بقرش لبن، واتوصّى.

ثـم ضحك ضحكة جشاء ومليئة وقال: ادخُلْ جُـوّه امال، إوعَ تكـون مكسوف؟

الغرفة، على سعتها وارتفاع سقفها، مليئة وحميمة الرائحة، وقد اصطفّت على طول جدارها الحجَري المرتفع أسطالُ اللبن الاسطوانية السوداء، وارتفعت بجانبها أجولة العَلَف والفول والتِبْن، وزكايب الخيش الفارغة، وشِلَت منجّدة عليها أكوام غامضة من الملابس ودولاب كبير مفتوح الضلفتين قليلاً، تتخايل مرآته الداخلية بنور مكتوم ومشع.

نزلت أمينة من على السرير العالي المهوّش بزبد الملاءات، مكومة وبيضاء كالفل. كان جلدها أسمر وغضاً ويبدو باهتاً من تقويرة قميص النوم الفضي بلون الشمع، نازل الفتحة ومُفَوّف بحوافّ متماوجة من نفس اللون، ونهداها ظاهران، مقببينّ ومتحاضنينْ وجِسُّهما في عينيّ بضّ وصلب معاً.

وعندما هبطت على الأرض المغطّاة بكليم أسيوطي ممتد كثيف الوبرة وأدخلت قدميها في شبشب حريمي بكعب عال من نفس لون قميص النوم تذكرت

فجأة أنها عروس جديدة. وخمنت أنها ربما في سن خالتي سارة التي لا تكبرني إلا ببضع سنين. كانت صبيّة الوجه، ومتوفزة الحركة. رمت على كتفيها شالاً من نفس اللون، واسع الغُرَز، ومن تحت القميص الوثيق اللامع كان بطنها يبدو هضيماً ومسطحاً تقريباً، ووسطها دقيقاً جداً يتفتح فجأة نازلاً عن ردفين مليئين وثقيلي الشكل. قلت فيها بعد: آنية هيلينية اسكندرانية، وبنت بلد بصحيح.

نظرت إليّ بابتسامة فيها مكر صبياني وغواية نسائية معاً. كان شعرها جعداً ومفلفلاً وقصيراً وبادي الخشونة، ملفوفاً في مدوّرة قديمة طرية النسيج. ورأيت أن عينيها فاتحتان جداً. قالت لي: صباح الخير يا حبيبي.. أيوُه.. يا خَبَر عليك، دا رجليك مبلولين خالص. طب اقلع الشبشب ده وحُطُه جنب النار حانشّفهولك على طول. وامسح رجليك الصُغَنّتين دول في الكليم. ما تخافش. دهدي. طَبْ لوو خدت برد ياذّ لعَدي أمك تعمل فينا ايه. يا حوستي يا حوستي...

لم أردّ. لكني أطعتها، من سُكات. وكنت أحس وجهي سخناً وقدمي الحافيتين رطبتين.

أخذتني فجأة إليها، وقبّلتني على خدي، وضمتّني بحنو وثيق. اختنقتُ لحظة في حضنها، فأغمضت عيني، ورائحتها الأنثوية، رائحة النوم مع الرجال التي أعرفها ساعة القيام من السرير عند أمي، وعند نساء أخوالي، مختلطة برائحة اللبن الدسم الطازج تملؤني، وأحسست تحت فمي مباشرة الجزء اللينْ. السفليّ من نهديها اللذين جاءا على أعلى وجهي، لحظة هاربة، اغتصاب خاطف ناعم، ثم تركتني.

رأيتها تبتسم ابتسامةغامضة غير محسوسة وهي تدبّ الكوز العِيار في سطل دائري ضخم نصف مليء أسود من الخارج وجداره الداخلي لامع

فضي نظيف، تسكب لي اللبن في الكسرولة النحاس الكبيرة، بصوتٍ خريرٍ مُشبع، كأنما من ضرع منتفخ، وقالت لي، عيناها الصفراوان الخضراوان طيبتان، وقَعْهما عليّ بردٌ وسلام:

ـ يا ختي دانت مكسوف من قشطة. دانا زي أختك برضك.. يُوه.. وإزايّ أبوك، الراجل الطيب السُكَّرة ابقى قول له بس ميمي بتسلم عليك. إوعَ تنسى يا حبيبي، دا السلام أمانة. بس استنى شوية قبل ما تطلع عَبَال رجليك ما يِدْفُوا، وروح شوف عم أنيس، باينّه عايزك.

وربتت على خدي بيدٍ أحسستها رَخْصةً وسَلِسة بل سائلة.

كان عم أنيس مستنداً إلى الوسادة الطويلة، غير نظيفة كل النظافة، على الشلتة. شَفَطَ الحُسوة الأولى من فنجان القهوة التركي المرغّي بسطحه الغامق الكثيف، وشممت عبقَ البن الطازج وحِواج الحَبَّهان والبهارات المغربية. ومدّ يده من غير أن ينظر، وأخرج من تحت الشَلْتَة، ورقة زِبْدة بيضاء مُدْهِنة، ملفوفة بعناية على عجينة صغيرة داكنة، قوامها متماسك، وقال لي أنْ أُمسك بها جيداً فلا تقع مني، وأن أعطيها لأبي أوّل ما أدخل البيت. وكنت أرى أبي يضع تحت لسانه مثل هذه المضغة الصغيرة السوداء، ويمتصها ببطء مع قهوته على الصُبحيّة كل يوم.

أغمض عم أنيس عينيه وكأنما غاب عنّا وأنا أخرج إلى الممرّ المبلّط البارد قليلاً، إلى العالم، وإلى «كلماتٍ من غير شكلٍ ولا نطقٍ ولا مِثل نغمةِ الأصواتِ».

غصتُ بعيداً في لجج الأحلام أكثر بكثير مما ينبغي فشاهدت الأهاويل وطِيبُ العيش هتْكُ الحياء وإنّي وإنْ كنت غضاً إهابُه لآتٍ بما لم يستطعه مجرِّبُ وبعد ماذا تريد مني أيها الوادي العميق إنيّ لأذكُر والذكرى شعاع يخطر في ظلام بعيد مقبرة مفتوحة شاسعة تناثرت فيها العظام والجثث أتعثر

أصرخ أينَ الجمال فاحَ عطر الورود بالوَجَنات يا عرائس الشعر والسحرِ هاتي زهرةً ضلت طريقها هي الأخرى فنبتت تنفث العطر والسمّ وسط الجماجم وفي غمضةِ عينٍ سمعت صوتاً من داخلي أفِقْ أيها الانسان زرتَ كهف الظلام ووادي الأنوار لم تكن إلا في رحاب قلبكِ البشري ونهْجُك في اتّباع الهوى إذ ذاك يأنس الضال بالضال ويحنو الشريد على الشريد ويهفو القلب طَمْ طَمْ بَرْطَم بَرْبَرْ طَمْ قديسٌ مَعْوُج الفم بَعْرَوْزَمْ الجمالُ الحقُّ الجمال هذا كل ما تعرف وكل ما تحتاج إلى أن تعرف أبداً أليس كذلك اللهم رحمتك إلهي إلهي ألا تسمعني ألا تحن لصراخ قلبٍ ممزق ألا تغفر لخاطىء مجرم وأنت الواسع رحمته أنت المحبة الكلية الخالصة ربٌّ حنانك اللهم خذ بيدي وأخذتْ أفروديت الإبرة والقوس وهربت من عالم الظلام وخاطته بالمخمل الحريري على مرأى من پوسيدون الذي غاص بين أمواج الزَبَد المتطاير والعشب الطحلبيّ وفي أعماق المحيط صبغته أفروديت بذوب اليواقيت مشعة تحدق في عيون جنيات الماء أزِح اللهم عن عيني الغشاوة اللهم نجّني من الشرير ارحمني كيرياليسون كيرياليسون يا محبُّ البشر ما أنا إلا نفس سوتها يداك لحكمة سامية لا أدريها نارٌ مسعَّرةٌ بقلبٍ يعشق وتلاشى النورُ تحت أقدام الظلام والريح تَبْغم والندى يترقرقُ في عتمةِ الروح سِحرٌ وسلام صِحْتُ في أسى طاغ الهي لماذا خلقتني ايلي ايلي لم شبقتني وهل أُلهِمتُ هذا الرضوانَ لأشقى الشفاه المجدولة من القرمز في بحر من السواد ولمعة عينيك في قساوة الاسوار هآنذا أعود مثقلاً بحصادي الحصاد الهشيم وسعادتي في أحلامي في برجي العاجي في سماواتي السبع والسبعين في ظلماتي السبعمائة لا في ذلك الجدول القذر الذي يدعونه الحياة إيروس أيها الطفل الجموح إن الأزل والأبد لن يقويا على قوسك وسهامك ولا الموت ولا الجحيم «ومن جهة الغارات بعد غارة غيط العنب وغربال التي سبق عرّفناكم عنها لم يحدث سوى غارة بسيطة فجر الثلاث الماضي ورموا قنابل على السكة الحديد وكانوا يقصدون كوم الناضورة إلا أنها وقعت فوق

محلات الفخار والصيني وهَدَمَةٌ نحو ثمانية دكاكين والخسارة بسيطة قتل ثلاثة وجرح سبعة فقط لأن الدكاكين ليس فوقها مساكن والناس ابتدت الرجوع لاسكندرية» صوتها الساحر الموسيقي ونغماته المتصاعدة الهابطة وابتسامتها المضيئة وطفولتها البريئة في صوتها محيطٌ من المشاعر والمجاهيل فلا أمتعَ الله بانَ القدودِ ضحكات قصيدة حلوة خافتة متتابعة من فم جميل رشيق أنيق ونظرات قصيرة حلوة خفية متتابعة من عينين ساجيتين حرية ارفعيني لنورِ دنيا الخيالِ للهتافِ بالغيدِ بالغانياتِ وسعاد ترفرف ما أبعدَها وجماعة الفرّانين الصعايدة في الزقاق ضوء خافت من مصباح زيتي في الليل البهيم يا ربةَ الخلدِ منذ الخلدِ أعبدُها ويدمِ قلبي وقرباني أفدّيها «ومالك منها غير أنك ناكحٌ بعينيك عينيها وغَضبك صالبٌ» وهم يضحكون ويعملون في الدفء والوحدة والظلام يتراهفون ويتمازجون أصوات خشنة مبحوحة ضحكات نادرة غريبة فيها رنة من البؤس والصبر وقد بِتُّ فَرْشي قَتادٌ وقلبي لهيفٌ لصبحٍ بعيدٍ بعيدَ «أيتها الآنية أيها الكيان الإغريقي الجميل يا من نرى على جدارِكِ الأشباح الرخامية للرجال والعذارى وأغصان الغاب والعشب يوطأ تحت الأقدام إنكِ تحيريننا كما يحيرنا الأبد» المندثرة كلها ألم مكبوت يبدو بين الفينة والفينة في صوتٍ أبحّ مترنح يكاد ينعس عالمٌ مقفر موحش تحدق به محيطات من المشاعر والمجاهيل يا قلب غَنِّ مُداماً طاب صافيها والشفاه نارٌ كماءِ فُراتِ، وقل لي: هل من الوجْدِ مزيدٌ وغنًى يا نفسي فالعيش لُبْسُ طُظَ في طُظَ في طظ تكعيب.

قبل أن أُعتقَل في ١٥ مايو ١٩٤٨ كنت قد أجّرت، باسمٍ مستعار، غرفة فوق سطح بيت من أربعة أدوار في شارع متفرع من عرفان في محرم بك، في الأربعينيات كانت الأمور أسهل. كان شارعاً جانبياً هادئاً ومظللاً بالشجر العريق. كان بالغرفة سرير نقّالي قديم، حديد، صدىء وملته هابطة ولكن المرتبة جيدة والملاءات التي اشتريتها بنفسي نظيفة فُلّ،

ودولاب ملابس ضلفته غير ثابتة وغير محكمة وضعتَ فيه الكتب والدوريات الماركسية والتروتسكية التي أطلبها من الناشرين فتأتي إليّ من أوربا وأمريكا على صندوق بريد في البوستة العمومية في المنشية، وأصول المنشورات والمخطوطات الثورية، والمجلات والكتب التي اشتريناها من مكتبة شوارتز في شارع صفية زغلول، ورُصص النسخ المترجمة بالمئات من قصص جوركي وتشيخوف التي نشرناها على حسابنا من ترجمة فوزي المُرّ وشفيق راقم.

وضعتُ في الدولاب أيضاً ثلاث قنابل يدوية إيطالية من مخلفات الحرب ومسدس «باريتا» صغيراً صادرتُها، باسم اللجنة، من أحمد النمس بعد أن أقنعته بأن الإرهاب الفردي عمل عقيم وأنه لا جدوى من قتل كبار الرأسماليين المستغِلين لأنهم طبقة وليسوا أفراداً ومن ثم فأن «الإرهاب» الطبقيّ الجماعيّ الذي يمارسه حلف الطبقات والفئات المستغَلة المقهورة هو الديمقراطية الوحيدة الحق، وكان النمس إخوانياً في الأول وظل على ولائه للعقيدة التروتسكيّة حتى بعد أن طوحت به الأيام مدرساً في الكونغو الذي أصبح زائير، وفي جنيف وباريس وفيينا مترجماً بالقطعة في الهيئات الدولية.

اشتريت فازة كنت أضع فيها زهوراً يهديها إليّ جنايني في البلدية كنت أريد أن أُجنّده في الحركة، أو أغصاناً رفيعة يابسة متلوية أجمعها من على الرصيف وأقصّها على نسق خاص أرى فيه جمالاً خاصاً، فقد كانت عقيدتي في الحياة أن الثورة لا يمكن أن تستغني عن الجمال. وفي الوقت نفسه كانت الزهور والأغصان تنفع في التمويه على الجيران فيظنون أنني رسام أو غاوي فن. كان في الغرفة مع ذلك صندوق الجستتنر البدائي الزجاجي واسطوانة المطاط، وكومودينو، وأباچورة.

لم يكن فيها لا كرسي ولا كليم ولا حصيرة ولا شيء. كانت عارية جداً ومع ذلك عامرة بنفسٍ حميم شخصيّ جداً وغير شخصي في آن. ولم يكن

يعرف عنوان هذه الغرفة إلا قاسم اسحاق النوبيّ المعجباني اللامع الذكاء الذي أحببته ثم ترك جماعتنا وانضم إلى حدتو ومات بالسرطان بعد أن قضى نصف حياته في السجون والمعتقلات. ولكن المفتاح ظل معي. ولا أعرف ماذا حدث للكتب الثمينة ولا للأسلحة ولا للزهور، بعد أن اعتُقِلت أنا وقاسم اسحاق معاً.

عندما رأيتها فجأة في شارع عِرفان كدت أختنق في صدمة التعرف دون تردّد لحظة واحدة. وذهبت إليها على الفور. وعندما صافحتها وجدت يدها رخوة في يدي، ساقطة لا عصب فيها.

كانت جاكتتها الزرقاء التروآكار منسدلة على فستان حريري بدا في عتمة الشارع كأنه أحمر داكن، وخمّنت أنه مصنوع من قماش الهراشوت الذي كان يباع بالرخص في زَنْقة الستات، من لوطّات بضائع الانجليز التي ركدت بعد الحرب في المخازن.

وعندما صعدت معي الأدوار الأربعة كانت تنهج، وتعلقت بذراعي على السلم، وخيل إليّ أن العيون المتلصصة كانت تحدّق إلينا من وراء الأبواب المغلقة. كانت الغرفة باردة جداً في ذلك الشتاء، وعندما رددت الباب خلفي وجدتها في حضني. كان ملمس شفتيها الرقيقتين غضاً ودافئاً في البرد، كانت شفتاها متحركتين وحيّيتينْ. هدأت رعشتها بين ذراعيّ ووضعت ذراعها فوق جانب وجهي فغطته كله ولم أعد أسمع من العالم الاغمغمة جسمها المستند بخفة على جسمي.

كان نور الأباجورة يأتي خفيفاً ومشاعاً، من جنب، فيضيء بقعةً من الحائط الأبيض، ويلتمع فيه ركنُ السرير الناصع المسوّى، ويسقط على عبّاد الشمس الذي جف ماؤه في الزهرية وصوحت أوراقُه المتشعمة بتماسكٍ صعب لا ينفرط. أما سائر الغرفة ففيها عتمة سِرية لا تكاد يبين منها الإطار

الخشبي المزدوج الذي يحمل صورتين مقطوعتين من الكتب، من غير زجاج: ألبير قصيري وليون تروتسكي.

عيناي تحدّقان بالعينين النجلاوين الفاحمتين القريبتين جداً مني الغائرتين الآن قليلاً، حولها تجاعيد رقيقة جداً في الجلد الأسمر الأسيل، وكأنهما لا تريانني لأنهما تحيطانني بموجهما الثابت الصلب. ولكنهما كانت في حضني حريةً غير مبرّرة، ونسياناً لجسمي.

كنت قد خرجت من المعتقل، قبل آخر دفعة، من ستتين فقط. أصدقائي في العمل الثوري كبروا وتخلوا عن حماسات الصبا واندفاعات التمرد. وكانوا في الأول يتجنبونني، حتى تيقنوا أنني أيضاً قد يئست من الحكاية كلها، بل لم أكن أقرأ حتى الأهرام.

كانت محطة الرمل تبدو كأنما تقع في بلدة أخرى لا أعرفها ولا أعرف فيها أحداً. والنخل السلطاني عقيم، صفّان متقابلان عن شجر طويل رشيق أشقر الجدائل غريب عني. والناس الذين تصورت أنني أحبهم حب المسيح وتروتسكي معاً يمضون إلى حياتهم، ولعبهم وجدّهم، في ترام البلد وترام الرمل، بعيدين جداً.

وكان بكالوريوس الهندسة، بعد المعتقل، عبئاً عليّ، ولا أعرف كيف أحصل على قوت يومي أنا وأمي وأخواتي. وكنت أُحرّم على نفسي ركوب الترام. وعندما أتمشى، ضجراً ووحيداً، حتى محطة الرمل في العصر لا أشتري - حتى - زجاجة كازوزة من أمّ ١٣ مليماً فلم يكن في جيبي ما يكمل ثمنها. وكانت سخريتي الفلسفية ومرارتي الشعرية بهذا كله لا تطاق. فما معنى هذا الحرمان وما أهميته؟ لكنه على صبيانيّته كان شديد الوطء أيضاً.

انكرتُ شهادتي الجامعية، ولما كنت أعرف كلمتين بالانجليزية والفرنسية فقد اشتغلت في النهاية «مساعد ورشة» في شركة بناء فرنسية مصرية مختلطة

لكي أحصل على عشرة جنيهات في الشهر كانت نعمة، لأن المهندسين المصريين لم يكونوا موضع ترحيب أو قبول حتى من الشركات سنة ٥٠، وانتقلت بعد ذلك، بعائلتي وأعبائي وحبي من راغب باشا إلى كليوباترة. وكنت أول ما اشتغلت في الشركة قد وقعت، بصاعقة، في حبي نِعمتي صخرتي الثابتة، ولكن يأسي كان كاملاً من الحياة والحب والسياسة والشعر جميعاً.

في الصبح، نصف نائم، بعد سهرة مع مالارميه، وأنا في الاوتوبيس الذي يأتي على البحر ليقف أمام سيسيل وأغيِّر منه إلى أوتوبيس الدخلية، رأيت الدبابات والمصفحات وحاملات الجنود تقرقع على الكورنيش يضيع صوتها في هواء البحر كأنما لا علاقة لها بالمدينة أو بأهلها، تذهب إلى غاية غير واضحة عند رأس التين، وتبدو لي غير جدية وغير مهدِّدة، ولا داعية للانفعال. كانت أمواج المينا الشرقية كأنها مصنوعة الزرقة، تضرب كتل الأسمنت الضخمة المعووجة المدفونة في الماء ناشئة الحواف تحت سور الكورنيش. زَبَدها قليل. وكان الناس القلائل بجلاليبهم وأقدامهم الحافية، وبالقمصان نصف الكم أو البدل الصيفي الكاملة، يتوقفون لحظة، ثم يهتف بعضهم في غير حماسة، ويدعون الله بالنصر لجيش مصر. كان أخطر حدث في تاريخنا الحديث يقع أمامي دون أن أعيره اهتماماً. أو أدرك معناه.

لم أكُن، ولَسْتُ، بعيداً عنك جداً أيها الصبيّ المتفزز المعذب بتمزق جسدك بينما مادتك الخام تتكسر وتُصاغ صياغتها النهائية.

أراك الآن في منتصف ليلةٍ إسكندرانية صحو في أول الخريف. القمر، مدوراً وفضته صلبة، يدمر السماء بسطوعه الذي يكهرب جلدك. وأنت في غرفة الصالون الأرضية الفسيحة المطلة على شارع ابن زَهْر. الطقم الخشبي

المنجّد بقماش أزرق مُزهر ومشجّر وكُحلي الوَبَرة ما زال جديداً ومتيناً، يبدو ضخم الحضور في الغرفة المقمرة، شبّاكها الأرضي عالي الضُلَف، له قاعدة حجرية عريضة. أين كان أبواك، وأخوتك، كلهم هناك؛ لم يتحيّف الموت المتربّص أحداً منهم بعد؟ نائمين؟ في الغرف الداخلية المقفلة على نومهم؟ فكأن الشقة التي تطل من جنْب على شارع راغب باشا، غير بعيدٍ من حارة الجُلنار، كانت كلها لك، خالصة وحرة.

كنت قد ضربك حُبُك الحقيقةُ الأوّل الذي ظل أخرس ومدفوناً، والضربة قد غارت إلى عمقٍ لم تكن قد وصلتَ إليه من قبل في محباتك الصبيانية، وترجماتك شيلي وكيتس، ودموعك مع المهجريّين ومع مرجريت جوتييه وأنا كارنينا وآلام ڤرتر، وأشعار الروح الساذج الكئيب، وتيهك بالكلمات، وتيه الكلمات.

الكَرَوانة الصغيرة النحاس التي كانت أُمك تأتي فيها بالبُلْطى من المَلاّحة، فضيّاً لامع القشور وطرياً ولطزاجته نكهةُ زَفَارة نظيفة وبريئة، جافةُ الآن. كَوّمتَ فيها أوراقاً كثيرة، مهوّشة وممزّقة، فواتير تجارة أبيك القديمة التي أفلست من زمان، امتلأت فراغاتها بالشِعر، صفحات لامعة الوجه من كراريس المدرسة الثانوية وقد غطتها كتابة رقيقة الحروف، ورق رزّ أبيض باهت وخفيف مزدحم بالكلمات الكلمات الكلمات، وورق كثيف حاد المكسر له حفيف خشبي جاف، بالحوار بين ملائكةٍ مسيحيين وآلهةٍ يونانيين وجنياتٍ رومانتيكية وحوريات بحرٍ لم ترهن قط لكنهن كن يعمرن هذا الشطّ الليليّ.

نقطة جاز وعود كبريت، وعلى أرضية الشباك المفتوح على الليل الخاوي كانت المحرقة الصغيرة تلوح نارها المتراقصة شاحبةً، صفراء بيضاء، في غمْر القمر.

رائحة الورق المحروق ودخانه المتطاير ينصبّ في الشارع بسرعة ويختفي. دخان خصلة الشعر القصيرة الجعدة السوداء أكثف وأنفذ حرافة ودَسَماً. لفحُ النسيج المشتعل الذي جف عليه ندى حميم قديم وتعلقت به أوهام حية ذكّرك بنفْث الكانون والنار المكنونة ترعى في حَلْفاء المقابر.

لم يطاوعك قلبك وقد أوشك القربان الصبيانيّ على التمام.

لسعت ألسنة اللهب الدقيق أصابعك وأنت تستنقذ مِزقاً شعَفَتْها النار، وحمشتْ حفافيها، مشعّثة، سوداء الأطراف.

دخان هذه المحرقة المؤسية مرفوعٌ إلى مَن؟

مَنْ يقبله. وهل يراه حسناً في عينيه؟

أم يرفضه ويردّه إلى الصبيّ الذي يعبر عتبة رجولته، وخطوته قائمة في الدهر، لا يحطّ رجليْه أبداً؟

٤ ـ مادونا غبريال الصامتة

في الطريق من حارة الجُلّنار إلى العباسية الثانوية يصحبني، كل صباح، حُلمان:

السينما

والمادونّا.

السابعة إلا خمس، بالدقيقة، على ساعة الحائط المعلقة في الفَسحة، أنزل.

كتبي المدرسية، ورواياتي، أطوي عليها صفحتين من «البصير» حتى لا تعرق يدي عليها. لا أكاد أحس ثقل الطربوش على رأسي، والهواء البارد المبلول يدخل إلى صدري من القميص المفتوح، السماء المضيئة بالصبح البِكر الفسيح، وعند انشعاب الشارعين المتلاقيين، والأسفلت الأسود يلمع بماء الرش أو رذاذ المطر الخفيف الذي انجاب بسرعة، وعلى واجهة البناية التي تطالعني عند المفترق، إعلان سينما ركس في إطاره الخشبي الرفيع وألوانه الخام الصرّاح.

باب الحلم ينفتح.

أعظم قصة غرام الجواد الأزرق الناصع الأسود الفاحم الذي تنفتح فيه فجوات بيضاء يشب على ساقيه الخلفيتين ساحرة البحار الجنوبية أسمعُ صهيله الملوّن وأنا على صهوته أمتشق السيف الأحمر المشرع في السماء وأبتسم ابتسامةً صلبة أنت أميري بل دولة حُسنكِ لا غِلاب لها فلِمَنْ

أقول، كما قال سلفي القديم: قد أبْلَتْنِي الذِكَر؟ الفاتنة المقطوعة الفخذين الثديان كرتان هندسيّتان بكمال التدوير زرقاوان تحت جواد امرىء القيس المِكرّ المِفرّ معاً وكُميت ابن أبي ربيعة الذي لم يبح بسره وإن باح به مُجمجِماً في غلالتها الحمراء المفرودة على شطّ المحيط تحت رخام النخيل السلطاني الأخضر الجدائل مغامرات الفارس قاهر الأبطال سيف طليطلة العَضْب المهنّد وطعنات العيون النجلاء ليلى العامرية سافو فرچيني جريتا جاربو هند التي ليتها أنجزتْنا ما تعِد تايبس جلوريا سوانسون مُنى ماريّة الاسكندرانية ماجدولين عزة كثيِّر مرجريت جوتييه جنجر روچرز رحمة لوريتا يونج ميمي قشطة بهيجة حافظ چودي جارلاند لنده وصاحبة الروب الأزرق الحرير في محرم بك من بعينه فيم يتدرقي الدمع العصيّ وفيم يتراوح عليّ شَجْوُ الغابر الحاضرِ أبداً أركَعُ بجانبها على رمل الجزر التي شطّت بها الشقة بين الأمواج الاستوائية بذاءةُ شفتيها القرمزيتين المفتوحتين لا تقاوَم وذراعي تحت البطن المخسوف الأصفر المشقوق والحروف بالعربي والإنجليزي تفترش ما فوق الفخذين بينها مسافات خاوية مُخايِلة الأسبوع الأخير بناءً على طلب الجمهور.

وأنا أجري، بعد الظهر، إلى بائع الصحف صاحبي العجوز الذي يؤجرني، الواحد بملّيمين ونصف، الهلالَ والمقتطف والمجلة الجديدة وروايات الجيب، ويضع فَرْشته على الرصيف تحت مبنى كومبانية النور في شارع صلاح الدين، أمرّ خطفاً بالسينما عند التقاء شارع راغب باشا بشارع الخديوي توفيق، أمام الدخاخني. مخزن خشب مهجور له سقف جمالون صفيح، باب الحلم، مثل السجن تنزل عليه شبكةٌ حديديّة تُغلِق الباحةَ الغامضة. لم أدخلها قط.

ثمرات الحلم التي دَنَت لي والتي عزّت لم أقطفها كل الجياد الصواهل خارقة المستحيل التي لم أركبها كل النساء اللدنات اللاتي لن أصنع الحب في

بضاضة جنسهن كل البحار التي لن أخوض عبابَها لاهبّتْ بي أعاصيرها ولا زقزقتْ الببغاوات في أدغالها كل سجون الأحلام التي لم تنفتح لي مغاليقُها وأفلاك السماوات التي أردت أن أحتضنها وأضمّ عليها ذراعيّ كل قصور ألف ليلة المرمرية وكهوفها التي تضربها الأمواج كل الغيلان والحيتان والمسوخ والمردة أصحاب العين الواحدة والحوريات المختومات الفروج والجنيّات الكافرات القاتلات والقرود الناطقة والطيور ذات المناقير الطويلة الحمراء وجُعَبِ الجلد المثقلة بالزمرد والياقوت تسبّح باسم الله كل الأمجاد التي لن تتحقق أبداً، فهل يمكن أبداً العودةُ إلى أماكن الصبا والشباب المفقودةِ المبعوثةِ من قبرها العميق إسكندرية الثلاثينات وقاهرة الخمسينات وبطرسبرج دستويفسكي واخميم الأربعينيّة وباريس موباسان وموسكو تشيخوف وبراري جوجول الفِساح ولندن ديكنز وثاكراي بحيرات ورد دنسورث والبساتين الصوفية في بنغال طاغور والعودةُ هَوَسٌ مقيم وما من عودة أبداً.

التفجّع سهل ومبتذَل قليلاً، ولكن الفاجعة، بالطبع، ليست كذلك.

إلامَ الوقوف على رسوم الأنقاض، شأنَ أسلافك القدامى؟

«الآن» عندك دائماً بارحةٌ منقضية، فليس عندك «الآن»، والذي مات هو دائمُ القيامِ من قبر سمعان ودائماً هو ملكوتٌ لا شك آت.

ذلك كله قد انقضى. قد مات.

ألا تريد أن تقتنع؟ ألا تتوقف أبداً عن السقوط أمام الأطلال؟

ألا تعرف كيف تُنهي طقس التوديع؟

مادة الأحلام هفهافة طيارة لا تلين تستدير حول رسغيّ وقدميّ كأصفاد الحديد.

لم يكن هذا الصبي قد التقى، بعد، بهذا الكهل، صِنوه وغريمه، الذي عرف الآن أنه قد قاتل بضراوة طول عمره وصنع حياةً حافلة بأكملها مليئة بالتحققات، وترك الأشياء «الحقيقية» تمر من بين أصابعه دون ندم: الثروة والسطوة والنسوان وكأنه لم يعرف بعد أنه قد عبر الحياة، كأنما في حلم، على هامش الحياة، وأنه ذو بُغيةٍ يبتغي ما ليس موجوداً، كما قال.

لماذا أجد أنّ دُحْدِيرة الفَخْرانيّة في غُربْال دائماً معتمة في بكرة الصبح وغير حقيقية؟ لماذا أراها، على سعتها، كأنها، كلها، تحت الأرض؟ أين صفو السماء الصباحية الباهرة وسحبها البيضاء؟ وكأن فوقي سقفاً من الخيش يتقطر منه ضوء نزْر وَشِل أو من سحابٍ عَمّاء جَام.

أعبر وراء مبنى الكنيسة الإنجيلية من ممرٍ ضيق مبلَّط بين بيتين متقاربين جداً، فأجد نفسي، مرة واحدة، على مطلع ساحة الفخرانية الواسعة ثم أنحدر بعدها على المنزَل الوعر الذي دعكته الأقدام حتى حارة متلوية تنفذ بي إلى الشارع المسفلت العريض الذي تطل عليه ربوة العباسية الثانوية بسفحها المخضرّ اليانع النبْت. كانت هذه التخريمة توفر عليّ أكثر من عشرين دقيقة أقضيها مع أصحابي قبل الحصة الأولى. ولكن الأهمّ، الجوهريّ، الأساسيّ، أنني بالضبط قبل أن أهبط على الدحديرة بسرعة أمام فرن الفخراني الكبير المتقد دائماً بنارٍ لافحة مكتومة، بالضبط في تلك البقعة على ذروة العالم، وفي نفس الميعاد، بالدقيقة، كل يوم، ألتقى بالمادونّا.

تسطع سيّدتي التي نورها يُضيء ركاكةَ الحياة.

تخرج، فجأة، في ميعادها بالضبط، من الزقاق الجانبي الوحيد على يميني كأنها تنزل من السماء لي أنا وحدي.

في أول ساحة الدحديرة دكاكين أرى فيها رفوفاً كثيرة خشبية فارغة ليس عليها شيء، ونور لمبة الجاز الوحيدة صفراء اللهب، وأفران مغلقة بأبوابٍ

خشبية مرتجَلة من ضلفة واحدة مصنوعةٍ من ألواح مدقوقة بعضها إلى بعض بمسامير جسيمة ويتبدى من شقوقها وهجُ نارٍ تبدو في الصبح شاحبة. وكأنما يحرسها الشحاذ مقطوع الرِجلين تلتصق عظام حوضه مباشرة بخشبةٍ مسطحة ذات عجلات يدفعها بذراعيه كأنه هو أيضاً مدقوق إليها بمسامير غليظة، وهو دائماً، في تلك اللحظة، يأكل الفول المدمس بالكمّون من طبق صفيح عميق وعلى ورقة جرنال أمامه ما يشبه الجعضيض أو الجرجير والعيش المقمر البايت معه الشحاذ الطويل القاتم الوجه الذي كان يطلع سلالم بيتنا في غيط العنب من سنين، هو نفسه، نصف عار، يدقّ بزَلَطة كبيرة على أضلاع صدره الناتئة بصوت ارتطامٍ مكتوم، والمخلاة الخيش الكبيرة ملقاة على ظهره، معلقة من كتفيه، يقف على بابنا وأسمعه بصوت أبحّ مخنوق: «عشانا عليك يا رب» من قدّم خِير بيداه التقاه. لله يا محسنين». فأدخل جرياً إلى أمي لتعطيني رغيف العيش المقمّر الكبير حَسَنَة، يأخذه من يدي وأحس أصابعه القويةِ العِظام، ويرميه في الشوال المنبعج على ظهره مليئاً حتى نصفه بالعيش. كنت عندئذ أراه مخيفاً وأحسه قريباً جداً إليّ، كأنه من عالم آخر، صحيح، ولكني أعرفه حق المعرفة، بغموض، أذهب إليه وآتي منه.

تطلع المادونّا فجأة، فتذهب رؤيةُ الأشياء. ليس إلاّها.

السيدة العذراء أم النور ست دميانة سانت كاترين معاً.

مَن هي؟

فيم يهمّني؟ وما مبالاتي بمَ تفعل في الحياة، بمَن هي، بعلاقاتها، بظروفها، أهي مُدرّسة في المدرسة الابتدائية الملحقة بالكنيسة الإنجليزية التي كانت لويزة أختي تتعلّم بها، لم أسألها، هل هي بيّاعة أم عاملة في الفابريكة مع جمالات أخت مني؟ هل هي متزوّجة أم بِكْر؟ كنت أعرف أنها تتجاوز حالتيْ الزواج والعُذرية معاً ولا تُؤخذ بمعايير هذه الأرض.

لفحة عينيها في عينيَّ، لحظةً خاطفة، وظل ابتسامةٍ خفيفة مُخايِلة، لا تكاد تستبين. كل يوم. كل صباح.

لا أحس إلا بما هو فوق السعادة، وفوق الإحساس.

ثم أصعد ربوة العباسية الثانوية، بين جموع الطلبة الذين يرقون المشى المُسَفْلت الطويل الذي يلتف صاعداً حتى ساحة المدرسة الفسيحة، وأنا على حفافي موسيقى خاصةٍ بي، مُحلِّقة.

ما زلت أرى وجهها، ورديّ المسحة قليلاً، مُحبَّباً قليلاً بحبيبات دقيقة جداً لا تكاد تستبين، وشفتاها مكتنزتان، فيهما دُكنة قرمزية. ملمس الوجه زيتيّ دسِم تشرَّبَ عجينة الزمن القائمة وأضاء بها، وهو حتى الآن يخامر ليلي ويراود جوارحي، وجهها، وما زال، أيقونتي من كنيسة أبي سيفين في أخميم ومن رفاييل وبِنْتوريشْيو ودافِنشي وكوَرجْيو معاً، غيابه عن الأرض ليس غيبوبة بل حضور مقيم، وعيناها بحيرة شاسعة الحدود، خضراء ذهبية، هما العينان اللتان تطعنان هذا الصبيَّ الكهلَ معاً بالمضض والجوى الذي لا يريم، وتوسِّدانه وثارة الرضى، في آنٍ معاً.

مادونّا غبريال الصامتة.

جسمها هيكل، ساقاها عمودان متينان ومُنغَّمان، مجلَّلان، بالتاج الخفيّ المكنوز. حوض المعمدانية ومنهل الماء الحيّ أشرب منه فلا عطش لي أبداً. نهداها باهران كأنهما مقدسان، يُرضعان العالَمَ لبنَ الحنان، مدورين تحت البلوفر الصوف المشغول باليد، يوماً أحمر اللون، وفي اليوم التالي أزرق، بالتعاقب، بلا خلل، لا تغيّرهما طول السنة إلا في أول الصيف وقبل الإجازة إذ تضع البلوزة الحريرية في لون الكِريم السَّمْني. أما الجيب فهي سوداء دائماً بلا تغيير، أسودها لا يبهت ولا يحول ولا يغبر، شاهق، صوف أسسحم أو نسيج مهفهَف صيفيّ ولكنه دائماً فاحم أدهم.

على اليمين في الدُحديرة وأنا نازل، ساحةٌ ترابية واسعة رُصّت فيها أكوام وصفوف من الزِلَع والبلاليص والقُلل والأباريق والقَصارِي والطواجن وسُلطانيات اللبن والزبادي ومناقد الفحم والدفّايات الفخار، صغيرةً وكبيرة مستقيمة ومنبعجة، ملمس الفخّار الخشن يحكّ يدي وحبيباته الناعمة كوخزات الإبَر، خفية، بينما أنا أنتظر نعمة الظهور. الفرن الكبير في آخر دكان ضيق الباب أُحسّ صهْد النار فيه، متأججة ومكبوحة الجماح، تستعر بتفزز وتئزّ دون توقف، والفخرانية حول الباب وفي الفرن وفي الساحة، صغار الأجسام سود شِداد منحوفو الوجوه، بالقمصان القِصار مقصوصة الأكمام لا تصل إلى رُكَبهم الصلبة، وعلى رؤوسهم الطواقي البيض المغبرّة واللِبَد الحمراء الداكنة والعمائم العريضة ذوات الذوائب والشيلان أم شراشيب، منحنين على النار، أو نائمين منهكين، أو يبيعون ويشترون كالسلاطين، ولكني لا أرى أحداً من الفخّارين على عجلاتهم، فهل يأتون بالصلصال الطيّع من مواقعه البعيدة الغامضة، مادة حياتهم نفسها؟ وأين هم في عتمة الصبح اليومية التي تغلّف وجهها الغريق في مياه ساجية، قد أسبلت عينيها على ابتسامة الموت التي هي تمام الحياة، ندية خفية، راضية وفيها كل السلام.

طلّعوها من الشاطبي السنة التي فاتت بعد لحظاتٍ من غيابها تحت سطح الماء، مغمضةُ العينين، باسمة. وسيُخرِجون، من الموقع نفسه، جثةَ الطيار الألماني وما زال الصليب النازيّ على صدره وقد أكل السمك وجهه ونهش بطنه وكانت رائحته مزيجاً من العفونة والتحلل والبراز العالق بالمصارين وفساد الجوف معاً، لا تطاق.

الموج يضرب أرض أحلامي الليليّة المتكررة من الصبا حتى الكهولة. تراب دحديرة الفخرانية والأزقة الصاعدة إليها والنازلة منها، تلتوي وتضيق، بين جدران طويلة طويلة من الطوب النيء، تدير ظهرها إليّ.

أبواب ضيقة تَفتَح على مداخل مظلمة تقعي فيها النسوان اللاتي يلبسن الجلاليب الفلاّحي السوداء أمّ سُفرة مكشكشة ولكن الأبواب تنسدُّ فجأة في وجهي دون صوت، وتعود الحيطان مصمتة لا ثغرة فيها ولا منفذ منها، تُطبق عليّ وأنا أجرى محمولاً على الهواء، دون جهد، ثم أجد نفسي أحبو على يديّ وركبتيّ في نفقٍ محفور في الأرض، نَفْح التراب القديم ملء صدري، حتى أصعد على العلواية وأنحدر على الأرض الخوّانة تميد بي. ماذا يطاردني؟ من يتعقبني، بإصرار؟ لا أراه، لا أعرفه أحس فقط أنفاسه تنهج ونيّته لا تهن. الشحاذ ـ الجذع المبتور الساقين يقهقه في وجهي بلا صوت، والقرداتي يمسك بالنسناس الصغير الذي كأنه ابنه الجنين أو أخوه التوأم المجفَّف، ويجذبه من رقبته بسلسلةٍ ضيقة الحلقات أُحس ضغطها على عنقي، وأشهق طلباً للنفس. وتتصاعد من على يميني من على يساري أمامي وخلفي دائرة تُطبق عليّ أكوام القلل والأباريق والزلع ترتفع فجأة تحيط بي وتتهددني وتتهاوى لا أحسها أبداً تسقط لكنها تظل دائماً على وشك الانهيار. أعود إلى هذه الأرض على غير انتظار، كأنما الأمواج تخبط حوافّها، من تحت، غير مرئية، في متاهة الليل. ويتكرر التيه، ليلة بعد ليلة. ولكنها أرض خاوية. المادونّا قد بارحتها ومضت. وأنا أريد أن أخلّص بنفسي منها، من غير خلاص.

اليدان الناعمتان بأصابعهما المسحوبة الطويلة، أظافرها عاجية في لون الصدف وائتلاقه. يدٌ مضمومة تمسك بالأخرى المرفوعة، توقفتْ وهي تتحسسها بحنو، تعتنقها في لحظةِ راحةٍ أخيرة، واليدان كلتاهما تخفيان الوجه الذي فيه وَحْده خلاصي، تحت نسيج أبيض شبه شفّاف شبه معتم، ضبابه مائيٌ وكثيف وهفهاف.

بعد إجازة الصيف لم أرها قط مرة أخرى. لم أُودّعها.

ما زالت معي تقطن تحت جلدي. لا تريد أن تُبْرِئني.

أخرج من هذه الأرض فجأة لأجد نفسي تحت هذه الربوة العالية المخضرّة النَّبْت التي لا أعرف ما هي. أمي تقبض على يدي وقد اضمحلت نفسي وأنا أتشبّث بملاءتها السوداء الملفوفة بشدة حول جسمها، وحولي كُبْسة النسوان بالملاءات والجلاليب البلدي والطُرَح الفلاّحي، عاليات، متلاصقات في الزحمة التي لا نَفَس فيها، يتحركن ببطء وصلابة لا رادّ لها نحو باب صغير يقف عليه رجل جسيم يلبس البالطو الطبي الأبيض العكر البياض، يوارب الباب بحرص ومجاهدة لكي يُدخل النسوة واحدة، واحدة، مع طفلها أو بنتها، ثم يعود يُغلقه بقوة يرتكز برجليه، بشدة، على الأرض حتى لا يقع.

أخذتني أمي إلى «الانجليزية» لتكشف على عيني وتعالج حمرتها المؤلمة أذكر الإبرة الطويلة الفضية اللامعة، وسنّها الحاد، يثقب عيني، وصرخة الرعب النهائي بينما أمّي تمسك بذراعيّ تحتضنني بقوة والممرضة الفارعة الناصعة تضم وجهي بين يديها ضمة وثيقة تثبته حتى لا أتحرك ولا أتملص، بينما الطبيبة الرقيقة النحيلة بيديها الشفافتين، عيناها بزرقتهما الصافية الثلجية مسددتان إليّ، بحنو وحزم، وهي تدخل الإبرة في عيني، روع الفزع المسيطر ما زال قائماً حتى الآن.

«عيادة الليدي كرومر». أقرأ الآن اللوحة، بالعربي وفوقه الانجليزي، في طريقي إلى ربوة العباسية التي أعرفها الآن، وأرى هذا البابَ نفسه موصداً، والشارعُ خاو ونظيف أمام السور الطويل المنخفض التي تتدلى عليه أغصان الشجر المورق الكثيف، والمباني الغامضة وراء الشجر، سقوفها مثلثة من القرميد الأحمر الداكن وشبابيكها طويلة وعالية وفيها قضبان حديدية متقاطعة.

«ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعمار». الصوت العميق

السحري الذي طالما أسكر الملايين وملأ صدورها بالنشوة. «لقد حمل الاستعمار عصاه على كتفه ورحل إلى غير رجعة». يا ليت! كم رفعنا الرأس، وكم نكّسناه. والعساكر دائماً تقف على الأبواب الموصدة، لا تفتح، وتضربنا بالعصي الغليظ وبالقايش الجلدي الصلب الذي يقع على عظام الظهر والكتفين يهدها، كالحديد.

في بيت كليوباترا الحمامات، قبل أن آوى إلى كتابي الليليّ، وسريري، بعد نصف الليل بكثير، كنت أقف في الشرفة الصغيرة قليلاً، أملأ صدري بهواء الليل المحمل بملحٍ خفيف من البحر، وأنظر إلى الشجر، تحتي، في حديقة البيت المقابل، عبر الشارع الضيق النائم. شريط السماء، بين سطوح البيوت المتقاربة، فضيّ أو رائق الزرقة أو تجري فيه طيور السحاب أجنحتها كبيرة ومرفرفة.

ليلتها سمعت باب الغرفة الوسطانية التي جنب غرفتي يتفتح بحرص من غير صوت.

فلما نظرت، بحرصٍ ومن غير صوت، من خصاص بابي الموارب بالكاد، رأيت باولا، الطليانية، أمام غرفتهم، في قميص نومها اللَّبَنِي الواسع النازل الفتحة، معلقاً على كتفيها العريضتين المدورتين بحمالات رفيعة حمراء.

تقف ساكنة. أُحسها متوترة وتكبح جماح جسدها القائم هناك، في غبشة نور المصباح السهّاري الخمسة شمعة الذي تتخايل تحته مائدة الأكل الطويلة وقد شالت أمي المفرش من عليها الآن، والكراسي الستة القديمة العالية الظهر، في نصف العتمة نصف الرؤية.

تقف على الباب كأنها تنظر إلى داخلها هي، لا ترى في الخارج شيئاً، غريقةً في النور الباهت الساجي، خارقةً في سكونها، قبلتْ هذا الغرق تهبط أبداً إلى القاع بلا وصول ولا قرار.

كنت اعرف أن أنطونيو، زوجها الفتيّ القويّ، وبنتها كـارلا التي تقارب أختي الصغيرة سنّاً، نائمان بالداخل على السرير الواحد الكبير.

كنـا، بعد أن مـات أبي الآن من سنين طـويلة، نتحايـل عـلى المعـايش بتأجير غرفة وأحياناً غرفتين من بيتنا، في الصيف، بالأسبوع أو بالشهـر أو طول الموسم حسب التساهيل.

وكنت عندئذ أشتغل مساعد ورشة في شركة الباتنيـول الفرنسيـة المصرية التي كانت تبني ميناء الدخيلة. أنزل من البيت السـابعة إلا خمساً بـالدقيقـة كل صباح، بعد أن أكون قد نمت ساعتـين ثلاث سـاعات، بعـد أن أكون سهرت أقرأ الروايات الأمريكية والشعر الفرنسي. كنت عنـدئذ أقلعت عن العمل السياسيّ الثوريّ من زمان، وهجـرت طهرانيّـة الثوريـين، وتعلمت السُكـر والنهَم إلى التدخـين والسهر في الفـريسكـادور، بعـد الصعلكـة في الشوارع وغير الشوارع، إلى ما بعد نصف الليل. وكنت أحب نعمتي الباقية حباً ممزقاً وممضاً وجائحاً، وأواعد أوديت على السينـمات أو على بـاستروديس ولا أفعـل أكثر من أن أمسـك يدهـا في عتمة الفيلم أحيـاناً، وأقبّلهـا عـلى خدها عند اللقاء أو عندما أقول لها «إلى اللقاء»، أحياناً، ودون أن أعِدها، صراحة، بأكثر من ذلك على أي الأحوال.

هل كانت پاولا تقارب الأربعين؟ فتيّة وفـوّارة الجسد، في ذلـك الصيف، كأنما تهاجمني بأنوثتها الوفيرة. في الصبح، تأتي على الإفطار، عـارية الصـدر تقـريباً تحت البلوزة الخفيفـة المتهدلـة التي تتجاوب، سـاقـطةً عـلى ثـدييهـا المليئـين، مع شعـرها المسترسل الـذي يسيل بنعـومةٍ وكثـافـة عـلى كتفيهـا الشامختين.

كانت إسكندرانية، أصلها من العطارين ولكنها تزوجت أنطونيو صاحب الجراج وورشة ميكانيكا للسيارات في الظاهـر، وسافـرت معه إلى مصر من سنين.

وكـانت على العشـاء تفتح علـيّ بـابهـا وتقـول لي عـلى سبيـل المـداعبـة «بوناسـيرا . . كومي سْتـايْ؟ استابيني؟» عينـاها مُغـويتان، خضرتهـا زرقاء داكنة وضحولتها خطرة وزَلقة. قالت لي:

- إيـه دي؟ إنتَ حبيبي تملي تملي كتاب في إيـدك. حتى إنت وبتاكـل. لِيل نهار، ليل نهار. إيه دي؟ إنت متحبش أبداً شويّة فانتازيّة؟ شويّـة بحر شويّة رقص وموزيكا؟

بلهجة مصرية تماماً لهجة بنت بلد أصيلة. يعني، تقريباً.

وكان أنطونيو مولـوداً في السكاكـين، وتعلّم في دون بوسكـو وكان متـين الجسم، دائماً مفتوح الصدر عن شعر أسود كثيف، عَضِل السـاعدين تحت كمّيه القصيرين الماسكين على ذراعيه المتفختين بالفتوة.

أما كارلا فقد كانت رفيعة العظام جسمها الطفليّ البِنُوتيّ له زوايا حادة. وقلقة الحركة وثّابة العينين. وكانت أكثر سُمرةً من المصريات - حتى لا تقول أبداً إنها طليانية.

كـانت پـاولا من نـوع صـوفيـا لـورين، أو كلوديـا كـاردينـالي، وحـارّة، ومصرية الدم، مقبلة على الحياة، حادة الذكاء ومرحة، تبدو مُحنّكة الجسد، مبذولة ومنيعة معاً. كـأنما كـان فيها إرهـاصٌ وتنبّؤ ببعض مـا كانت عليـه جِنيّتي النَهْمة كاهنةُ تَنيني مَنَاتي وسَوْسنتي ونُوني.

نعـومة وجههـا كأنها سرٌّ محـترَز عليـه من القِـدم تشـويـه، بـل تكمله، حُبيبات دقيقة غائرة كأنها لا تُرى وكأنها تقع خارج الجسم خارج الـوجدان خارج الزمن. تمـام الوجـود الذي لا بـدء ولا آخر لـه. الضباب الجسـدي السخن الأبيض يصعد ويتطاير ويتلوى مِزَقاً حادة الألسنـة وله أزيـز متصل مُلِحّ اتشحت بمرط الهوى خيوط الوجد تحتضن بضاضة البطن الوثير المـدور وتحبكه يتمزق النسيـج فجأة كـأنه يحـترق بنار غـير مرئيـة ولصوت انفصـام

السدى واللّحمة هسيس غير منتظَر وتتهدل الأشواق مرتمية على الشط المفتوح أنين الموت شبقاً وجوى والعشق عذابٌ لا تنتهي متعته والقلب الغَوِيّ مبذولٌ دون حيطة الثديان حافلان ومحتشدان ينسكبان مبتلّين بغشاوةٍ شفّافة من الندى صعود المراعي الناعمة بطيء والأجراس تصلصل لم تصل بعد إلى قرع النواقيس الجسام ولكن جوف الجرس الضخم يهتز ويتذبذب مرتفعاً متجهاً بلا حِوَل إلى جلجلةٍ تملأ السماء بجلال أصدائها حتى أقصى أطراف الكون الحبال المدلاة في البرج الشاهق مشدودة استماتت عليها اليدان المحيطان بخصر الناقوس الأخير النهائيِّ المزيمِ الصلابةُ القائمة لن تهن أبداً تلمّها وتضمّها ظلمة لحم الحب خامات المادة الأرضية حمم متأججة الفضّة والذهب الخشب والحديد والزجاج والنحاس وجواهر النباتات مصهورة في النفق التحتي تسيل وتغوص بكثافةٍ باشتعالٍ ثقيلٍ تسوقها إلى الداخل قوةٌ لا غِلاب لها ولا يلحقها فناء.

عدت متأخراً، بعد السينما، وبعد الكابوتشينو الأخير في الفريسكادور، فوجدت القيامة قائمة في فَسحة بيتنا.

كانت أمي، هادئةً ولامعة العينين بتصميم الفكرة الثابتة التي لن يهزها شيء، تقول لأنطونيو:

ـ إسمع يا مسيو خُد آدي بقية حسابكم. وتسيبوا لي البيت من بكره. أعمل معروف كفاية على قد كده. أنا بقى مش مستغنية عن ابني.

ردّ أنطونيو، بثورة عارمة، يجأر تقريباً، وهو يضع أصبعين على رأسه بحركة معبّرة غير محتاجة لتفسير:

ـ أنا.. أنا.. تِطلّعِي لي دول على آخر الزمن. أما مراتي زيّ البِرْلنتي، زيّ الفل، زيّ اللبن الحليب. طب دَانَا ابن بلد، وصايع، ومقطّع السمكة وديلها، دانا نعرف بنات إسكندرية واحدة واحدة، كلهم عَدّوا

عليّ، من الأنفوشي لأبوقير. . . تيجي تقولي لي ابنك؟ تيجي تقولي على مراتي؟ ومع مين؟ يا هُوه يا جدعان. . عيب يا مدام. . والله العظيم تلاتة عيب يا مدام. . .

ـ بلا مدام بلا غير مدام يا مسيو. هِيَّه كلمة. بكرة آخر النهار بالكتير خالص. أهو النصيب جه على قد كده يا مسيو. .

كانت پاولا تقف نفس وقفتها على باب غرفتهم الوسطانية، لا تقول شيئاً، عارية الصدر في بلوزتها المتهدلة، ثدياها الثقيلان ساكنان.

أما أنا فقد فَجمت، لم أتكلم. أدركتُ الموقف كله وتصورت ما قيل ولم أكن لأحتمل ما يمكن أن يقال. لمست تلك المعرفة الخفية التي كانت تتراسل من غير كلمة بين أمي وپاولا، ببصيرةٍ لا يمكن دحضها. ففتحتُ الباب عائداً إلى الخارج من سُكات، وتركتها وهي تنظر إلى المشهد كله صامتة وكأنها تتسلى أو تتكتم أمراً لم يحدث قط ولا سبيل للبوح به مع ذلك، وكأن زوجها طفل غاضب تترك له لعبته حتى يمل. ولكن إدراكها لما تفعله أمي إدراكٌ صاحٍ وواعٍ على أنها ترفضه ولا تعلن شيئاً على أية حال.

مشيت ليلتها على الكورنيش، وقد بدأ يصفو ويخلو، حتى قرب رأس التين، وفاتني آخر ترام، ورجعت بالتاكسي قرب الهزيع الأخير من الليل.

لم تُبْرئني پاولا، هي أيضاً.

وقد عدت إلى معتقل أبي قير، الأسلاك الشائكة يصعد وراءها الرمل المتقلب الفسيح ويهبط، حتى المباني البعيدة. الحرس، واقفين بكسل في صناديق خشبية على أبراج عالية، يعلقون على أكتافهم المدافعَ الرشاشة الرفيعة الفوّهات، بعيدين ولكن وجودهم قاطع ومانع وأكيد.

بين يديّ رأسُها بشعره الطريّ المنسدل، رأسها ليس له جسم، رأسها

منفصل بنعومة متروكٌ على صدري، وحده، وعيناها مغمضتان على ابتسامتها الخفية لا تكاد الشفتان تنفرجان عنها، بلا انتهاء.

رأيت القِرَدة تطير مثل الرهبان الطائرين، بعباءات مبسوطة في الهواء يسبحون في الجو، كما رأيتهم بعد ذلك بسنين في فيلم يلعب فيه عمر الشريف وصوفيا لورين. وكانت القِرَدة تطل من زجاج نوافذ مقطوعة عن جدرانها ومنسابة وحدها في الهواء، خشب إطارات النوافذ المربعة جديد نيء خام، غير مدهون، وكانت القردة نسائية، ناهدات، معتدلات القامة، في ثياب هفهافة وأنيقة، جيبات محبوكة وبلوزات حريرية تنسدل على الصدور المدوَّرة الراسخة بكبرياء. كل شيء فيها أنثوي ومغوٍ، إلا الوجوه المظْلمة التي لا ملامح لها. كيف عرفت انهن قردة؟ الخَرَس. لم تكن هذه القردة بقادرات على النطق ولا على الهمهمة ولا أدنى حس أو نأمة. كنَّ صامتات. وكنَّ طائرات من وراء زجاج النوافذ الطائرة في زرقة السماء.

كان أبي

قد قال

لي إن هناك رَصَداً كتبه المصريون القدماء، وهو مدفون الآن تحت عمود السواري، وعمله لا يخيب ولا ينال منه مر السنين. رصد يمنع الحِدأ والصقور والنسور وكل الطيور الجوارح من أن تنقضّ من سماء الإسكندرية على فرائسها تحت، بل تظل تدور وتحوم دون انقطاع ودون أن تستطيع الهبوط، ومهما قاوَمتْ فِعل الرصد فإن سحره أقوى. وكانت القردة النسائية المكتومة الصوت غير قادرة على النزول.

أحببت حباً مثل الجنون.

نافذتي مفتوحة عالية، منيرة في العصر. معلقة في حائط يخترقه البحر

وينفذ منه سحابُ السماء. وعلى حافتها النوارس البيضاء والسوداء، تقف على مياه مترقرقة قريبة القاع، ساجية ومتموجة وملحيّة الوهَجَ.

وأقول لكِ في ذات مساء سوف تذهبين، الواحدة المتعددة أبداً العريقة المتجددة أبداً، وسوف أنسى. سوف أنسى ضربةَ السوط يندفن في اللحم الحي، وصرخة الموت، وقطْر الحميمِ الآنِ يحفر حبيبات غائرة في جرانيت العمود الصلد الذي يهتز. متى يقع؟ وقع الماء العصيّ وشهقة الحلم القابض على العظم، هشّمه، وأبلاه، وغيّر الجَسَدا. سوف ينضب ماء الليل وتنجاب من على صدري حشودُ الظلام. حصاة القلب الصلبة لا تُنعّمها أمواج السنين التي ما تني تهوي، بلا وهن، على رمالٍ ظامئة أبداً وغادرة. هل يلتحمِ الصدْع؟ وتبرأ طعنات العشق القديم دماؤه غضة أبداً؟ طَلَل الروح ينقضّ من غير صوت؟

سوف أنسى لفحة الضوء من عينيك.

متى؟

متى يسقط الغروب ويذوب قرص الشمس في البحر؟

٥ ـ الرصاص وأشواق اللباب

على الكورنيش في آخر رشدي باشا، سلالم حجرية ـ أحسها الآن تحت قدميّ ـ منحوتة من البازلت، تنحدر إلى أول شاطىء ستانلي.

على شمالي، وأنا نازل السلالم: ساحة صغيرة أمام كازينو رشدي الخاوي دائماً حتى في عز الصيف. وإلى يميني جدار عال عريض، مصمت، يسحرني. ليس فيه نافذة أو فتحة من أي نوع. في لون الكريم، تنمو عليه وتلتصق به تعاريج نبات داكن الخضرة، نضر، كثير التفاريع.

أجد فجأة أنني أصعد، بسرعة، هذه السلالم الصخرية.

وأجدها فجأة ضخمة جداً، شاهقة وعرة المرتقى وخشنة الملمس. حوافها المدببة تحوطني من كل جانب، وقد أصبحت الصخور أعرض وأكثر تهديداً وخطراً كلما ارتفعت، لا أنظر الآن تحتي، ولا ورائي. ما زلت أتسلق هذه الوعور الفسيحة الضاربة في السحاب. البحر، تحت، سحيق.

وجدت أنني وصلت إلى ذروة ساحقة في قلب السماء.

لا أستطيع أن أهبط. شُلّت قدماي. وقفتُ لا أتحرك، والخوف قد استبد بي أن أتعثر فأتدحرج متقلباً ممزّق الأطراف على هذه السلالم الحجرية الشاسعة، الشائكة الأطراف. قاتلة.

ومع ذلك، فلماذا الخوف؟ ليس هناك خوف. أعرف أن هذا حلم.
ـ أنا استيقظت فعلاً. كل ما في الأمر أنني لم أفتح عينيّ بعد.
ـ انزلْ إذن.

ـ لا أستطيع. إنني، بالعكس، في حلم. الحلم مسيطر عليّ. أنا في قبضته.

ومع ذلك فالخوف لا يجعلني أصدِّق أنه حلم. لو أنني في حلم فإنني مقضيٌّ عليّ.

أنا في خارج الحلم. ولكن التوجس قد بدأ يتسرب إليّ، مع ذلك.

أقول: المسافة قريبة. ليست عالية جداً. سأنزل.

ـ ستعثر. ستقع. سوف تموت.

ـ المسافة بسيطة. لن يحدث شيء.

بل سوف تنكسر. سوف تصل جثةً بلا حياة.

لا أستطيع أن أقوم من الحلم، وأنا أعرف أنني خارج الحلم.

ـ قم الآن من النوم. انزلْ. أنتَ قد تركت الليل بالفعل.

ـ بل ستظل في هذا الحلم، إلى الأبد.

ـ سأمسك بالصخر. سوف أتشبث به. لن أقع.

ـ بل لن تصحوَ من النوم أبداً حتى تنزل أولاً.

تخونني قدماي مرة واحدة، أتعثر حقاً، أسقط في الهواء، أرتطم بالصخور، وأتقلَّب على أحجارها الناتئة التي ترتفع إليّ بسرعة، تخبطني وتتركني وأنا أتحدَّر، بلا توقف. لا أسمع صوتاً لهذه الصرخة التي تملأ الأرض والسماء.

كان الجدار المستقيم آمناً وراسخاً إلى يميني. تتسنّمه فروع اللبلاب، تحتضنه، كأنها نَحْتٌ ناعم وغضير، ممتلئة عند القاعدة تستدق وترهف وكأنما تهفهف تعريشاتها إذ تعانق الجدار.

كانت الڤيللا التي يحدها الجدار المغضوْضير مبنية على الربوة المتدرجة في طبقات من المعمار المترَف المعتنى به، تطل على الكورنيش من ناحية، وعلى البحر من ناحية أخرى. ولها حديقة مورقة الشجر غنية النباتات كنت

أستطيع أن أرى ما فيها إذا شببت قليلاً وأنا على أول درجة من السلالم البازلت. أريد أن أثِب من على سورها الحجري فقط لكي أقف قليلاً في الحوش، أو المنور، المبلط النظيف، أوراق الشجر الخريفية الساقطة ـ كل ورقة بمفردها لها كيانها ـ على البلاط الأبيض. الذَهَب الباهت المصحون من فتات أوراق الجزورينا الصفراء متنثرةً على الرخام الممسوح المضيء. وأشجار النبق والزيتون، ونخلة ملوكية واحدة تنبثق برشاقة كاملة إلى السماء مباشرة، من داخل الإطار الحديدي المدوّر المشغول الذي يحيط بالأرض الطينية الغنية.

وكنت أعرف أن هذه الڤيللا ـ التي كأنها جوهرة خجولٌ مع ذلك ـ هي ڤيللا رودلف متري، زميلنا في الفصل في العباسية الثانوية. لم يكن صديقي. فقد كانت للثروة، موروثةً أو مكسوبة، وما زالت لها، في أنفي رائحة غير مُريحة، وكانت إهتماماته تختلف أساساً عن كل ما يهمني: السيارة الپاكار التي يأتي فيها للمدرسة يسوقها شوفير كأنه خارج من فيلم سينمائي، بالكاب والبدلة المقفلة الياقة ذات الأزرار العريضة المتتابعة، حكايات النسوان التي يعلو بها صوته على الصبح قبل الحصة الأولى والأولاد متحلقون حوله يعبّونها بظمأ عبّاً، بِدله الأنيقة جداً، الكثيرة جداً، المحزقة على وسطه، والكرافتات الواضح أنها حريرية والتي ثمن الواحدة يمكن أن يعول أسرتنا شهراً وزيادة، وهكذا، ولكننا مع ذلك كنا نتبادل التحية، وبضع كلمات، كنت مشهوراً في الفصل، وكان يلثغ بالراء، وكانت لهجته، شأن أولاد الذوات، مترفعة في غير كِبر، كَيِّسة دون ابتذال، وكلها مجاملة كأنها فطرية وإن كانت مدروسة جداً، لم أكن أكره هذه اللهجة ولكنني كنت ـ وما زلت ـ لا أستطيع أن أقبلها. وحتى الآن عندما تتحدث رامتي بهذه اللهجة نفسها، أجد الثلج والرِعدة حول روحي.

كان رودلف من شلة الطلبة «الكبار»، بينما نحن المقاريض صغار السن

كنا أوائل الفصل وكلنا شيطنة وتحدٍّ وعكوف على الدرس وشغف بالقراءة والجدل العالي. ما زلت أرى وجهه المدوّر المبطّط قليلاً وشاربه المحفوف على طراز دوجلاس فيربانكس، وعينيه المنفتحتين الكسولين من النعمة والأكل الجيد والسهر مع النسوان. وكنا نعرف أن عائلته من أعيان أسيوط وأنهم من أثرياء البروتستنت القبط، وكانوا يأتون إلى الاسكندرية حصة الصيف فقط، أما باقي السنة فهو مع الطباخ والسواق والخدامة وحدهم في الفيللا الأنيقة. ومرة كنا خارجين من المدرسة، وكنا في آخر السنة، الحر والزحمة واللغط ورطوبة العصر والمرح والتَحايا والتواعد والجري، وكانت تنزل في الحَارة الضيقة أمام باب المدرسة امرأة محكمة الجسم. كان فستانها الأبيض محبوكاً على الردفين المليئين المتينين اللذين يتبادلان الصعود والهبوط، في مشيتها الموقّعة، بموسيقيّةٍ حسيّةٍ تغيّر، وحدها، من رثاثة البيوت وانقطاع حدة المشهد اليومي. كنت جنب رود لف بالصدفة، ولم يكن معنا أحد من الفصل. قال لي، كأنه لا يملك نفسه، وعيناه مشتعلتان فجأة:

ـ وَلَه وَلَه.. بُصّ.. أما جِتة نتاية..!

في الأيام التي ظننت فيها أنني شاعر، كنت في أصباح الشتاء النقية يوم الجمعة، أنزل وحدي إلى خليج ستانلي. كانت عيناي تحتفلان بعساليج النبات على الجدار المنبسط الناعم، تحمل إليّ رسالة رومانتيكية، مهتزة الأطراف، من جمال الكون، تعذب قلبي وتعزيه معاً. أنزل على سِيف الرمل وشط الصخر أشارف حافة الموج ويرشني رذاذه وأنا أغوص في تهاويم دوّامات الماء الصغيرة وتخاييله في أغوار ضحلة بين نُقَر الصخور ونتوءات الحجر حيث السماء مُصَغَّرة متموجة محبوسة ورقراقة في وهدات مسطحة قريبة القيعان، أو أرقب نَهَك البحر مرتمياً مستنفَداً على الرمل بزَبَده المرغّي ووشيشه العنيد مرة بعد مرة بلا انتهاء. وأفكر بغموض في أن هذه كلها

أبـدية وأنها كـانت هنا قبـل أن أراها بـدهور سحيقـة وستظل هنـا بعـد أن أذهب بدهور سحيقة. ألم أكن شاعراً؟

وفي الأيام التي ظننت فيها أنني ثوري، وفي مناسبات مثل أعياد الملك أو قبيل أيام المظاهرات أو عقب إضرابات الطلبة أو العمال، وكنت أعرف - أو أقدّر - أن البوليس سوف يهاجم البيت، ويفتش، ويحجزني، مع المجموعة المعتـادة، في المحافـظة أو إذا كنت حسن الحظ في سجن الأجانب، عنـدئذ كنت أقضي الليلة في الحجرة التي يستأجرها صديقي جورج طـول السنة في فندق سيرين المطلّ على البحر في ستانلي بيي، إذْ كان جورج بعيـداً عن كل اشتباه بالاشتغال بالسياسة.

وعندما أنزل سلالم البـازلت بالليـل، كانت تـواشُجات اللبـلاب، تحت نور عمود الكهرباء العالي، تنبض بحياة خاصة، شرّيرة ومتقبّضة الأصـابع، نهمـة وتهدد بشكـلٍ من أشكال الافتـراس، وكنت أفكر مـع ذلك أن هـذا النوع من ترف المعمار من حق الناس جميعاً، ويجيش بي غضب ومكتوم عـلى المـآوى الرثـة القبيحة التي نسكن فيهـا طول عمـرنا والتي أزور فيهـا عـمال الفبارك في المكس وباكـوس وحجر النـواتية، لأعلّمهم وأحرّضهـم وأُعدّهم للحركة، وكان قلبي يرتجّ بالتمرد والحُرقة نحو معنى من العدالة والحقيقة.

وفي الأيام التي كنت فيها نهبـاً مباحـاً لحب معتصِر خانق وفـريسةً ليـأس ظننتـه كونّيـاً وميتاً فيـزيقياً ومـطلقاً، وفي عصـارى نوفمـبر التي تحترق فيهـا السـماء بنار منعِشـة ورطبة الـريح ولا تحمـل إليّ مع ذلـك عزاء ولا معنى، كنت أنزل ستانلي، مثقل الجوارح، أهيم في تأملات مبهمة عن غَوَاية الموت وعبثيّتـه هو نفسـه - الموت - دعـك من كل استحـالات الحياة. فهـل كنت أبحث دون نجـاح عن تنينٍ هـائل فـاتح الشـدقين بـألسنـةِ اللهب، كـأنني أريده، كأنني سوف أجد فيـه نوعـاً غير واضـح المعالم من الخـلاص. أم كان يبحث عني؟. وكـانت أفنان اللبـلاب عـلى حـائـطي، حـارةً قـد تكـاثفت

وثقلت، تلافيفها تعتنق الحائط وتكاد تخفيه تحتها في شبَق لا يرتوي، جسداً من الظلمة المحتشدة لا مخرجٍ منها بل لا منفذ إليها.

أما في آخر الأيام التي سلّمت فيها أخيراً، دون كبير مبالاة، بأن كل شيءٍ يعدل كل شيء وأن حياتي قد أخذت مسارها كما شاءت لها الصدف، بحقّها وباطلها، بسخفها وحمقها، بآلامها القديمة الناهشة ومباهجها القديمة المتوهجة، بأمجادها الهشّة المنقضية وإحباطها الدائم المقيم، وعرفت ـ أو ظننت أنني عرفت ـ أن الحب وَهْمٌ وحلمُ الحواس، وأن الصداقة القوية الحيّة بين الرجال، ككل شيء آخر، ليست إلا تبادل الحسابات، ولتكن يا أخي حسابات عاطفية، ما زالت حسابات، وقلت لنفسي إنني نهلت من وِرْدها الثرّ كلها ـ هل ظننت أنني سأرتوي؟ ـ وإنني ظللت ظمآن، شفتاي مصوّحتان على طول النهال وعليهما طعمٌ مرٍّ لا يزول علقمه. وقلت العدالة خرافة عريقة، الجمال؟ وَرَقة شجرة ذاوية ملقاة تحت الأقدام، والفنّ سعيٌ عقيم بلا طائل، وكل شيء كل شيء باطل وخوف وقمع واضطراب رديء.

قلت: افترا، ونَطّر بالنعمة

قلت: لا ينعم أحد مناعَم الجسد ولا يثمل أحد بنشوات الروح مثل ما تفعل ففيم الحسرات؟

وقلت: تلك هبوطات الشيخوخة المشهورة، والصبا أيضاً، كلها حقّ، وليس فيها شيء واحد صَحّ.

عندئذ اكتشفت فجأة أن الجدار المصمت الوثير البشرة الذي كان حيّاً، عضوياً، قد تقشر طلاؤه الناعم وتعاورتْه النُقَر السوداء والخدوش، تحيّفته التجريحات التي لا يهتم بها أحد، وأن اللبلاب قد احترق وجف وسقط، وأن الفيللا الجميلة الراسخة قد رَثّت ونالت منها الركاكة والبلى. أين ذهب

رودلف متري؟ اكتشفت فجأة أن القهوة الصغيرة التي كانت تحت فندق أنيق ومكنون وكنت آخذ فيها مع أوديت كابوتشينو فخماً بسبعة صاغ، ونُصّ فرنك للجرسون، على سبيل الشبرقة وتدليل النفس، قد استحالت مطعماً انفتاحياً صارخ البهرجة والبذاءة، فاحش الكُلفة والادعاء، أُبّهته مصنوعة ومنفرة.

هذا ما كان من أمر أشواق اللبلاب.

عَرَشَتْ أشواق عشقي في مدينتي العظمى الاسكندرية الثغر المحروس الميناء الذهبية رؤيا ذي القرنين وصنيعة سوستراتوس المهندس العظيم ولؤلؤة قُلْبَطْرة الغانية الأبدية، المدينة الساطعة المرخّمة لا تحتاج بالليل إلى نور لفرط بياض رخامها، أكاديمية أرشميدس وأراتوسنيس الفيلسوف والشاعرين أبولونيوس وقاليما خوس، مثوى الميوُزات جميعاً وعاصمة القداسة والفجور معاً، أرض القديس مرقس والقديس أنانيوس وأصحاب الكنيسة البوقالية أوريجانوس والأسقف ديونيزيوس والأنبا أثناسيوس الرسولي الواقف وحده مع الحق ضد كل العالم، مدينة البطاركة أعمدة الأورثوذوكسية القويم، اكليل السبعين ألف شهيد الذين سوف يُبعثون إلى جانب المسيح وجوههم بيضاء كاللبن والصاروفيم يغنون في مكرمتهم ويُسبّحون، رأس فاروس يلقى نوره من إليوسيس الحَضَرة إلى قانوب أبو قير، من الجومنازيوم ومعبد ياسيدون إلى الأمبريون والستاديون من الهيود روموس إلى معبد السيرابيوم من تل راتوتيس كوم الشقافة إلى السلسلة رأس لوقياس من تل پانيون كوم الدكة وكامب شيزار إلى پتراي حجر النواتية، المرسى العظيم الشأن لا يضارعه إلا مرسي قاليقوط في بلاد الهند، تنبثق من قلبها المسلة الجسيمة التي ليس تحت قرار الأرض مثلها بنياناً ولا أوثق عقداً، أفرغ الرصاص في أوصالها فهي مؤصّرة لا ينفكّ التئامُها، وعمود السواري المنحوت من رخام جبل إبريم الأحمر تاجه منقوش محزّم بأحكم صنعة وأتقن وضع ليس له

قرين، مدينة المراتع والمحارس والمدارس والمسارح والجنان، ذات العماد ذات الأربعة آلاف حمام الأربعة آلاف ملهى كلها قمينة بالملوك الأربعة آلاف بقّال لا يبيعون إلا البقل الأخضر دعك من الآلاف الأُخَر، عروس البحر الدفّاق من القلزم إلى بحر الزقاق، جامعة المزارات من سِيدي المُرسي أبي العباس وسِيدي أبي الدردار إلى سِيدي الشاطبي وسِيدي جابر وسِيدي كِريِّم رضوان الله عليهم أجمعين، ذات الشوارع الفِساح وعقائد البنيان الصِحاح جليلة المقدار رائعة المَغْنى شامخة الكبرياء إسكندرية يا إسكندرية شمس طفولتي الشَمُوس وعَطَش صباي ومَعاشِق الشباب.

قلت، أما زلتَ تحلم بالديمومة بما هو أكثر من الخلود؟

قلت: ألا ترى أن هذا كله حلمٌ سيِّىء وخيم العاقبة؟

قلت: لا.

كان فيليب نخلة مساعد ورشة معي في شركة الباتينيول، وكان الوحيد في الشركة الذي يعرف أنني حصلت من زمان على بكالوريوس الهندسة من جامعة فاروق الأول، قبل أن أعتقَل، وأنني اضطررت إلى إنكاره حتى أجد شُغْلة بعشرة جنيهات. وكان جبرائيل هوّاري، مهندس الإنشاءات الشاميّ الأصل، زميلي في الكلية، وكنا أيامها نسخر قليلاً من لكنته ـ كانوا في البيت يتكلمون الفرنسية ـ ومن بلادته واجتهاده، ولكني الآن كنت أخفي نفسي عنه وأتجنبه، وأظن أنه كان قد اكتشف بعد فترة أنني أعمل في الشركة بالتوجيهية فقط، وأنه بشكلٍ ما وافق من جانبه على هذا التواطؤ ولم يكشفني لإدارة الشركة الفرنسية، وكنت، من غير كلام أو لقاء، شاكراً له ذلك، ولعله على أية حال لم يجد المسألة كلها مهمة ولعله كان أيضاً يتحاشى الالتقاء بي ما دام عمله، لحسن الحظ، في المكتب الرئيسي وليس في الموقع.

وكان فيليب نخله نحيلاً جداً وطويلاً جداً، وعظام وجهه مخسوفة. كان

أبوه، تادرس أفندي نخلة، من أبطال ثورة ١٩١٩ الذين أنكرتهم الثورة واحبطتهم الحياة. قضى في السجن عشر سنوات في قضية قنابل، ووظفته حكومة الوفد بعد الإفراج عنه بقرار خاص، ونقلته حكومة محمد محمود إلى الصعيد الجُوّاني، وخرج على المعاش المبكر واشتغل في جريدة «البصير» الاسكندرانية مراجعاً ومصحِّحاً للعربي. وكان قد تزوَّج يونانية اسكندرانية خلَّفت له فيليب، واسكندر الذي اشتغل بعد ذلك في مبنى «قيادة الثورة» في الجزيرة وتزوّج من فرنسية تكبره بخمس عشرة سنة، وكانت الأم قد ماتت قبل الحرب مباشرة وتركت تادرس أفندي وولديه وحدهم. وعندما زرتهم مرة في الشقة الأرضيّة، في بيتهم الواسع القديم جنب المتحف اليوناني الروماني، خرج إليّ تادرس أفندي وأنا في فسحة البيت الشاسعة المعتمة، في وسطها مائدة رخاميّة مستديرة هائلة عليها مفرش قطيفة داكن الخضرة ولَمِّيع الوبرة له شراشيب مستهدلة، وكنت غارقاً على أحد الكراسي العالية المنحوتة الخشب بنقش النوفوار من عشرينيات القرن، فقمت وتعثّرت قدمي في السجادة العجمية الثمينة الناصلة التي اكتشفت أن أطرافها قد نسلت وتشعثت خيوطها. وسلّم عليّ بيد باردة كأنها ميتة، وعيناه اللتان أكلت الحروف والمحن نورهما تحدّقان بلا اهتمام في خط جانبي لا يقع عليّ مباشرة، من وراء نظّارة كَعْب الكُبّاية. كان هو أيضاً مقدّد اللحم وجافّ العظام لا يخلع طربوشه القديم حتى وهو لابس الجلابية المقفلة في البيت.

كان فيليب قد جذبه إليّ شيء ما ـ طول عمري كان ثم شيء ما فيّ يجتذب الغرباء وغير المستقيمين ـ وأصبحنا، بلا مناسبة، صديقين من دون كل الموظفين في الشركة. وكان مسؤولاً عن مراجعة قيودات «المونة» للورشة: الجير والرمل والاسمنت والحديد المسلّح والحجر الأنتري وطوب القمائن وهكذا. وكان يوقّع على الأوراق بالتوريد ويرفعها لمهندس التشغيل

الـذي يتحقَّق منهـا ويشغَلهـا علـى الـطبيعـة. لم أعـرف إلا بعـد سنين أن فيليب كان يلعب في الأرقام لعباً ذكياً وغير ملموس، يوالس مع سوّاقي اللوريـات من ناحيـة، ومهندس التشغيـل من ناحيـة أخرى، على تهريب كميات صغيرة من «المونة» لاتكـاد تصنع فـرقا، لكنهـا بالتـالي وفي النهايـة تجْمَع. ولم تستطع الإدارة قط أن تمسك عليه دليلاً أو مستنداً، فـطلبت منه ومن مهندس التشغيل طلباً جازماً صريحاً أن يستقيلا بالحسْنى، ومـع أنني لم أكن في موقعٍ واحدٍ معه، إلا أن أمر صداقتي معه قد ذاع وشاع في الشركة، فأوحى لي المدير الفرنسي بـأنه من الأفضـل أن أستقيل أنـا أيضاً. أمـا إذا آثرت البقاء فلن يستطيعوا لي شيئاً ولكنني - كما ألمح لي - لن أذهب معهم بعيداً في النهاية. فرفضت الاستقالة عندئذ، ولم أتركهم إلا بعد سنة وتسعة شهـور. وأعطتني الشركـة خـطاب تـوصيـة حـارة واشتغلت بعـد ذلـك في المتحف اليوناني الروماني مهندس ترميم آثار.

كان فيليب ينفق في غير تقتير وفي غير سَـرَف معاً، ويقـول إنه يصرف من تـركـة أمـه الصغيرة، وكـان مـرِحـاً سريـع الكـلام - بـالعـربي والفـرنسي والانجليـزي معـاً - ومتـدفّق الحـركـة لا يهـدأ ولا يكنّ، ولامـع العينين المدفونتين عميقاً في محجريها الناتئين. وكان أيضاً يستدين بالفـائدة ويستلف عـلى مرتبـه، وكان يحب جـانين اليـوغسلافيـة البيضاء التي تعيش مـع أمها الطاعنة، وحدهما، في شقة بالعطارين. وبعد سنوات اشتغل مترجماً بسفارة الهنـد في أول الزمـالك، وزرتـه مرة أو مـرتين في مكتبـه الصغير في بـدروم السفارة، ثم عرفت أنه كان عنده السلّ ومات به، بعد ذلك بقليل.

كان يأتيني في بيت كليوباترا الحمامـات، مبكراً صبـاح الأحد، فيـوقظني من النوم، ويفتح باب الشرفة الصغيرة المطلة على حديقة البيت القديم عبر الشارع النائم، وتعمل له أمي طَبقَ بيض مقلي كبيراً بـالسمنة الصعيـدي، وطبق فول مدمس بـزيت الزيتـون، وأكتفي أنا بقـطعة جبن تـركي وبيضة

مسلوقـة، ثم نشرب الشـاي ونـنـزل نمشي عـلى الكـورنيش ونشـتري الخس الطازج ونغسله بماء القلة البارد (ندفع للبيّاع تعـريفة زيـادة، للماء) ونقشّره ونأكله ـ ونحن نهذر ونثرثـر ونضحك ـ غضـاً ـ طريـاً يانعـاً شفاف الخضرة يقـطر مـاءً ـ ونحن نمـلأ الصـدر من هـواء البحـر الملحيّ المطهّـر، والمـوج الخريفي الساجي يمس الـرمل، تحت، بوشيش هادىء خفيض، موسيقاه الرتيبة تدغدغ الحس والـروح، لا تكاد، وضوء صباح الاسكنـدرية الـرائق المشِعّ من السماء مبـاشرة، يمـلأ العينين، لا مثيـل لـه في أي مكـان عـلى الأرض.

آه.. يا صباحيّات إسكندرية.

ذهبنا ليلتها إلى «سيرين» بعد ستانلي بيي مباشرة، أنا وفيليب، وتـوماس شُكر الله، صديقه الشاميّ الأصل فرانكوفونيّ اللسان أيضاً، الـذي يشتغل في «شركة التوريدات الشرقية ليمتد» في المكس.

كـانت العتمـة المعتـادة في المـلاهي الليليـة تغبّش الصـالـة، مـوسيقى الأوركستر الصغير خافتة أيضاً ومظلمـة تقريبـاً. حبات المصـابيح المدورة، حمراء داكنة، كحبات العنب، ترمض وتنطفىء ببطء.

قال فيليب، دون تمهيد: هل تعرفون؟ جبرائيل هوّاري مات، اليوم بعد الظهر.

لم أقل كيف؟ وأين؟ رأيته من أيـام، هل كـان مريضـاً؟ هل حـدثت له حـادثة؟ وكـل هذه الأسئلة التي لا قيمـة لها إلا أنها دائـماً تـأتي، في دهشـة اللحظة، قِناعاً للخوف وسعياً لتجاوز مواجهة المستحيل.

قلت: أحزنتني.

وكان قلبي غائراً وأحس جزءاً منه، على أية حال، قد أقتُطِع، وراح.

نظر فيليب إلى البنت الجالسة غير بعيد منا على البار. وابتسم لها تحت أنفه المعقوف كمنقار طير ضاوٍ ووديع. جاءت نحونا، وأفسحتُ لها مكاناً فجلست بيني وبينه واتجهت إلي بالكلام، دون ابتسام، بجد، كأن المسألة على قدرٍ من الخطورة فهل أغوتها سذاجتي البادية، وبكارتي، مثلاً؟ قالت:

- حتجيب لي إيه يا باشمهندس؟

قلت بشكل آليّ تقريباً: أمرك. اللي تطلبيه.

- ويسكي؟

كان «الميتر» الداكن السمرة، الرفيع القامة، الحاد التقاطع، قد وصل بالفعل، ووقف على غير مبعدة. أشرت إليه، ولكن فيليبَ تدخل بسرعة، وطلب منه: أربعة ويسكي دوبل.

لم تُلقِ إليه مع ذلك بأقل اهتمام، إلا بنظرة اعترافٍ خاطفة، لما تكد. وقالت لي، ما زالت دون ابتسام ودون غواية ودون ابتذال: أزيّك يا باشمهندس؟ أخبارك إيه دلوقتي؟ قلت لنفسي: فتّح كلام. أي كلام.

لكن صوتها كان يبدو لي مألوفاً، وقديماً عندي، بشكلٍ ما، ولم أستطع أن أحدده.

عندما اقتربت مني في الضوء المغبش المبهم كان هناك جزء صغير جداً بارز إلى الأمام من شفتها العلوية الرقيقة، أما شفتها السفلى فقد كانت، بالعكس، مليئة ونازلة، تعطي وجهها إيحاء شهوياً صريحاً. ومع ذلك، قلت لنفسي، فأنا لا أعرفها، بالتأكيد؟ كانت مقاربتها لي، كأنوثتها، كثيفة على نحوٍ ما، ليست غريبة عليّ.

وفاجأني أيضاً أن في عينيها المتفختين قليلاً حِساً بالألم كأنني آذيتها بشكلٍ ما.

كنت أحسّ، وأنكر، أن ثمَّ شيئاً ما يربط بيننا، أن بيننا علاقةً ما، حميمة ومنسية.

قلت لنفسي إنني عمري ما دخلت هذا المكان من قبل ولا حتى هذا النوع من الأمكنة، ولا عرفت هذا النوع من النساء. رجعت بعينيها عني، كأنها فجأة أسقطتني من حسابها تماماً، واستغربت أن ذلك قد آلمني قليلاً، أنا الذي كنت أقول لنفسي إنني بالتأكيد لا أعرفها، ولا تهمني في شيء.

أما فيليب فقد كان يجلس متوفزاً، شرب كأسه مرة واحدة، وقال:

ـ ياللا بينا. كفاية هنا على كده. زِهِقت.

كأنما أثار غيرته الذكورية، على نحوٍ ما، اهتمامُها بي، واقترابُها مني. ومع أنه هو صاحب الدعوة، وواضح أنه هو الذي يصرف، فإنها لم تعره انتباهاً إلّا بعد أن عزفتْ عنّي بعد نوعٍ من خيبة الأمل، بعد أن سقط نوع من الانتظار، والشوق.

قال توماس شكر الله، بالفرنسية: فلنذهب إذن. هناك فرقة فرنسية. وغمز بعينه، من هؤلاء البنات اللاتي هن لسن بنات، فرقة مدام أرتير، تلعب في الاسكارابيه.

فنزلتْ هي فجأة من على كرسي البار، من جنبي، وقفتْ لحظة، رافعة الرأس، دون كلمة، وتركت كأسها دون أن تمسه تقريباً. كان في خطوتها وهي تبتعد عنا انكسار، وكبرياء.

ولكنني لم أتذكرها.

وعندما آويت قرب الفجر إلى سريري، غائم الرأس من الشرب والسهر والمغامرة غير المألوفة وزحمة العريدة كلها، وأنا على وشك الوقوع في النوم، قمت فجأة. فقد عرفتها. عدت مرة واحدة إلى البار الصغير في باب

الكـراسته، والمرأة التي أنقـذتني، منـذ سنـوات، من الـسقـوط في أيـدي المباحث، ومن السجن ربما، وقلبتْ خطة المخبر الذي كان في سبيله إلى أن يوقع بي. لم أذكر اسمها مع ذلك، مهما حاولت. كانت عتمة غرفتي قابضة ومـطبقة عـليَّ بثقل. اضـأت النور، ووجـدت نفسي فجـأة شـديـد اليقـظة وشـديـد الألم. وعـاهـدت نفسي عـلى أن أذهب إليهـا، في اليــوم التـالي، وأن أقبّل يدها. لم أستطع أن أنـام إلا بعد مـا خيّل إليّ أنـه دهرٌ من النـدم والألم. كنت أسقط، جـريحاً، وأتعـثر وأنحدر عـلى الصخور الـوعرة الحـادة اليـنان، أعرف أنني لست في حلم.

لم أذهب إليها في اليوم التالي، ولم أرها أبداً بعد.

أذكر الآن بعد طول نسيانٍ اسمَها.

زيـزي ـ هذا كـل ما أعـرف لكِ من اسم ـ أين أنـت الآن؟ هل ما زلت تعيشين؟ أين؟ وكيف؟

لفحنا هواء الكورنيش البارد، فـرفعت ياقـة معطفي الـواسع الكحـلي، الواقي من المطر، معطف البحرية البريـطانية الـذي أخذتـه من مخازن كفـر عشري أيام الحرب، بإذنٍ مكتوب ومختوم من المستر لي، مفتش المخـازن، وظللت ألبسه من سنين وسنين، وعاش معي في الحلوة والمُـرّة، وجاءت بـه لي أمي في المعتقل وسافرت به إلى الطور وعدت به إلى أبو قير، حتى تخليت عنه، كأنما غصْباً عني، وعلى مضض، بعد العِشرة الطويلة لأنني فقط مللته حتى لم أعد أطيقه، وأعـطيته للكنيسـة، حَسَنة، ومـا زال سليما متينـاً.. وما زلت أعزّه وأحتفظ له بودٍ وعرفان.

قلت، بالأنجليزية: الليلة سوف نصبغ البلد بالأحمر. !

وعبرنا الكورنيش ونحن نتدافع بأكتافنا الريحَ التي تعصف بنا مهاجِمةً من البحر المظلم الغاضب، يخبط الرمل بدمدمةٍ قوية سريعة التردد.

كان السكارابيه الآن، بالليل، كأنه حصن صغير، في طرفه برج مستدير وثيق البنيان، على بابه الخشبي الغائر في الحجر الضخم يهتز الفانوس، بنوره الأحمر الصغير، تستدير بزجاجه شبكة من السلك القوي.

تقدم إلينا الميتر دوتيل بالفراك الأسود، نَفَحه فيليب بشيء ما في يده، نصف خِلسة نصف عَلنًا، وقادنا الرجل، منتصب العود، في خطوة الواثق اعتزازاً بنفسه وإسفاراً عن احترامه للضيوف، في وقتٍ معاً، إلى مائدة مستديرة على الحلبة مباشرة. كان العرض قد بدأ، إيقاع الطبل وآلات النفخ صاخبٌ ومحكوم معاً، رقصة الكانكان الفرنسية الشهيرة، البنات ينحنين فجأة للأمام، وظهورهن لنا، فتنكشف الأرداف المغلّفة بالأحمر، المتفخة بالدانتيللا الموشّاة المتموجة، ثم يستدرن ويدفعن بسيقانهن في الشّرابات الشبيكة السوداء، على الكعوب المدببّة العالية، فتكاد ترتطم بوجوهنا تقريباً. دفعةً جسوراً تكاد تقع في البذاءة لكنها تظل على حافة الأناقة المدروسة، وفي الضوء المتقلّب الموجِ مع العتمة، تبدو الخدود الناحلة أكثر تهضّماً وأعمق ظِلالاً، وتبدو الصدور الناهدة أملأ وأشمخَ بروزاً، وفي اللحظات الخاطفة التي تسقط فيها الموسيقى فجأة إلى الهمود ينتهي إليّ وشيشُ البحر المكتوم وعصف الهواء خارج الحيطان المتينة.

كنت في بعد ظهريات الأحد الشتائية الصحو، أحياناً، أذهب مع أوديت نأخذ مارتيني أو كامباري في شرفة السكارابيه المشمسة، وحدنا تقريباً مع زرقة البحر الفسيح وزبده الأبيض الناعم الصوت.

كنا الآن مع كأسنا الرابعة أو الخامسة. حتى جاءت، البنت، المخسوفة العظام، الرفيعة الجسم، أنيقةٌ ومصنوعة، وجلستْ، هذه المرة، مباشرة إلى جنب فيليب، وقالت له دون مقدمات: اسمي سيلفانا، ما اسمك يا عزيزي؟

قلت لتوماس شكر الله بالانجليزية: طبعاً المتردوتيل متواطىء. هذه مؤامرة.

فضحك في كمّه كأنما لا يريد أن يمس شعور فيليب.

فكررتها لفيليب بوضوح، بالعربي: يا بختك يا عمّ. هنيآلك يا بخت مِن كان «المتر» خاله. إللي له ضهر ما يضربش على بطنه.

تهانف فيليب بالضحك، لم يكن يعرف كيف يقهقه، لم أسمعه ينفجر بالضحك قط. ويبدا على البنت أنها لم تفهم ـ فرمقتني بحدة. وكانت في نظرتها صلابة.

قالت لي، بالفرنسية: ماذا قلت حبيبي؟

كان صوتها أبحّ، فيه تنغيمٌ أجشّ، متخلّع قليلا.

فأجبتها بسرعة: أنك رشيقة جداً يا جميلتي.

لم تضحك، ولم يبد عليها أنها تصدقني. وانحنت على كأس فيليب ورشفت منها حسوة، بحركة مغازلة صراح، وتجسد الميتردوتيل فجأة أمامنا، وطلب فيليب دوراً آخر.

كان شعرها البني الداكن مهوّشاً مفروشاً كالمروحة ونازلاً على كتفيها الناتئتين. ساقاها ملفوفتان بإحكام في الشراب الأسود الشفّاف، تبدوان مسحوبتين طويلتين تحت الفستان الحريري المزدهر المفتوح على الجنب، كانت ذراعاها المكشوفتان عَصَوين شاحبتي البياض، لا يكاد يفصل بين العظم والجلد إلا طبقة واقية مُمَسَّدة، كانتا مثيرتين في نحافتهما. كانت عيناها مكحولتين بثقل، والحزام الذهبي السميك يلتف بخصرها الضيق كأنه، بالكاد، أسورة محكمة أو قيد الأصفاد. كانت مشدودة، مُحزَّقة على الآخِر، ومع ذلك فأن انفساح فستانها الخفيف، من تحت الردفين، وانفراج شقّه الطولي من جنب، يعطيان حِساً بأنها مفتوحة، ومُتاحة جداً.

بعد الكأس الثامنة، أو التاسعة، أذكر بغموض ملمس العظام الحارة تحت الحرير المنعش المنسدل، تمسك بذراعي من ناحية وذراع فيليب من الناحية الأخرى، لا أذكر إلا ضحكة خشنة قليلاً يخطفها ويقطعها الهواء من ناحية توماس شكر الله، أرى الكورنيش يصعد تحت قدمي ويهبط، في دُوار الخمار المعتاد، ولكن لفح الفجر البارد القوي يساعدني، أنشقه بقوة، السلالم النازلة والممر الطويل في فندق السيرانادا والغرفة الزجاجية الدافئة الداخلة على البحر في هذا الشتاء، السرير البُنّي العريض الوثير، لوحة المرأة العارية ممدة وسمكيّة الجلد.

تتوتر خيوط الشبق وتتمدد حتى آخر قوةٍ في سلبها حتى آخر طاقتها على التمدد الحزام الذي يضيق بحصر الخصر المتهافت السلسلة الذَهب تنوس على الثديين المكوّرين مدبّبيْ الطرف تحت السوتيان المحبوك المتوهج المملوء بحشوة الطيّع والقرط المتدلي من شحمة الأذن الدقيقة يهتز قطرةً مِسْكٍ من كبدِ ظبْيٍ مذبوح الأسورة العريضة تحيط بأعلى الذراع الرفيعة أم بالخصر المخسوف أم بهما معاً شريط السوتيان اللامع ممسوك بالمحابس الدقيقة المنمنمة يلف حول منتصف أعلى الظهر لَفّةً وثيقة تضغط اللحم القليل تحت الإبطين فيبدو بضّاً وطرياً والكحل يؤكد على طريقته نهم القسوة في العينين وعمقها الداكن وائتلاقها المفترِس نقطة الحسن السوداء على الوجنة المشدودة المضرَّجة بدمٍ ناعم تتجاوب في سوادها الحالك مع القوسين المزجَّجين بضغط هابطيْنِ على العينين على الطريقة القديمة كليوباترا الإسكندرانيّة تلهج بكلمات صناعة الحب وتئن من المتعة بفعل الحب ابتسامة الفم الواسع والشفتين المصبوغتين بالقرمز مصقولِ الالتماع تطبقان على عمود الحب الصلب السخن تضطرم الأحشاء ودفقات الدم هي وحدها المسموعة تضرب العظم وتعود من جديد تملأ الكون بموسيقى الحنوّ الجسدي الكثيف وردة من نار الطَلَب وحُرَق المَضَض تنبثق من برعمٍ عنيدٍ

يتفتّق بشراسـة ولهفة العنـاق تفقد الأشيـاء حضورهـا دوران البطن المضيم الكامل الاستدارة في وسطه تماماً فنجان القهوة العربية المُسكِر أترشف قطرَة النـزر إصرّ الغُلّة الصاديـة صارم ووثيق الأظفـار الـطويلة القـانيـة في نهايـة اليدين الشفافتين تقريباً تخدش برقة وحنكة تَفَتُّحَ اللوتس المشغوف قبلة غير معطّاة بِلَّة من الريق مـا زالت ممنوعـة منكورة عـلى أعلى الفخـذين الرقيقتـين تـدور ربْطة السـاق الموشـاة بنقّط ذهبية تمسـك بانسيـاب الشراب النايلون الأسود الشفاف كُلَف الصبوة ناعماً وزلَق الملمس على العنق إيشارب مربوط على جنب كبير العقـدة متطايـر على الـظهر العـاري المتحدّر بليـونةٍ خـداعة الردفان ضيقان مضغوطين في استحكام التوشية الحبيس ململومين في متنـاول الاحتضان تتميّع الجدران وكأنها تتفتّح على مـوجٍ الوجـد المتلاطم بصـوت ارتطام المياه الطريّة الشوق نافـورة تشق تربـةَ الجسم السلِس الأسيل جسـدٌ واحد مندمج في قميص الدُّجَى المجـدول سيولـةً ثقيلة تهتز بمـوج دفيء بعيد حِرّة الأُوام نحو تحققٍ موشِك وعصيّ عـلى الدوام مـا زالت لها لُهبـة تشعف الأحشاء من أنتِ وراء هذا القناع المفتوح؟ من أنتِ التي تعيشين داخلي أريدكِ بلا انقطاع ومهما أحطتكِ بذراعي، بكُلِّي، بعيدة المنال؟ تنقبض أطـراف النسيج مشدودةً على أقصى أطراف الكون وتُفلت فجأة فتنشقّ وتنضم بصوت انفجار مكتوم رقصة بالية الارتماء والغضب الجسدي والوَلَه الذي يتحدّى الحبوط.

في زحمة أخرى من الجـلاليب البلدي والملاءات اللف أين أنـا؟ مضغوط مكبـوس بين الأرجـل والسيقان والجُنـوب أمسك بـاستماتـة بيـد أمي أرفـع وجهي للهواء في قلب الاختناق وأرى، بالكاد، الشباك الذي تتقاطع عليـه القضبان الحديدية، في حوش رملي ضيق، الأصوات الملهوفـة نسائيـة ثاقبـة ملهوجة ورجالية خشنة متداغمة الكلمات تتنادى بالأسماء والسلامات إزيـك يا اسطى حسـين إزيك يـا خويـا؟ ربنا يفـك ضِيقتك يـا ضناي أنـه في يوم الخميس ٢١ يـوليه سنـة ١٩٣٨ من السـاعـة ٧,٣٠ افـرنكي صبـاحـاً ومـا

بعدها بعزبة الخلايفة بزمام عِزَب الأوقاف بسوق المواشي العمومي بناحية غيط العنب قسم كرموز بالاسكندرية سيباع علناً بقرة ملك محمود أبو غيتة بالناحية ، نفاذاً للحكم ١٢١٦ كرموز وفاء لمبلغ ٢٨٤ قرشاً صاغاً بخلاف ما يستجد كطلب مصطفى أفندي عبد العزيز الشريدي التاجر بكرموز فعلى راغب الشراء الحضور ياعم محمود الافوكاتو رفع الاستئناف يا بني ما حنا دفعنا لك الكفالة خلاص كلها ساعتين زمن وتيجي تتغدى معانا دانا دابخالك دَكَر بط يستاهل بُقّك يا أبو ابراهيم شدينا امبارح تلغراف للحقانية للوزير بذات نفسه وحياة غلاوتك نشرت «المصور» بتوقيع حسن مصطفى بالإسكندرية ١٠ أبريل ١٩٨٧ أنه حتى الموت أصبح مكلفاً أكثر كلفة من الحياة في مقابر كرموز وسيدي بشر وعمود السواري يتقاضى التُّرَبي ألفي جنيه في عملية الدفن الواحدة. وبعضهم يُخرج جثة الميّت في ليلتها ليبيعها لطلبة كلية طب الإسكندرية بالقطعة والرؤوس كلها تشرئبّ نحو هذا الحائط كأنه القِبلة أو المبكَى أو حجاب الهيكل وفي وسط الأحجار الضخمة النافذة العالية المتلئة بالرؤوس لا أكاد ألمح وجه أبي مضغوطاً وراء القضبان بين كلّ الوجوه ما زال فيه كل الكبرياء وأمي تهتف في وسط الصراخ والهتاف شد حيلك يا أبو أمين احنا كويسين ولا تعُول همّ خالص. خلّ بالك على نفسك داحنا مالناش غيرك تطلع لنا بالسلامة يا رب وما زلت أرى صورة مار يوسف النجار التي كانت معلقة في وسط حائط الفسحة في بيتنا ـ بيتاً بعد بيت بعد بيت بلا انقطاع ـ طوال سنين الصبا والشباب والرجوليّة فأين ذهبت الآن؟ لا أجدها. زجاجها، وراء الإطار العريض الفاتح الخشب يومض على نسيجها الورقي الخشن كأنها لوحة قديمة ثمينة القماش كانت كثيفة المرْأى، القديس زوج العذراء مريم الذي لم يمس أنملةً منها وجهه مليء بتجاعيد دقيقة محفورة لها جمال خاص، خطوط قسمات وجهه واضحة محددة ومضيئة وهو ينحني على الطفل يسوع: الآن تطلق عبدك بسلام يا ربّ لأن عينيّ أبصرتا خلاصك. قد ظللت عمرك

حبيساً تناضل ببسالة الأبطال وصلابة أهل الصعيد، خلف قضبانك المتغيرة القائمة أبداً. ولم تجد قط خلاصاً. وقالت «الأخبار» في ١٧ ١٩٨٧ إنه اتهم صاحب مصنع بالمحلة بالاستيلاء على ١٠ ملايين جنيه من أحد البنوك بالإسكندرية بشيكات تبين أنه لا رصيد لها وقالت الأهرام في ١٣ مايو ١٩٤٨ إنه قد أشرنا أمس إلى اعتقال أحمد المصري الحلّاق في إحدى السفن المصرية بسبب ما وجد في غرفته بهذه السفينة من الكتب الشيوعية والاشتراكية وأن الأستاذ مصطفى سليم وكيل نيابة الشؤون المستعجلة قد أمر اليوم بالإفراج عن الشخص المذكور بضمان شخصي ريثما يتم التحقيق.

هل كنت قد خرجت من البيت مع وطواط ابن خالتي، ما زلت أرى حتى الآن وجهه الصبوح الأسمر كالقهوة باللبن، لم نقل لأحد ولم نستأذن من أحد، بل دخلنا سينما كونكورديا في شارع محمد سعيد، وأنا الطهراني الذي ظل ينتظر نعمة المعمودية سبع سنوات يخشى في كل يوم منها أن يموت دون تنصير فيدخل المطهر ويقع عليه الحرمان إلى الأبد من ملكوت السماوات، أنا الذي يريد أن يتقدس فلا تشوب صفحة حياته على الأرض شائبة، حتى يرى وجه الله، ظللت أدخر الملاليم من مصروفي حتى جمعت ثمن تذكرة السينما ١٣ مليماً بالتمام والكمال، ورحت من ثلاثة لستة مع ابن خالتي وطواط، وشاهدنا طرزان وخفق قلبي مع جين وبكيت حناناً لها بينما الفيل الضخم يقتحم الغابة مهاجماً عصابة الأشرار وضحكنا مع شيتا المعابثة اللعوب، وبعد العودة وجدت البيت مقلوباً علينا، ولما سألتني أمي قلت لها على كل شيء ولم يشفع لي صدقي واعترافي ووجدت نفسي مربوطاً بحبل في أعمدة السرير النحاس في غرفة النوم الكبيرة، والحبل يحز في قدمي ورسغيّ ويُحكم الخناق حول وسطي، وكان ألم الحس بالظلم والامتهان أكثر إيجاعاً وأنفذ في القلب من ألم الضرب بالشبشب اللاذع المحرق في كل مكان من جسمي.

وكانت لمبة الجاز نمرة خمسة يتخايل نورها الشحيح صفراء اللهب في غرفة النوم التي لم يأت إليّ فيها أحد، كنت منفياً وحدي في الألم والإنكار، وكنت أغفو وتوقظني حُرَق الوجع وافتقاد الحنو والحس بالظلم وحزّ الحبل والنَهك في ساقي ووسطي من الصَلْبة على أعمدة السرير. كنت قد عدت بنار الحلم التي لم تنطفيء وكان نهش العُقاب يأكل من كبدي.

جاء أبي متأخراً بالليل، كعادته في تلك الأيام التي كان يشتغل فيها بحسابات أكثر من محل في كوم الناضورة واللّبان. أطلقَني بسلام وقال لي أن أقعد آكل لقمة وجلس بجانبي على الشلتة، وكنت أمد يدي إلى الطبلية فقط إرضاءً له وليس عن جوع. وكان يعرف.

ذلك الطفل الذي لم يبكِ ولم يصرخ ولم يسترحم لحظةً واحدةً الذي كزّ على أسنانه وعينيه وتأسىّ في غير وضوح بعذاب الشهداء عندئذ فقط أُجهش بالبكاء، ولكنه حبس نفسه ولم يترك الدموع تنزل إلا عندما أوى إلى سريره في الظلام. أخفي نشيجه المكتوم عن أخواته الصغيرات النائمات جنبه على السرير، وكم بكى، طول عمره، تحت غطائه، بنفسي حِس افتقادِ العدالة له ولوطنه وناسه للفقراء والساجين والمضطهدين والصامتين، وللآخرين. وكم دفع فادحاً ثمن الأحلام، ولم يقتض منها شيئاً.

أو هكذا قال....

كانت المظاهرة قد خرجت من الفابريكة في آخر شارع كرموز، أما الطلبة فقد كانوا قادمين من ناحية محرم بك. وكان طابور عساكر بلوك النظام، قد اصطفوا في مفترق الشارعين الكبيرين، غير بعيد من الكنيسة الأنجيلية المبنية بالطوب الأحمر، معلّقين في أذرعهم الدروع الخشبية الخضراء، وفي أيديهم البنادق القديمة الشكل الطويلة الفوهات.

وكنت قد سهرت طول الليل اتنقّل من باب سِدرة إلى شارع الهراسة إلى

سيدي كريّم أمرّ على زملائنا القلائل من عمال الفابريكة، في بيوتهم التي أقاموا في أحواشها أو حتى في الشارع أمامها أفراناً صغيرة وكوانين وتجري فيها الفراخ والبط الصغير. نقلوا إليها عيشة الفلاحين.

أما الطلبة فقد قلنا، في اللجنة، إنهم مسئولية قاسم اسحق. نمت ساعتين أو ثلاثاً، ونزلت الشارع مُبادراً، كان عليّ أن أرقب تحركات مظاهرة الفابريكة، فإذا جد جديد نفذت من عند دُجديرة الفخرانية لكي أنهي الأخبار إلى قاسم اسحق عند آخر ربوة للعباسية على القمة، كان هذا الترتيب صعباً ومجهداً وغير كفء ولكنه كان كل ما في وسعنا من حيلة، فليس عندنا حتى دراجة.

كانت الشوارع قد أقفرت وخلت فجأة بعد أن كانت الجماعات القليلة العدد قد بدأت منذ الصباح الباكر تطوف بالحي وتنشد «بلادي بلادي» و«أماماً أماماً جنود الفدا. . وسيروا إلى النصر تحت العلم. .» ثم تقول «سلاماً بلادي وعاش الوطن»، بدلاً من «عاش الملك» كان ذلك أيامها مما يشارف الثورة، وجرأة غير محسوبة العواقب. وكان المتفق عليه بين ممثلي اللجان والجماعات المتحالفة أن نبعد هذه الجماعات، ثم المظاهرات نفسها، عن الهتافات المباشرة والصريحة حتى لا تستفز القوات التي كانت متكومة على المفارق في لوريات بلوك النظام الحكومية، ولوريات نقل البضاعة المؤجرة من الأهالي، على السواء.

ومع ذلك كانت بعض الجماعات تهتف: الله أكبر القرآن دستورنا والرسول زعيمنا، أغلقت الدكاكين أبوابها وأنزلت المصاريع الحديدية، وكان الترام يتأرجح مترنحاً في شارع راغب باشا الموحش الآن ليس فيه ركاب كل يوم بل احتله المتظاهرون يهتفون وفي أيديهم الأعلام الخضراء بنجومها الثلاث، اضطربت الهتافات واختلطت الجلاء الجلاء الحكم حكم الشعب يسقط الاستعمار يسقط الاستغلال يحيا اتحاد الطلبة مع العمال

الجلاء التام أو الموت الزؤام يسقط صدقي يسقط بيفن العزة لمصر الله أكبر إسماعيل كان صديقاً نبياً يحيا الشعب العزة لمصر. كانت المظاهرة قد خرجت عن كل تخطيط وتدبير.

كانت الجموع قد بدأت تقبل من كرموز وتقترب من محرم بك، وهتافات الطلبة تأتي من بعيد، غير واضحة ولكنها هادرة الصدى، وأخذت الهتافات هنا تنتظم وتحتشد ويقوى جسمها. تهزّ القلب، لها دويها المتموج الغريب في الشوارع الخاوية، لها سلطة وسطوة.

سمعت أوامر قصيرة غير واضحة، وفجأة ترددت في الهواء طلقات الرصاص. تناثرت أولاً، كأنها غير مجدية، كأنها دقات جافة، لا خطر لها، تضيع في الهواء. ورأيت في وسط الناس اثنين، ثلاثة، يهتزون ويسقطون بهدوء. وكأنني لم أعد أسمع أي صوت، وكأن السكوت التام قد حل فجأة. رأيت صفوف الناس تضطرب وتلتئم، تهتز وتتجمع، تنتشر وتحتشد، ثم تتمدد ويتهاوى انتظامها، وكان العساكر راكعين على رُكَبهم، والضابط وراءهم، على الحصان، يرفع مسدسه، وكانت البنادق الطويلة الفوهات مسددة إلى قلب الجموع، ورأيت الناس يحملون على أكتافهم وبين أذرعهم من يَسقط على الأسفلت، ويجُرون بهم في اتجاه الحواري الضيقة المتفرعة من شارع ١٢ وشارع راغب، انفرط عقد الصفوف وخلت المفارق تماماً، لكني اندفعت إلى وسط الشارع فجأة دون أي أعي تماماً ما أفعل. رأيت جمالات أخت منى التي كانت تسكن بيتنا في حارة الجُلّنار تسقط على الأرض، كان وجهها أبيض باهتاً كالعجين، ذراعها قد انطوت تحت جسمها الذي ارتطم بالأسفلت دون صوت، وانحسرت جيبتها عن فخذيها، ورأيت في قدميها فردة حذاء واحدة، وقدمها الأخرى حافية ومكشوفة.

ما زالت أحس بين ذراعيّ جسم جمالات السخن الهامد الآن، خيطٌ من

الدم يسيل ببطء من ركن فمها، عيناها الجميلتان مفتوحتان ناطقتان بالدهشة، فيهما نور الحياة الذي تصورت أنه لن يخبو أبداً. لكنّ الموت لم يكن جميلاً. كنت أحسّ جسمها منفّراً في ثقله وهموده. وانحسار الحياة عنه، قلت لنفسي لعلها جريحة فقط وغائبة عن الوعي فقط، وستعود. ولم أقتنع. كان يحملها معي، من الناحية الأخرى، عامل من الفابريكة كما هو واضح من شكله وتصرفه. ماذا قلت له؟ هل أذكر أنا؟ جرينا متجهين إلى بيتها، لم أكن أعرف هل ما زالوا يسكنون هناك لكني تحركت دون تفكير. عندما فتحت لنا أمها الباب أحسست نفسي أسقط على الأرض. كان كل شيء أسود حالك السواد فيه ومضات حمراء خاطفة من وراء جفنيّ المغلقين. وفكرت بمرارة أنني الآن في المدخل المعتم الذي طالما عرفته في صباي، عرفت فيه القبلة المخطوفة على الخد من مُنى، وذراعي حول وسطها، وكنت أنهج وأشهق ولا أكاد أتنفس أحس صدري يتفجر طلباً للهواء، وكنت غاضباً لأنني أنا ما زلت لا أملك إلا أن أجاهد فقط لكي أتنفس، أنا ما زلت أعيش، أنا ما زلت أواصل الحياة.

أشياء غريبة بلا معنى الناس والسيارات والترام والأوتوبيسات والعربات تجري في الشوارع تَتَشعب عن محطة الرمل القديمة إلى مسارات لها تحفّ البحر وتشارفه أراها من شرفة «كازابلانكا» الزجاجية العريضة وحمرة الشفق تسري في السحاب الذي ينسال بنار بطيئة على الأفق يسقط على قلعة قايتباي يعضّ قلبي بحسٍّ من الأشواق القديمة أما الموت والحياة والعدل والمحبة وأُقنِع نفسي فلا شك لها قيمة الشمس التي تغمر جدران البيوت الموصدة على الكورنيش وزرقة البحر الشاسعة لا أعرف لها حقيقة لا أرى فيها نوراً فهل تأتي من نجم غريبٍ أشواق اللبلاب التي صَوَّحت وسقطت والحلم المحبوط والحب المنكور كأنه لم يعد هناك إلا توهج هذه الدموع المخبوءة في الليل فلماذا بعد أن انقضت أعلنها الآن محطة الرمل يخامرها

غسق المغيب صوتكِ قد ضاع مني بينما هواي لا يبيد.

شرارة في طرف نسيج السماء تشعل الحريق السماء مهيضة لكنها تمور دُوّامة تجرف معها أنقاض الذِكَر الطافية في الغمر المُرغي الصموت إعصار أخرس محبوس ألم تقف هذه الدموع ألم تنقض؟ الراهبة البيضاء في مقعدها أمامي في ترام باكوس تنظر إليّ في شيء من دَهَش هل فيه أيضاً شيء من حنان؟ الدمع يضرب في دمي لا أملكه وقد ساد صمت غريب في الترام لا أحد ينظر إلى هذا الرجل الذي تبتدره الدموع من غير صوت وكأنما لا يطيق فينزل إلى عرض الطريق إلى الشوارع الموحشة بين الشلّالات من ناحية وجدران المقابر الطويلة ونفحة البحر تأتيه من بعيد فيها نَفَس من غياب الحلم وضربة الريح : أنت لا تحبيين.

وماذا في ذلك كله؟

ورقةُ شَجَر ألقاها عصف الهواء على صخر الصمت العنيد، صفراءَ خضراءَ لم تَذْوِ تماماً ما زالت فيها شرايين دمٍ دقيقة المجرى ليس لها نضوب.

مَن يعرف ماذا تحتويه أماكن الروح الخفيّة؟

٦ ـ النخل السلطاني جماله عقيم

قلت لصديقي چورج: رُوحْ أنت. حاستنّاك عالباب.

كان الباب فاتح اللون، خشبه مشغول وفي أعلاه شراعة وراء قضبانها الرفيعة زجاج محبب مدهون بالأزرق الداكن المكبوت وعليه شرائط سميكة متقاطعة من الورق اللاصق الأصفر.

أمامه ممر صغير رملي ـ وقفتُ فيه ـ يفصل بين الباب الخشبي وبين بوابة حديدية قصيرة تنفتح في وسط سورٍ حجري منخفض.

على يمين الباب الخشبي تطلع من الممر نخلةٌ واحدة طويلة شعثاء الجذع قشورها الناتئة كبيرة غير مشذبة وشائكة وتتهدل تحت عِذْقها ألياف طويلة بنية داكنة، والنخلة تصل شواشيها إلى السطح فوق البيت، وتُظلله.

كانت الحارة ضيقة ولكن نظيفة وهادئة، وصلنا إليها من جانب شارع امبرواز رالّي في سبورتنج الصُغَيّرة. ومن الداخل كانت السلالم رخامية وممسوحة بعناية ومنيرة في بَعْدِ ظُهريّةِ الأحد، وعلى جانبي الردهة الأرضية العريضة البلاط نباتات ظل كبيرة الورق، ترتفع بعناد من أصص فخّارية تحيط بها أوعيةٌ نحاسية مقببة البطن، صفراء متوهجة.

كان چورج قد جاء إلى بيتنا في شارع بن زهر في راغب باشا، وأيقظتني أمي من نومة بعد الظهر الثقيلة القلقة، وجئنا مشياً إلى الكورنيش.

قال لي: على فين؟

قلت: «الوباء» طبعاً.

قال لي: فكّرتني. عندي ميعاد مع واحدة في سبورتنج الصغيرة.

قلت: وأنا مالي أنا؟

قال: تعال بس.

كان الكورنيش خاوياً تقريباً إلا من باعة الذرة المشوية على مسافات متباعدة نوعاً ما، يُعِدون بضاعتهم ويسوون قطع الفحم السوداء الصغيرة، وبضع عساكر انجليز وأفريكان وسيخ يتسكعون أو يملأون عربات الحنطور التي تجري بخيلها المنطلق، وكل جماعة منهم حريصة على أن تبتعد عن الأخرى.

كان وشيش البحر، تحت، يبلل شمس بعد الظهر الحارة ويعطيها إيقاعاً.

قال چورج: البت قاعدة وحدها في البيت مع أمها، كركوبة أرمنية بت كلب. أبوها بقى يوناني ومحبوس. فاكر حكاية التمرد في المراكب الجريجي؟

قال: البت طِعْمة والله، ولسّه خام، بشوكها يا بويا.

قلت: روح أنت. حاستنّاك عالباب.

كنت قد حدست نوع النسوان اللاتي يتعامل معهن. ولم أكن أصدق تماماً. نوع خاص معروف. طليانيات ورومیات وأرمنيات وجريج، يسعين بلا شك، قلت لنفسي، إلى الرزق وليس لهن إليه من سبيل، أو معظمهن على الأقل، بعضهن بلا شك مُغامِرات أو مفتوحات الشهية، وكانت الشرابات النايلون وتعيين السجاير والبطانيات وَبَر الجمل والهدايا الحريمي من مخازن الجيش والبحرية لها أيضاً غواية، وقيمة.

كان بعضهن يأتين مع چورج إلى ساحة الباتيناج التي كانت موعد اللقاء الأثير وكنا نسميها باختصار «الوباء». أما معظمهن فكان التعامل مباشرة مع بيوتهن الصغيرة المتناثرة في شوارع الرمل الجانبية أو الكبيرة على السواء.

عندما رأيتها تصل إلى آخر السلم. عيناها مبهورتان قليلاً وتُضيِّقهما قليلاً في النور الداخليّ المنصبّ عليها من الباب، كانت مترددة، وواضحٌ أنها خائفة ومتحدية معاً. وكانت ملامح جورج وراءها غير واضحة، ولكن يده حاسمة على وسطها.

لم يعنَ أن يقدمني إليها بالاسم، قال بالفرنسية فقط: صديقي.
وعرفني بها باقتضاب كامل: سيلفانا.

لاحظت أن هناك زغباً خفيفاً جداً على شفتها العليا الممتلئة المصبوغة بأحمر نيء، والشفة السفلى دقيقة وحادة، وكانت نحيلة الساقين والذراعين جداً تكاد تكون ضاوية، وكان واضحاً لي أن بلوزتها الزرقاء المصنوعة من قماش لمّيع يشبه الحرير، وجيبتها القصيرة الخفيفة الحمراء والايشارب من نفس قماش الجيبة الذي لفّته على شعرها، كلها معمولة على اليد في البيت، من ضمن عِدّة الشغلة الجديدة. وكان حذاؤها أبيض، بكعب دبابة.

خطر ببالي سريعاً: أبوها معتقل، وأمها. . . .
إلى آخره. ما فائدة الحكي؟ الحكاية مملة ومكرورة، حتى الآخِر.
وقلت بسذاجتي الصبيانية: ولا يقلل ذلك من مأساويتها.
وقلت: يا سلام. المأساوية هذه من عندياتي أنا. هي لا تعرف ما المأساوية في هذا كله، وحتى لو عرفت لا تهتم.

فلماذا إذن هذه النظرة المتوجسة التي تكاد تكون مستنجدة، ولماذا كل هذه الشجاعة التي تكاد تكون استهانة، بل الاستهتار، والتصميم على اجتياز التهلكة؟

كان شعرها، تحت الايشارب الشفاف الأحمر، خشناً قليلاً ومفروشاً على جانبي وجهها كالمروحة. وثدياها صغيران وقائمان بحرية تحت البلوزة

اللامعة الزرقة. وهي تخطو، باستهانة، خطوتها قبل الأخيرة إلى الأرض، وجورج يدفعها برفق وحزم. ورأيت أن نور الشارع الحار دخل بين ساقيها الطويلتين العجفاوين تقريباً.

على باب الباتيناج لم يقطع جورج تذكرة، كانت له دالّة هنا، ودخلنا على جسه.

هاجمتنا على الفور أصواتُ دوران عجلات الانزلاق التي تصطفق وتكركر على الشقوق الرفيعة بين البلاط الأبيض، وخبطُ الموسيقى عنيفة الإيقاع، عالية جداً. وأصبح الكلام مستحيلاً، وهو المطلوب. أي كلام يقال؟

كان العسكري الاسترالي الضخم ينتظرنا، قال له جورج: هاللو جوني. ـ كيف يمكن أن أخلص نفسي من هذه الشَّبْكة؟ ـ وعلى المائدة الرخامية الصغيرة المدورة أمامه زجاجة سينالكو فارغة ـ بجانب قبعته الواسعة العريضة الحواف ـ والكوب الزجاجي مليء بسائل فاتح جداً، رائحة الجن النفّاذة واضحة. وكانت عيناه حمراوين من الآن، وتائهتين قليلاً.

كان الباتيناج يقع بين سينما سبورتنج من ناحية وخرابة مسوَّرة من الناحية المقابلة، وتطل عليه ظهور البيوت المنخفضة المعتمة لا تنفتح فيها إلا نوافذ الحمامات المدورة كأنها النوافذ الزجاجية المحكمة الرتاج في البواخر، وتلتصق بها المواسير الرقيقة والسميكة والميازيب النازلة من السطوح. وكانت أرضيته من بلاطات عريضة مربعة تفصل بينها شقوق رفيعة جداً تصدر منها تحت عجلات الانزلاق الحديدية أصوات ثاقبة ومتلاحقة كأنها قطارات السكة الحديد، صغيرة ومتشابكة ومنطلقة بأقصى سرعة.

جلستُ، من غير راحة، في الضجيج الموسيقي الذي لا يطاق، والبنات على عجلاتهن الصغيرة دائرات حائمات قانتات راقصات مائسات يملن

ويستقمن يتعثرن ويعتدلن ويطرن طيراناً، يبسطن أذرعهن طلباً للتوازن، تحت البلوزات العريضة الأكتاف، وترتفع الجيبات والفساتين مفرودة عن آخرها واسعة على السيقان والأفخاذ المسحوبة الرفيعة أو المدموكة المدملجة تكشف أحياناً في لحظة الدوران الكاملة عن القطعة الصغيرة الحميمة الملوّنة، والرُكَب مدورة ملساء أو ناتئة خشنة الشكل، شاميات ومالطيات ويونانيات ومعهن صبيان المدارس الخواجات القلائل، والعساكر الأنجليز بالشورتات الكاكي، والأفريكان والسنغال فاحمي السواد، بالملابس المتنوعة الشارات والحروف والألوان، وبعض السمراوات بشفاههن الفلّاحي ووجوههن الغليظة القسمات، مصبوغات، لا تخطيء العين مهنتهن الجديدة، ولا تخطيء العين مهنة الرجال الذين يرقبونهن، كصقور وحمة، من الممر الدائري حول الساحة وقد انتثرت فيه الموائد الرخامية الصغيرة المستديرة.

قبل أن تدخل الحلقة، وقد ثبتت العجلتين في قدميها، التفتت إليّ، ووقفت.

قالت: هل تعرف، أبي من كريت؟

كانت تتكلم بالفرنسية، وبصيغة الأُلفة المصغرة، وكانت معرفتي بالفرنسية عندئذ محدودة.

قلت: كريت؟

قالت: نعم.

أدنت وجهها مني جداً، وهي توازن نفسها على العجلتين، وقبلتني فجأة على فمي، بحنوّ، كأنما بامتنان.

قالت: أريدك أن تعدني بشيء واحد.

سألت: ماذا؟

قالت: دعني وحدي. لا شأن لك بي. أبداً. دعني. لا تنشغل عليّ.

قلت: نعم سيلفانا.

كان چورچ، وصاحبه الاسترالي، ينظران إلينا بدهشة.

خرجتُ بسرعة دون أن أسلم على أحد. ومشيت طويلاً جداً على الكورنيش حتى بعد أن انطفأت جمرة الشمس الكبيرة في البحر ونزل المساء.

كنا نقف على السور الحديدي للكورنيش في سيدي بشر، أنا وصديقي أحمد صبري الرسام الذي ذهب بعد ذلك إلى باريس وتعلم على لوت وتزوج أمريكية وعاش في المايوركا عندما كانت جزيرة برية موحشة ولم يعد إلا في آخر الستينات شيخاً عفياً فتياً، وكنا نرقب بنات إسكندرية والمصيفات، في موكب متصل، بين السيارات التي لم تكن بعد كثيرة جداً وبياعي الذرة المشوية والترمس والحلبة، والجيلاتي واللب والفول السوداني والبالونات الملونة والحلقان والأساور الزجاجية والعقود العيرة، وكان أحمد صبري يعاكسهن بذوق وخفة وفي الغالب يبتسمن خلسة أو من غير خلسة، ويرميننا بنظرات فيها معنى الدعوة والحيطة معاً.

وأصدر اسحاق بك حلمي بطل المانش السابق ومفتش الشواطىء، تعليمات الصيف بأنه ممنوع ارتداء ملابس البحر الخارجة على الآداب تقليداً للأرتيستات العموميات، وكانت مايوهات البحر الحريمي تنزل لكي تستدير حول أعلى الفخذين، وحتى لو كانت فيها فتحة، خجولٌ نوعاً ما، فوق البطن. فلم يكن البيكيني متصوَّراً بعد ولم تكن القنبلة قد ألقيت بعد.

كانت، ربما، في الثانية عشرة أو نحوها، تنحني على الشط لتبحث عن الصدف والقواقع الصغيرة المغسولة، وكانت تبدو صعيدية الملامح جداً وهي ترفع چيبتها من على الماء فتظهر ساقاها السمراوان النحيلتان. نادت فجأة، تحت السماء البعيدة، في سكون الصبح الباكر المشمش:

- إيريني. إيريني..

جرت إليها زمليتهـا، أو أختها، أصغر منها وأرق جسـماً، تتواثب عـلى الرمل المبلول.

ـ مش قلت لِك حنلاقيها، بإذن المسيح؟

كانت في يدها قوقعة بيضاء كبيرة تومض في الضوء الغامض الصوت.

أين الصخور الحوشية الشكل في الشـاطبي وكليوبـاترا وسيـدي جابـر، رملية خشنة، حجرية مغبرة الصفرة، كلها ثقوب دقيقـة، بريـة قليلاً وغـير مشذبة وليس عليهـا كباين، بـل نجد فيهـا القواقـع الزاحفـة الهشة القشرة وسرطـانات البحـر الصغار شفـافة الأجسـام تقـريبـاً، تجـري إلى شقـوقهـا ومخابئها، وتحت الربوات الصخرية القليلة الارتفاع نجد الأعشاب البحريـة المشعثة المتراكمة، لزجة ونفاذة الرائحة.

وكنا أحيانـاً نخدع قلوبنـا بالـرؤى حـول الصخر الـوحشي الطالـع من أمواج الأنواء البحرية وزَبَد الروح المتقلب.

لمـاذا يـتراءى لي حتى الآن ذلـك السلم الرخـامي في بيت سبـورتنــج الصُغيِّرة، نازلاً أبداً لا يصل إلى الأرض؟

سيلفانا في سورة بأسها، بنت السكاربية الغلمانية.

سعاد السماحي طـويلة أنيقة ملفـوفة بإحكام، من أرستقـراطيةٍ بَحَـري العريقة، وجهها الناعم العظام مـسحوب وعيناها غائرتان إلى الداخـل قليلاً في محجريها الناتئين، بجاذبيةٍ سرية خاصـة، تعرف حبي لصـديقتها وكـأنما تحفرني وتبارك قلبي بنـظرتها وابتسـامتها دون كـلام، تزوجتْ مستشـاراً في الاستئناف وسافرت إلى العراق قبل أن يهجم الناس على السفر، بزمان.

ديسپينا الدقيقـة الجسم كأنها دمية أو لعبة، في قسم الحسـابات، متقنـة المـاكياج دائـماً، لا تكاد تعـرف العربي وتتحـرك بسرعـة ولهفـة كـأن العالم

يفوتها، يأتي خطيبها اليوناني الجسيم ينتظرها على الباب في تمام الخامسة كل مساء فتتعلق بذراعه كأنها لا تسير على الأرض.

زيزي التي ظلت عندي بلا اسم ولا رصيدٍ من حب إلا الشرف الخاص الذي لم يُستبَح حتى في بارات باب الكراسته وكازينوهات ستانلي.

ست وهيبة التي كنت عندها أبناً وحبيباً تغار عليه من مسافرة الليل دائمة السفر حتى لتغدر بها وتكاد تسلمها للتهلكة.

إسكندرة التي غرقتُ معها تحت الكرمة البحرية وكان شعرها الطويل يتوهج بنور الشموع في رقرقة الموج المِلْح.

ايڤيت ساسون متدفقة بالحياة، مدورة الوجه وحنْيات الجسم جميعاً، وشعرها كالقسطل النيء تحكي عن سهرة الأمس باستمتاع ولا يني جرس التليفون يطلبها في الشركة وهي جنبي فترد بلغات الإسكندرية جميعاً، وبكل أنواع الغزل الهامس أو الصريح، الحييّ أو الإباحي، المرح أو الحزين.

مُنَى المعابِثة الخفية القلب تنظر إليّ بعيني السلحفاة البحرية الجاحظتين قليلاً الناطقتين بطلبٍ لم أستطع أن أجيبه، وجمالات الشهيدة التي حملتُ جسمها على ذراعيّ تسري فيه ببطء برودة الموت.

خالتي وديدة ضاربة العينين ذرِبة اللسان حانية عليّ سحرتْ مطلعَ صباي ملابسُها الداخلية وسوتياناتها المخرَّمة والشفافة يتقطّر منها الماء على حبل الغسيل.

وامرأة خالي استر أغمضت عينيّ على فخذيها وحبست دموعي ونمت عميقاً بعد أن ألقت البنت بنفسها من نافذة المدرسة وسقطت على البلاط أمام بيتنا القديم.

سُمَيّة فتاة الشاعر المحبَط وبنت الأنجليزية التي انتحر صديقي أنيس رمزي حباً لها ويأساً من العالم.

وچانين اليوغسلافية التي اختلس صديقي فيليب نخلة، من أجلها، وهجرته بعد سقوطه، ومات بالسل بعد قليل.

الست نجية ذات الثعبان الكامن بين النهدين، عيونها القبطية في وجه مرفوع من على تابوت في الفيوم.

أم توتو، ديانا النحيلة الهفهافة التي وَقَع مطلعُ طفولتي في شباكها الشهوانية، صدمته المعرفة ولم يطلع أبداً من شراكها.

ليلى الأُخَيلية البدوية ذات الحلق في أنفها المخزوم والعصابة الحمراء الداكنة فوق جبينها الأسمر الناصع، شامخة الصدر تأتي معها برائحة الغَنَم وإيقاعات الشعر الرتيبة.

نفيسة المشحونة بطاقةٍ متفجرة المتلويّة على التراب بآلام الجنس والمخاض الوهمية الوحيدةِ الحَق.

رانة القتيلة في سيدي بشر مَنْ قتلهَا؟ العاشق الصعيدي الصلب العود؟ طافيةً أبداً على يَمّ العشق المرتطم.

سوسو تلميذة نبوية موسى التي سَتَرْتُها من المطر المنصبّ وسددتُ السكة أمام نفسي عندما قلت لها اسمي الذي طالما أنكرته وطالما رن صداه في شوارعي.

مادلين وميريام الأختان اللتان لا تفترقان، كانتا تمران في محطة الرمل ونتنظرهما من نافذة «على كيفك» العلوية أو من «كازيلانكا»، تتلفت خلفهما كل الأنظار، شعرهما الأسود، كلتاهما، منسدل مسترسل على الظهر، وإذ تسيران لا تكادان تُحرِكان ذراعيهما، وفي تلك المشية المتصلبة الثابتة الجسم

السيالة مع ذلك سحرٌ آسر لا يلفت منه أحد، مادلين تزوجت وهاجرت إلى أمريكا ورأيتها بعد ثلاثين سنة، في فلوريدا، كهلة ناضرة لم تتغير عيناها، وجدّة مرِحة. أما ميريام فقد أحبت يهودياً من كندا وعاشت معه في تورنتو، لم تتزوج قط ولم تخلف ولم أرها قط بعد.

أم دولت جارتي التحتانية التي كانت تراسلني، في قلب صفحات روايات الجيب، «حبيبي يا أعز حبيب، لا أنام الليل حتى تعود فآوي إلى فراشي أحلم بحبنا».

ومادونا غبريال الصامتة ما زالت تشرق عليّ في الحلم، بنورانيةٍ لا تندثر.

خالتي سارة التي تكبرني بسنين قلائل ألتصق بها بالليل على فرن القاعة في خريف الطرانة البارد، وتراودني كل بنات ألف ليلة وليلة من بغداد إلى سمرقند.

وكاترينا الشجرة التاسعة المزدوجة المثمنة ترنيمتها لا تنتهي.

ايفون نقاش في مدرسة فَكْس بعد الظهر تتعلم الفرنسية وينفتح لي نهداها في رؤياي أمام هَبَّة الهواء الخفيف من البحر، فاكهتين مترعتين بعصارة غنية محجوزة.

وفتاة الروب الحريري الأزرق في شرفة بيت محرم بك، لغزا دائماً لا مدخل إليه.

ستيفو اليونانية ثدياها هائلان وفَتِيّان ومهاجِمان وهي مع ذلك رشيقة الخطو خفيفة الإيقاع مفترّة الثغر على الدوام، صديقي سليم أندراوس يسميها «البقرة» باللغات الثلاث، وينتشر اللقب في الشركة وكأنها استطابتْهُ فلم تغضب ولم تعبس في وجوهنا بل لم تبخل علينا بنظرةٍ باسمة بين الحين والحين.

حينّاها، كنت قد تزوجت من سنة واحدة بالضبط، ونحن ندخل معاً محلّ مانوليديس في الإبراهيمية، لنشتري خبز عيد القيامة المخصوص المعجون بالبيض وفي داخله عملة فضية من بخت الذي يجدها، والتهاني بالفرنسية واليونانية والعربية وجو العيد البهيج في صباح سبت النور هو أيضاً نعمة ولّت ولن تعود، وذهبنا بعد ذلك إلى موناخوس على القمة الثانية واشترينا دستة جاتوه مشكّل بربع جنيه لأنني تركت البقشيش للعامل الأسمر ذي المعطف الأبيض الناصع، وكان صاحبي ، بيّاع الصحف السفروت الصغير يصيح : أهرام جمهورية تاشودروموس بروجريه أهرام وهو يتواثب فوق قضبان الترام الذي يجيء من بعيد يجلجل بجرسه جليلاً ورشيقاً معاً أزرق نظيفاً والناس تطل بفرح من دوره العلوي.

أوديت المتحفظة، خفيضة الصوت، عندي معها ميعاد، أهتف بأختي متذمراً ضيّق الصدر،

ـ عايدة، أنا مستعجل فين القميص؟

فتنزل جرياً، بالشبشب وجلابية البيت، وتعود بعد دقائق خاطفة وفي يدها القميص المغسول المكوي ياقته منشّاة، المهندس قد الدنيا الذي يعمل الآن في المتحف اليوناني الروماني عنده بالضبط ثلاثة قمصان وبدلة فاتحة وبدلة غامقة، وما أن يعود من الخارج، كل يوم على الله، مبكراً أو متأخراً على السواء، حتى تغسل له أمه أو أخته عايدة قميصه، وثاني يوم بمجرد أن ينشف القميص تذهب به إلى المكوجي، حتى يعود بالياقة البيضاء المنشاة.

أمشي من شارع راغب باشا إلى سينما فؤاد لألحق حفلة الساعة ٣ بعد الظهر، حريصاً على أن يظلّ الحذاء لامعاً. وأجدها بالفعل منتظرة في ردهة السينما، شعرها ألاجارسون، مترددة الابتسامة، وتقول لي:

ـ عجبك التايير الجديد؟ لبستهُ لَك مخصوص.

وتمسك بيدي في عتمة السينما، فأضع يدي على حجرها أحس نعومة فخذها. ونذهب بعدها إلى السكارابيه في ستانلي بيي، نأخذ سينزانو أو مارتيني ـ جاف جداً ـ على زرقة البحر الشتوية. هذه الفُسحة تكلفني كل ما في جيبي. في اليوم التالي سوف آخذ الجنيه السَلَف المعتاد من صديقي أنطوان، الذي كان يشتغل معي من سنين في مخازن البحرية البريطانية في كفرعَشْرى، وكان هو، شقيق أوديت، لا يعرف أو لعله يتجاهل (لا أعرف) أنني أواعدها، وأنا لا أجد في ذلك أي حَرَج وإن كان يطوف بذهني حس ما بالذنب الطفيف.

أما أختها آرليت السامقة الطول المتهدلة الشعر التي كانت تنظر إلي دائماً بانتظار وتساؤل دون كلام، فقد قبّلتها مرة واحدة فقط على خدها، بعد أن شربنا في ليلة الكريسماس، وسقط شعرها على وجهي، ولم أقبّل أوديت أبداً على فمها الذي طالما اشتهيته وما عرفت طعمه قط. سافرت آرليت إلى البرازيل وتزوجت قريبها الشامي البرازيلي رجل الأعمال وانقطعت عني أخبارها وأخبارهم كلهم، بعد سنين قلائل.

بعد ١٩٥٦ سافر الجميع تقريباً إلى أثينا وروما ومارسيليا، إيفيت ساسون ومارسيل صدوق، ستيفو أورفانيديس، وديسبينا ستاماتوبولو، ريتا وزوجها بيساس، أناستازيا وزوجها ديمتري كامبانيس، ماريا سيمونيدس العجوز القوية، وجانين بيركوفيتش، مادلين وميريام وانطوان وأوديت وآرليت ولكن جورج سكيريانيدس رفض السفر ورأيته في آخر السبعينات خارجاً، في الصيف، بنصف كم بمشية العجوز النشط، من قاعة البلياردو في شارع صفية زغلول.

نعمتي الباقية موطني وملاذي في غربتي الدائمة ماستي الواحدة في «أتينيوس» شارع فؤاد. أصباحٌ، قائمة كالشهود، لا عِداد لها، موسيقاي تعلو وتذوب على جدران الروح. بائع الصحف أمام حلواني «بوردو» يمد لي

يـده أبداً بصحيفـة من غير تـاريخ قشعـريرة نـار الندى سـورة حميا اليـأس والطلب والشجّي معتم النيران جاتوه ألف ورقة وأصابعي المشغـوفة تـرسم نداءها على وجنتيك ألف مرة وتقف على حفـافي شفتيك المحـطة الأخيرة في كليوباترا الحمامات توكاتا وفوج باخ عمـل ٥٤٥ مقام فـأكبيرنبـاتات متلوّيـة عـلى جانبي عنقـك هذيـان الـسُكر بمـوسيقى جسدك وشفتـاي على النـدبـة الصغـيرة تحت أذنك اليمنى. أنت معي، لا اختيـار لي. يا بنت إسكنـدرية الواحدة مهما كنتِ كثيرة. كثيرة عليَّ. تُلجئيني إلى الصمت. وهل هناك في الآخـر إلا الصمت؟ مهـا ظلت أغنيـاتي الإسكنـدرانيـة صـادحـة إلى أبـد الأبدين.

آه يا بنات إسكندرية، والشفاه السُكّريّة
هل العالم قد امتلأ بالأمس؟ والأمس فيض

النخلة النجرانية كـان مرآهـا خلسة عـلى الشاطىء المـزدحم في المعمورة مضضـاً وتعذيبـاً صَراحاً. لم تكن تـراني ولا عرفت أنني كنت أراهـا. تحت مظلات البحر العريضة المتقاربة كان حولها رجالها ـ كالمعتاد ـ سُمْراً مفتـولي العَضَـل على وجـوههم سيماء السلطة والفلوس، وهي مـسيـطرة ـ كـالمعتـاد ـ على الكلّ، بالأنوثة المتفجرة التي تبض من كـل مسام جسمهـا حتى وهي بملابسها الكاملة على البحر، وحديثها، شهرزاد الـسحّارة الأبدية، والرجال مسحورون أَسْرَى سيرْسيـه أرواحهم نفوس خنـازير القـطة اللبوءة سخمت بست من أحراش القاهرة الفاطمية وأنقاض الشرقيـة ونجع حـادي. قالت إنها تعلمت في كليـة فيكتوريـا للبنات في الإسكنـدريـة ولكنهـا ظلت دائـماً غريبة على الاسكندريـة. سيدة الآلام الجنسيـة وسورات المبـاهج الحسيـة. ورقـة قلبها؟ فيم قسـوتك عـلى المرأة الفـردوسيّة التي رشفتَ من سـلافتهـا النكتـار المصفّى ومنحتك من حبهـا وحنو صـدرهـا مـا لم يُمنحـه بشر، مـا يحميك أبداً من جرح العالمين؟

النخلة السلطاني، سامقة ملساء الساق، سمرتها صافية، خُصَل السعف خُضر مدببة طويلة أسنّة العيون الناعمة فيها شراسة وما أعذب استنامتها إلى التمسيد وطيب الملامسة، وادعة وهي تنوس في حضني تتلمس الأمان وتستشير دَفْق ينبوع العشق قريبة جداً من العينين من الصدر من عمود الاشتهاء. يتتابع النخل القصير على شط المحمودية كأن طريقه يُفضي إلى سيرابيوم فرديٍّ خاص أو إلى الكرنك الاسكندراني الشخصيّ الذي لا يفتأ يقوم بأعمدته الصَرحيّة وينقضّ باستمرار. نهداها المدوران محملان بأسباط البلح الرُطَب الأسود المُسْكِر الحلاوة لا تشبع شفتاي من مماسته وامتصاص سكّره شماريخها العظميّة المستديرة تنبثق عنها غدائر الغَواية بلا انفصال والأشعة تتخللها شمسٌ طَعْنَتُها أسنانٌ نباتية صلبة وغضة معاً.

جمالها دائم.

وعقيم.

وعندما ذهبت إلى قلعة قايتباي في الأنفوشي وكانت مهدمة وأحجارها مرمية كان النخل السلطاني قد جفّ واحترقت أعمدته، سوداء، ذُؤاباتها ذابلة مهتذلة، وأوراقها العريضة مصَوحَّة فأين غابات النخل البلدي المفرح الخصيب وأعذاق البلح الأحمر البهيج؟ متى غرق تحت رمال سيدي بشر وآكامها المنهارة؟ تحت ضوء القمر كانت أشجار النخيل البلدي متقاربة تلقي على جسد الرمل الهش اللدن ظلالها التي تميس عليَّ بموسيقية هامسة خاصة لا تكاد تُحَس، في فضة الكوكب السحري المعبود. أما في عز الظهر فقد كانت ملاذي في حر أغسطس وكانت الأنسام تهب بعطر خفيف من السَعَف الغض تحت الظلال المشمسة المفهفة، نشوة للحس وللقلب خالصة.

لا اختيار لي.

كانت أكوام شِباك الصيد المتراكمة طرية النسيج باهتة البياض، عجينة قديمة، تهدلت طياتها على القوارب الجافة المقلوبة على رمل الشاطىء الخشن، وكانت تأتيني منها رائحة زَفَر السمك، وكانت هناك كلبة ضخمة متدلية الضروع دخلت وراء فتىً صياد مفتول أسمر الصدر يعوم ذاهباً إلى بعيد في الموج الرصاصي الداكن الخضرة، يلتفت إليها من وقت إلى آخر ينهرها ويشور بيد واحدة ولا أسمع صوته والكلبة تُغوِّر خلفه بهدوء وثقة ومن غير أن تثير رشاشاً ولا زَبَداً في الموج الساكن الثقيل.

وقرأت في «البصير» عن مُدرّسةٍ وُجِدت مقتولة في بيتها في حي غبريال، واتهِّم شحاذٌ مقطوع الساقين كلتيهما بالجريمة. وأحسست كأن الأوراق الحية للأبد قد انتزعت من الجسد الطَهور وأن ثم تدنيساً قد تم تمامه ولا يمكن أن يُغسَل أو يُطهَّر، وكانت بذهني نيران أكمَةِ الفخرانية في غسق غبريال كأنها إحدى ردهات جهنم الغاصة بنفوس خياناتنا وتجديفاتنا وحنثنا بالأيمان، وتأكد ظني بالبنايات المظلمة في شتاء الكورنيش، خرساء وموصَدة ومقشَّرة الجلد كأنما استشرى فيها الجذام، وحديدها صدىء وبُنّي محمرّ كعظامٍ رميم وهياكلها فاغرة أفواهها مُعرّاة من اللحم الذي باد واندثر.

قالت لي إنه في ١٩٤٢ كان بيتهم في شارع بوباستيس جديداً وله جنينة صغيرة مخضرة تفصل بينه وبين العمارة العالية المجاورة التي تسكنها أسرة طليانية أُعتِقل رجلها الخواجة لافونتي الذي كان يلبس قميصاً أسود قبل الحرب ويقود جماعة الفاشيست في إسكندرية. وكانت الست تريزا زوجته تتحايل الآن على المعايش ببيع زجاجات الكونياك المغشوش للبقالين وللعساكر الإنجليز الذين يترددون على شقتها، بعد أن تُلصق عليها بطاقات الماركات الشهيرة. وكان عندها بنتان وولد، في سنهم، وكانوا يعاكسونهن فيغنون وهم في بلكونتهم الأرضية:

أونو جورنو موسوليني . . ڤول فاري لاڤياتوري
مونكاتا دي بنزيني . . بيسّاتاسولْ موتوري(*) .

فتنزل البنتان والولد من التراسينة ويشتبكون جميعاً في خناقة بالأيدي والأرجل وشد الشعر والوقوع على العشب الأخضر في الجنينة حتى يأتي الكبار فيخلصوا المعركة، ويلعبوا السيجة بعد ذلك معاً كأن لم يكن شيء أو يذهبوا ليأخذوا غُطْس بعد الظهر تحت صخرة سيدي جابر.

كان الرصاص ينطلق بسرعة، يومض خاطفاً في نور الصبح، من كشك البوليس الحربي الإنجليزي المغلق على ساكنيه، تحت تمثال سعد زغلول الشامخ الذي يبدو بعيداً لا صلة له بما يجري، وكانت السيارة الجيب المكشوفة تقف على الكورنيش وفيها أربعة عساكر يبدون هادئين وثابتين، ومع كل منهم تومي جن مشرَع ومسدَّد إلينا ونحن نطوف حول الكشك وندور حول طابور الجيش المرابط الواقف غير بعيد. وخلع الولد جلابيته البيضاء وغمرها بالبنزين ورماها كومة ملتهبة سريعة النيران من الشباك، وبقي بالفانلة واللباس، وسكت الرصاص فجأة وتدفق الدخان الأسود الأبيض من الشباك وانطلق من الجموع المحتشدة زئير وهتاف مضطرب الأمواج، وتحركت الجيب وانطلقت الرشاشات وسقط الناس وانطلقت المظاهرة تجري مشتتة ثم تجمعت في شارع سعيد. مَنْ فكَّر، ساعتها، أن يُقيم الفرْقَ بين البطوليّ المجيد وبين المضحك المثير للسخرية قليلاً؟ ومَنْ كان يمكن أن يمر بباله أن مَن بالكشك لم يكونوا بالضبط فيراناً محاصرة في المصيدة؟ أو أن القتل هو القتل؟ بغض النظر عن المشروعية والأحقية وحرب المقاومة الوطنية؟ من كان يمكن أن يقول لنفسه ذلك حتى لو كان حقاً.

(*) كان موسوليني ذات يوم يريد أن يعمل طيّاراً نقص منه البنزين فبَال على المحرِّك.

قلت: إن ضرورة الرموز قاطعة. إن قضاء الرموز لا يُنْقض. إن الرموز لا تحتمل التساؤل.

قلت: والمعايير تسقط في الساعات التاريخية. للتاريخ معايير أخرى.

قلت: صحيح. حتى ولو كان ذلك من تعلّات الطُغاة.

وعند انصباب الليل نجمةٌ واحدة تومىء لي. فهل نحن في البدء؟ لا بدء ولا نهاية. السماء كثيفة ومخملية الملمس تُبطّن النهدين المكوَّرين بحريرِ نسيجِ الباراشوت الأصفر المصبوغ الملفوف حول الجسم بين طلقات مدافع الآك آك وتحت أعين عساكر الحرس اليوناني في مخازن البحرية البريطانية بين الكشّافات التي تجوب قبة السماء وشرائح الزّبَد الساكن مرمية الآن على وجنتيْ الرِدفين ملتصقةً بالدوران الرشيق على كلٍ من جانبي الوهدة المضمونة تحتضن الخصر الضيق وتكتم وشوشة الموج الصغير في حضنها الأبيض وأخذت المعدّية المزدحمة لأعبر ترعة المحمودية التي تجري بمياه بُنية عسلية داكنة ودفعت المليمين وعندما خبطتْ أخشابُ جسم المركب بالشط الطيني أرجعتْها الصدمةُ قليلاً إلى الوراء وأنا أخطو للخروج وإذا هوة الماء تنفتح تحت قدميّ وإذا بي أشهق في الماء الثقيل وإذا هي في حلم الغَرَق بين ذراعيّ زلِقةَ الجسد يتقطر الماء من حَرْشةِ الشعر الخفيف المبتل بين الساقين الأملودين المضمومتين.

في العالم صَفْوُ الأبد كأنها بَرِيء من الزمن والاسكندرية السمراء الصغيرة القد منمنمة القسمات كأنها بنت ما زالت خاماً وفيها جفاوة العُذرية المغلقة كصبّار غضّ الشوك والأشجار الطويلة المسحوبة بيضاء القامات لها حفيف بارد في ساحة جليمونوبولو المستديرة ونحن في طريقنا الليلي الملتوي من الشُرب إلى الغرفةِ الزجاجية الشتوية في ستانلي بيي، وهي بيتنا: فيليب النحيل الطويل العظميّ الوجه وتوماس السمين قليلاً بكرشه الصغير

الراضي عن نفسه ورأسي يدور ويعلو ويغور غاضباً وساهماً وحالماً ومنطوياً على قرارٍ داخليّ لم ينضج بعد.

أنزلُ بخفةٍ وفرحِ الليلِ على عمود النور المتقد بالغاز المهتز في زجاجه السميك المضلّع أمام بيت خالتي حنونة في شارع سيدي كريّم نور الغاز يضطرب وابن خالتي وطواط ينزل بعدي على العمود بجسمه المرِن وقد انحسرت جلابيته عن رجليه اللامعتين اللتين بلون القهوة باللبن واللتين هرستهما عجلات الترام في الصيف بعد ذلك بقليل ونجمتي الواحدة تومض تُخبيء لي مصيراً غير سار وفي نور النجومِ الإبرِ السماوية يخلع الأولاد ملابسهم كلها ويكوّرونها في لفّاتٍ ملمومة على الأحجار المكعّبة المصنوعة بإحكام أجسامهم تزداد سمرة ونتوءاً في عريهم الكامل الليليّ ونحن نساوم البنت البردانة، الجوعانة بوضوح، مساومةً قاسية على قروشنا القليلة وفينا من شهوة الإذلال والانتقام ما لا يخفى على صَحونا الذي يغيّم عليه أُوار البيرة من عندٌ لورَنْتوسُ في صفية زغلول جنب سينما ريالتو.

وعُرضت على محكمة جنح المنشية اليوم منعقدةً برياسة الأستاذ محمد حافظ قضيةٌ اتهم فيها شخص يدعى فتحي السيد عباس بأنه في ٥ مارس سنة ١٩٤٦ أتلف عمداً سيارةً للجيش البريطاني بأن صب عليها بترولاً وأضرم النار فيها وقد قرر القاضي تأجيل النظر في هذه القضية إلى ١ يونيو وإحالتها إلى محكمة الشؤون المستعجلة المختصة بحوادث المظاهرات بعد أن أثبت نقيب المحامين بالأردن أن ما نُسب للمتهمين يجب أن يقوم به كل مواطن عربي فقد تعلم أبناء الشعب العربي ضرورة لفظ ومحاربة وقتال الاحتلال الإسرائيلي بكل صوره ورموزه وما نُسب لأبطال «ثورة مصر» أتمنى أن أكون مشاركاً بمثله وكانت إطارات السيارات تحترق بنار سوداء والأطفال الملثمون بالكوفيات المميزة يقذفون بالحجارة والعساكر الملثمة بالخوذات المعدنية تقذف بالغازات التي تتصاعد أبخرتها بيضاء خانقة في الزقاق

الضيق بين الأسوار الحجرية العريضة والمذيع يقول بحياد، بلا مبالاةٍ تقريباً، وبذلك يصل عدد شهداء الانتفاضة إلى ٣٢٩.

أما ضجة العالم وناسه وأعمدة الكورنيش المطلية بالأزرق الباهت والسيارات المغلقة على قاطنيها في البرد فأقول لنفسي لا معنى لها وأقول أنا وحيد دائماً وحيد.

والمِزق الصفراء الحريرية تمر فيها بين الساقين لتحبك الربوة الصغيرة السخنة وترسم الخط بين الشقّين اللدنين المتماسكين معاً ثم تتهدّل على الفخذين بمداعبة لا صوت لها.

وعندما كانت أمي تقول لي امسح إزازة اللمبة نمرة خمسة كنت أحس بطن الزجاجة مجوفاً خفيف الجسم، والخرقة الناعمة تدخل بأصابعي من الفوهة السفلية المدورة الضيقة، يدي الملفوفة بالنسيج تمس الزجاج الذي دفِئ من المسح ومن مسكتي به برقّة وإحكام في حركة دائريّة بطيئة منتظمة، وكان ثم حنو وصمت يغمرني.

تكوّنات السحب البيضاء في سماء الليل من ورائها مصباحها الخفي العالي المشاع النور والأسفلت الأسود المبلل برطوبة البحر يعكس صورتها ويغلق عليها صدري.

وفي حموةٍ من جنون الصبا الأول وتأكيد الذات الصبيانية كنت أنزل بضرباتي ولطماتي بجمع يدي على جسم أختي عايدة التي أحبها ويضطرب حبي لها حتى الآن وكان طقس الغضب لأنها لم تسمع كلامي ولأنني الأكبر الذي يجب أن تمشي كلمته على الجميع وكانت نوبة الضرب والالتطام المعربدة تأتيني بتحقق ليس شبقياً فقط بل كأنه كونيّ أيضاً فليس في الاصطدام العنيف باللحم الأنثوي الأخوي اللدن متعة جسدانية بل كأنه انحياز شامل وكلي. قلت: ألم تقل إن وقت ذلك كله قد فات ولا جدوى

لذلك كله بل لا معنى له. قلت: ولكن ذلك لا يقلل أنه في سياقه الخاص شائه وصغير ومدان بكل المقاييس ولا غفران ولا تبرير له أبداً.

وعلى الأكتاف المدوّرة الناتئة العظم هفهفة النسيج الأقحواني. لماذا تصحبينني بكل طريق، نبضاً وعصفاً وشجىً، وهذاءً لا يستفيق، فهل أنتِ أنتِ صفو السماء الأخير؟

وخبطات الكعب العالي يرن لها صدى على صلابة النجوم المكسرة حُطاماً وشَعاعاً تَشَعُّثُ الأطراف والحواشي ضفائر رقيقة تدغدغ الجلد الأملس المتيقظ المرهف الاستشعار.

وكنا نسير في الصباح الباكر متماسكي الأيدي جماعة صغيرة ما زالت متوجسة ولكن مستميتة في الساحة الفسيحة بحدائقها الصغيرة الخضراء الموبقة آتين من كوبري مِنشّة ومتجهين إلى شارع فؤاد من أمام ملعب الملك ونحن نغنّي في الفراغ اسلمي يا مصر إنني الفدا، ولقلبي أنت بعد الدين دين، ودهشتُ إذ هبّت علي فجأة رائحة الياسمين من خلف الأسوار الحديدية للفيلات الأنيقة المغلقة النوافذ لك يا مصر السلامة وكانت الشوارع خاوية تماماً والأبواب كلها موصدة وسلاماً يا بلادي وحتى باعة الكازوزة كانوا ينظرون إلينا بقليل من الاستغراب، وبصمت.

عيناك اللتان لا تطرفان خضراوان وداكنتان وبئران عميقتان معاً، هما سرّي الذي استغلق عليَّ فضُّه لا أعرف أن أسمِّيه بل لا أكاد أن أعرفه أكاد ألمسه بأنامل مشعوفة ويفلت من يدي ضارباً في جسد الظلام والطحالب الخضراء الشرسة الشكل في هذه العَتَمَة لها غواية بنعومتها الخادعة الخئون تحضن الإسمنت القديم المبلول أما البنت الصبيانية الشكل فتقبل الإذلال بابتسامٍ راضٍ مستسلم وتعرف أن المساومة الطويلة وهمية وأنه لا مكسب ولا خسارة وأن الجرح المتبادل عادي ومبتذل ومكرور وحمامة الروح القدس تسقط

هاربة على زَبَد النهر الضحل العذبِ الماء الذي يشق أمواج البحر الملح وما زلتُ أولد وأموت وأولد وأموت.

يمشي الأولاد على حفافي الموج الذي يضرب الكتل الضخمة في طنين مصمَت له رشاش مكتوم يلتقطون الخطى بين أقفاص مهدّمة من خشب الجريد ونفايات الصفيح والقماش البالية المبلولة تحت أركان حجر الإسمنت ذي الجوانب المرشوق لحمها الصلب بالحصى والزلط وخشونة الرمل الكثيف ويرمون أنفسهم بأجسامهم المشدودة العارية تماماً في الموج المعتم الغَضوب وهم صامتون.

وكانت السيور الجلدية الصفراء تلتف بالساقين العبلتين المكشوفتين لهواء الكورنيش يضربها نسيج الجيبة الخفيفة المتطايرة.

والوَحْش يرعى أحشائي واسمك المرير قشوة بيضاء على الشفتين الجافتين والعالم وَحشْ، والألم.

والناس والسماء والبنت والصحاب والماء والنخل السلطاني والرمل الداكن كلها أطلال.

وأنتِ لا تجيبين، فهل تعرفين؟
وهل من إجابة أبداً.
سؤالي قائم لا يريم.
أسؤالي هو الشيء الوحيد الذي يكسر الصمت؟

٧ ـ الثعبان والنهد القوي

كانت رائحة البحر والسمك النيء الطازج تتغلغل في الحواري الموحلة قليلاً، مياه المطر من نَوّة الأمس ما زالت تترقرق تحت هبات الهواء الملح، وتنتهي إلى الأرصفة البازلت.

وكنت أمشي بسرعة بين البيوت المبتلة القليلة الارتفاع أحاذر أن أنظر، بشكلٍ صريح، إلى المداخل المعتمة قليلاً المليئة بالنسوان، منهمكاتٍ في الطبيخ أمام مواقد الجاز التي تفحّ وتنير العَتَمة بنورٍ أصفر ثابتِ الاتقاد، أو متربعاتٍ أمام الطشوت المعدنية يغسلن ويدعكن هدوم الرجال والعيال، أو مُحنيات الرؤوس عاكفاتٍ على تنقية الرُزّ في الصواني النحاسية في نور النهار على عتبات البيوت، وهن يرضعن أطفالهن تركن لهم أثداءهن بحركةِ نسيان لهم وللعالم كله، وكنت أحسّ عيونهن مفتوحةً عليّ صاحيةً لي في الوقت نفسه، متسائلة.

كنت ذاهباً إلى الرَبْع القديم في بَحَري، وقد استأجر فيه قاسم اسحق شقة صغيرة، من غرفتين على السطح، ليهرب من مطاردة البوليس.

عندما عبرتُ الباب الضخم العتيق، عالياً جداً ورؤوس المسامير الغليظة مدقوقة في خشبه السميك، إحدى ضلفتيه مغروزة في تراب الحارة التاريخيّ والثانية مسنودة لا يمكن تحريكها على حجر الحائط العريق المُسْوَدّ، فَجَأتني رائحة الرطوبة وبلل التراب في الفَسَحة الواسعة المعتمة. كان زجاج نافذةِ المَنور العلوية، وأنا أرفع إليه بصري، فيه أشارة باهتة من ألوانه القديمة

الزاهية، وتراكمات التراب الذي تكثف وجَفّ حول حفافي الزجاج قد زحف وساح تحت مطر الأمس.

مررت بجانب العربة الكارو عالية العجلات ذراعاها الخشبيتان الطويلتان مسنودتان إلى حائط بير السلم، وصعدت السلم الخشبي الحلزوني العريض، درجاته تصيء تحت قدميّ. خشبها قد اهترأ أو انبرى تماماً وزال من المنتصف في بعض الدرجات والدرابزين البلوط السميك المدوّر نعّمته سنوات من مَسْح الأيدي ومَسْكها وتحسّسها، يهتز ويميس كأنما يوشك على الانخلاع.

فتح لي قاسم اسحق الباب بعد أن طرقته كالمتفق عليه، ثلاث طرقات متلاحقة ووقفة ثم طَرْقة واحدة وبعدها بقليل طَرْقة واحدة أخيرة.

قال بلهفته المعتادة وحيويته المستمرة: هيه، أيه الأخبار فيه حاجة؟

كانت الجيم عنده أسوانية نوبية مُعَطّشة ومُشْبَعة، وكان، حتى في لهوجة السؤال والقلق، يبتسم ابتسامة خفيفة كأنما على الرغم منه، ووجهه الأسمر الوسيم مدفوع به إلى الأمام في توجسه وتطلعه، وعلى صدغه الأيمن التشريطان القَبَلِيّان التقليديان، رأسيّنْ، بلونٍ أقل سمرة من جلد الوجه، وتفوح رائحة البريّانتين الكثيفة من شعره الخشن الصلب كأعوادِ حلفاء حوشية. كنت أضحك عليه وأغضب منه قليلاً، في طهرانيتي الصبيانية، عندما أجده يقضي ساعات، حرفياً، في تنعيم هذه الحرشة من الشعر وتمسيدها بالبريّانتين ثم يربط عليها فوطة يتركها ملفوفة على رأسه، بِنْسوية الإيحاء قليلاً، طالما كان في البيت.

ضم حواليه الجلابية النوبية البيضاء القصيرة فقد هب عليه الهواء البارد عندما دخلت.

ـ خير لغاية دلوقتي. النيابة طلعت أحمد النمس ويسري حليم من غير

كفالة. عبد القادر نصر الله أتجدد اربع تيام كمان بس المحامي بيقول ما فيش قضية خالص. إطِّمنّ عبد القادر جدع. إسمك ما جاش خالص في التحقيق. بَسّ يا عم..!

جلس على الكرسي الخيزران الوحيد في الغرفة الواسعة الخاوية، الدافئة مع ذلك بشكل غير متوقّع، خلف المكتب المهدّم المكوّمة عليه كتب القانون وكراريس المحاضرات ومسودة ترجمة «الأدب والثورة» التي كان يحاولها منذ شهور ولا يريد أن أشاركه فيها.

كان ثورياً وصلباً حتى النهاية، وفي السجن بعد ذلك بسنين انضم إلى «حدتو» وقضى فترة الواحات كلها بشرف وخرج واشتغل محامياً في أسوان ومات بسرطان في المخ، وما زلت أعزه جداً ولا أتصور أنه مات. أُفكر أحياناً أنني سأراه عندما أذهب إلى أسوان.

كدت أتدحرج وأسقط على السلم إذ انزلقت قدمي على درجةٍ ممسوحة باليةِ الخشب واهتز الدرابزين في يدي بشدة وأنا أتشبث به وأتأرجح معه.

انفتح الباب فجأة بينما العالم يدور ويميد وينهار من حولي وكأنما تنفتح تحت قدميّ هُوّةٌ فاغرة الأغوار مظلمة، وقبل أن أراها سمعت صوتها الخفيض المبطّن بشهويّةٍ خاصة:

ـ باسم الصليب وشارة الصليب، اسم الله عليك وعلى أختك، مش تحاسب يا خويا؟

كلمات أمي عندما كنت أقع على الأرض في طفولتي، وأتساءل دون كلام: من أختي؟ وما شأنها هي إذا وقعت أنا؟

ولكن الصوت كان فيه مع ذلك من الحنو والخفوت الأنثوي ما افتقدتُه فيما أعرف من صوت أمي المشبع بسلطة الأم وانفرادها بابنها، مع اللهفة المشتركة.

كان الوجه الغامق المسحوب الذقن الذي يطل عليَّ من وراء الدرابـزين وجهاً قبطياً مرفوعاً من تابوتٍ في الفيوم ولكنه حيّ ونضر وأملس الجلد كأنه ذهبيٌ باهت ومصقول جداً والعينان الواسعتان الغـويطتـان يحيط بهما سـواد الكحل البلدي.

ـ تعالَ تعالَ يـا خويـا، يا ضنـايا دانتَ وِشّـكْ مخطوف، عـادِيـكْ ولاَ الليمونة، تعالَ اشربْ لكْ بُقّ مَيّه ولاَّ حاجة. إدخُل أعمل لك شاي..

عندئذ فقط رأيت أنها تحمل طفلاً صغيراً جداً تضمّه بذراعٍ واحـدة إلى حضنها، وفي العَتَمة الخفيفة رأيت أن صدر الجلابية الكستور المفتوح مبتـلّ وأدكن قليـلاً مما حـواليه وشممت رائحـة لبن الأم لا يخطئـه الحس خصيبـاً ونفاذاً وفيه أثارةٌ من حلاوة.

كانت ملامح الولـد دقيقة جـداً ومنطمسـة في صدرهـا ومجعّـدة قليـلاً، عينـاه مغمضتان وجفنـاه منتفخان كـأنه عجـوز ويـده الصغـيرة الـواضحـة الأصابع مبسوطة على تدويرة صدرها بطمـأنينة الـوداعة التـامة، أمـا جسمه فملتوٍ على بعضه بعضاً في حضنهـا يلوح لَزِجَ الجلد بـارِدَه. ولمعت فجأة عـلى تقويرة جلابيته البيضاء زرقة الخمسـة وخُميسة بخـرزها الصغـير وأصابعهـا المفتوحة على آخرها، والصليب البني المصقول الخشب.

هل قلت شيئاً؟

لا أذكر.

كنت جـالساً عـلى الكنبة الأسـطمبولي المعتـادة في غرفـة فسيحةٍ ودفيئـة وآمنة، وكان المطر يدق بانتظام ويتقطر خيوطاً سائلة نازلة على زجاج النافذة العـريضة المحكم الإغـلاق، وكان في يـدي كـوب شـاي زجـاجُـه سـاخن ويصعد منه بخار خفيف ولكنه لم يكن محرق الطعم بل مقبولاً عـلى اللسان ومنعشاً لأحشائي الجافة.

وكـانت تجلس، أمامي، عـلى شَلّتة مـرمية عـلى الكليم الأسيوطي، وفي حضنها الطفل.

حـدستُ تحت الجلابيـة الكستور المفتـوحة الصـدرِ متانـةَ الجسم القبـطي ولدونَته وانسيابَه راضياً شبعان ومرتاحاً، كأنه من حجر الـديوريت العـريق الحار الداكن الخضرة.

لا بد أنني قلت لها ـ هل قلت لها؟ ـ اسمي، اسمي الحقيقي.
وهل لي اسم حقيقي؟ بل هل لي من اسمٍ أصلاً.
وهل نسيت «قواعد الأمان» والحيطة من الانكشاف؟

لأنها كـانت تحكي لي باطمئنـان وثقة. بـأخوة؟ بـزمالـةٍ خاصـة؟ بانتـماءٍ مشترك مفترَض يأتـي فطرياً تقريباً عندمـا نتعرف عـلى الأسماء المشـتركة؟ أم بذلك النوع من التفاهم الجَسَداني الفوري، ذلك التجاذب الأولي التلقـائي بين امرأةٍ ورجل مهما اختلفت المشارب والمنازع أو تنافرت المصـادر الطبقيـة أو المراجع الثقافية. كأننا ـ في لحظة ـ كنا قد عرفنا أحدنـا الآخر من أزمـانٍ تندّ عن القياس والتاريخ. كنت معهـا أعرف ذلـك الأُنس الجسماني الـدفيء المسلم بـه دون سؤال ودون بحث، تلك الاستثارة الحميمـة التي ليس فيها أدنى توتر ولا أهون طلـب، ذلك الحس الذي لم أعرفه بعد ذلـك إلا هِنيهات لا زمن فيها في بيت الشيرَى اليبانية القادم في الزمان.

كان الولد يرضع من ثديها الصغير الذي يبدو عذرياً، ببراءة كاملة.

قالت لي إنه بعد الغارة الأخيـرة على البِيَـاضَة والـطوربيد الـذي ترك في كوم بكير حفرة دائرية عريضـة امتلأت بـالماء الـراكد الثقيـل فيه لـون الدم الباهت القليل، سافرت أو هاجرتْ عنـد أقارب زوجهـا في دمنهور، قـالت لي إنه نجار على رصيف الفحم في المينا، وقالت إن ميخائيـل وأشارت إليـه بحنو خفي ولا مبالاة ـ أو ربما ما يبدو أنه ضَجَـر قليل ـ وهـو يرضـع، كان

بعافية، جداً. ولكن إدّ لْعَدِي سي شنودة أصر على أن تسافر به بعيداً عن الخطر. وقالت إن الولد، قبل أبو حمص بشوية، بدأ يشهق وكان تنفسه ثقيلاً حتى أنه يا قلب أمه ازرقت شفتاه، وقالت إنها أيقنت أنه سيروح منها، في الطريق، قبل أن يصلوا إلى دمنهور، وإن القطار المزدحم المختنق بالناس كان يمضي في سكته دون أن تعرف هي ماذا تفعل بابنها الذي يموت وقلبها الذي يتدهور ويغور وكان جيرانها في القطار يتصعّبون ويقولون لها أن تبلل شفتيه بقليل من الماء وسمعتهم يهمسون أن سقاية الميّتين ثواب وله أجر عظيم.

قالت إن الولد لم يكن قد تَنَصَّرَ بعد وإنها قالت لنفسها سيموت دون تعميد، ضناي لن يذهب أبداً إلى المَلَكوت ولن يرى وجه المسيح وسيبقى في الظل المعتم على الأبواب بين الجنة والنار إلى أبد الآبدين وإن أبانا فيليبوس من الكنيسة المرقسية كان قد حكى لها الحكاية.

قالت إن يسوع نَوَّر لها قلبها مرة واحدة ولم يكن ما عقدت عليه عزمها منها هي هي، بل من المسيح.

وقالت إنه لم يكن في القطار طبعاً، ماء مُصلٌّ عليه. وليس هناك شيء طاهر إلا، ربما، شيء واحد.

استنجدت بالناس حولها تطلب أي شيء حاد وقاطع، مطواة موسىً، سكيناً، شفرة، أي شيء، فاقترب منها شيخ يعتمر عمامة صغيرة بيضاء كالفل على اللبدة الطرية، قالت لي إنه كان طول الوقت يقرأ القرآن بصوت خفيض كأنه يدعو الله أن يُنجّي الطفل الرضيع، وأخرج من جيب جلبابه الطويل جِراباً فيه موسى حادة وقال لها خذي يابنتي باسم الله، على خِيرة الله، قالت إنها خلعت عنه الجلابية والفانلة واللباس والشراب جميعاً في وسط زحمة الناس في القطار واحتضنته عارياً تماماً. ودون تردد لحظة واحدة جرحت ثديها وعندما تقطر الدم رشت على وجه ميخائيل قطرات

منه وهي ترسم عليه الصليب وتهمس له: عمدتك باسم الأب والابن والروح. عمدتك باسم المسيح معمودية كاملة يا ميخائيل يابن بطني يابن شنودة النجار. يا رب خلِّ جسمي طاهر الدم واللبن وكل حاجة فيه طاهرة طاهرة يا رب خلِّه مستحقّ النعمة واجحد عنه الشيطان وطهِّر روحه وجسمه من كل شرٍّ وكل خطيّة. مولود من جديد يا ميخائيل يا بن نجيّة يا بن شنودة يا بن المسيح له المجد والقوة والملكوت أبد الآبدين. ومسحت رأسه بنقطة دم ونقطة لبن.

قالت إن الولد قد هدأ واستراح بعد أن ألبسته وأخذته مرة أخرى إلى حضنها وإن الجرح على ثديها قد برىء بمجرّد أن غطّته عن أعين الناظرين، وأنّ الولد قد برىء بمجرّد أن راح في نوم عميق.

ثم قالت إن الحكاية كلها قد مضت وانقضت وإن زجة الهجرة والبعد عن البيت والعودة بعد شهور للإسكندرية شغلت بالها وإن فرحتها بشفاء الولد أنستها تماماً كل ما حدث في القطار، هكذا، حكمة ربنا، ولكي يُظهِر لنا مجده.

قالت إنه في أحد التّناصير ذهبت به ومعها أبوه وأقرباؤهم إلى الكنيسة المرقسية الكبرى لتعميد ميخائيل تعميداً صحيحاً. وفي وسط صريخ الأطفال وترانيم الشمامسة وموسيقى الصنوج وضرب النواقيس والتراتيل القبطية والعربية وتهليل الشعب وتبريك القسيس وهو يُغَطِّس المُعَمَّدين في الماء المقدس واحداً بعد واحد بالترتيب، جاء دورها وتقدمت بالولد إلى أبينا وهو يهم بأن يُغطِّسه في الجُرْن الرخامي الكبير. توقف أبونا فيليبوس وشُلت يداه فجأة وهتف: يا يسوع. لك المجد والقوة والملكوت إلى أبد الآبدين.

لم يكن في المعمودية قطرة ماء.

الجرن العميق الذي كان مترقرقاً بالماء المقدس منذ لحظة والذي تعمد فيه، في التو والحال، أكثر من عشرين طفلاً، كان خالياً لامعاً تام الجفاف.

نظر أبونا فيليبوس إليها وإلى الولد، بصرامة أبوية، برحمةٍ قاسية وقال:

ـ إيه الحكاية يابنتي؟ الولدْ مِتْلبِّسْ بالشيطان. طَبّ هُوَّ بِريء بَلاّ خطيّة. ما تكونيش أنتِ خاطْية يابنتي؟ ربنا كبير ومحبة المسيح من غير حدود.

عندئذ فقط، قالت لي، أدركت ما حدث. وقالت للقسيس عن الحكاية كلها.

كان الولد قد تعمد بالفعل، وأصبح مؤهلاً للملكوت، بدم ثديها ولبنه.

مسح أبونا فيليبوس على رأس الولد بمسحة زيت الميرون وقال:

ـ مبارك باسم الرب. روحي يابنتي صلِّي. معجزات يسوع من غير نهاية. روُحي يابنتي صلِّي. معاكو بركة المسيح. الولد جاحِد الشيطان ومعاه قوة يسوع.

كنت أرى ضوء الشموع يهتز حول جرن المعمودية الرخامي وأسمع التسابيح الهللويا والهُوشَّانا في فرح الإيمان وبهجةِ المعجزة وقد عاد الماء المبارك ببطء، وحده، من غير أن يصبه أحد، من غير أن يأتي من أي مصدر منظور، يصعد في الجرن المصمت الرخام.

وكأنما قلت لنفسي إنني كنت أنا أيضاً أؤمن، ولا أصدِّق.

عندئذ فقط رأيت أن ثديها الأسمر الغض كان في فم ابنها طول الوقت يمصه بصوت مسموع ونهم راضٍ مستريح، وهي تسنده إلى حضنها وترضعه بحركة فطرية ليس فيها أدنى شبقية، وكلها شهوية مع ذلك، ورأيت ثم ندبة طولية رقيقة على استدارة النهد الطرية، أكثر بياضاً، قليلاً، من لون الجلد الخمري الناعم المشدود. وأثارني الصليب الذهبي الدقيق النائم على الوهدة الخفية من منبت النهدين.

كان النداء يأتيني من الخارج: «نواعم يا غُـرَيِّبَةَ.» وكـانت الغرفـة دفيئة وخمة نصف معتمة نصف منيرة تهتز الظلال فيها في أول الصبح الباكر الغابر الحاضر والمطر يتقطر على خشب الضلف المواربة بصوت رتيب واضح البلل، وكانت أمي نائمة ما زالت، ولم يكن أبي هناك، فأين كان؟ هل كان محبوساً في تلك القضية التي لم أعرف عنها إلا بعد موته؟ وهل كانت أختي عايدة هي التي تضمها أمي إلى صدرها، رضيعاً ما زالت، دقيقة الجسم وسمراء مغضنة الوجه وأحبها منذ شهورها الأولى؟ هل كنت صغيراً إلى ذلك الحد؟ كم؟ ثلاث سنين؟ أممكن؟ أم أن تخاييل الذاكرة الطفلية تلعب بي؟ طعم «الغُرَيِّبَة» الحلو الدسم وهي تذوب في فمي وتملؤه بلدونةٍ لبنية وعجينية متماسكة وفيها ذرات محسوسة من الدقيق المسكّر المحمّص المخبوز المعطّر بماء الورد.

كنت أضع الكرسي وأشبّ فوقه لكي تطول أصابعي صفيحةَ التوفي وكراملة نادلر التي خبأتها أمي فوق سطح الدولاب العالي بجانب اللحاف والمخدات المخصصة لضيوفنا الذين يأتون من الصعيد، وكان ورقها الأزرق ملتصقاً بدوران صفيحها، ملوناً، وعليه صورة كومةٍ منهارة متراكمة من الحلوى الكروية والمستطيلة والمضلعة الجوانب حمراء وصفراء وصهباء ونصف شفافة مشبعة بالبياض فإذا نالتها أصابعي جذبتها بخرص وفتحت الغطاء، وأنا ما زلت على الكرسي، واسْتَرَقْتُ قطعتين وقاومت الثالثة حتى لا تنكشف الجريمة التي كنت ـ على طهرانيّتي ومسيحيتي ـ أنسى أنها جريمة أصلاً، تأرجح الكرسي تحتي واهتز وأحسست الأرض ترتفع إليّ فجأة بسرعة خارقة وتصطدم برأسي وكان لصوت الصدمة هديد كأن العالم ينقضّ. ولكني على الفور نهضت دون أن أعبأ بالدوار ولا الألم، وأعدت الأمور إلى نصابها، ولم أنسَ غنيمتي من الحلاوة. فهل كانت الحلاوة دائماً غالية الثمن، وعذوبتها لا تتأتّى إلا من امتناعها ومَنَعَتها؟

ـ أنا محمد محمود ياكَبُّ؟ إنتَ محمد محمود ياكَبُّ.

ومع الضحك والتهليل الذي كان الولد يتطلبه أيضاً، فقد كانت نسبته إلى صاحب اليد الحديدية إهانة لا يقبلها إذ يشبّ في بيت يتقاسمه الولاء لمصطفى النحاس من ناحية، ومصر الفتاة أو البرنس عباس حليم من ناحية أخرى.

كان أبي هو الوفدي العريق أما أخوالي يونان وناثان وسوريال فهم المحدَثون المتشيعون للجديد.

أما الولد فيرفض بكل جد ودون أدنى تنازل أن يُشبَّه بالديكتاتور.

كان الثعبان الشيخ ـ شيخ الثعابين ـ ينزلق ببطء على أرض الفَسحة الترابية الواسعة التي يدور في قلبها السلّم الخشبي العريض القديم.

وكان ينظر إليَّ بثقةٍ واطمئنان ودون لهفة، عيناه لا تطرفان وهو يتلوى على الأرض التي جفّت الآن وتشقّقت، هادئاً ينسال بجسمه المدوّر السميك الملفوف، لا ينتهي انسيابه على الأرض، متجهاً دون عجلة إلى جحره الواضح المعمور تحت الحائط الحجري العتيق.

احتميت بجسم العربة الكارو العالية ذات البطن المكور العميق معلقاً بين عجلتين هائلتين ترتفعان شاهقتين وضخمتين جداً، وكان الحصان الذي دفن خطمه الطويل الجسيم في مخلاة العلف يحمحم بشدة ويزفر بغضب.

كان الثعبان قد انزلق بهدوء وسلام، اختار مساره على التراب بتؤدة، صاحب البيت ونحن جميعاً غرباء، يحتملنا ويقبل حضورنا الذي يعرف أنه حضور عرضيّ وعابر إلى زوال.

وكان الفم الذي يرضع لبن الحزن والغضب من النهد الخَشِن، ظامئاً ـ وما زال ـ إلى اللبن والخمر والدم النقي الطَهور.

الكوبْرا المَلِكة الناشرة جناحيها في حنان. عصيرُ النهدين سُلافةٌ قاتلة هي ثمن الألوهية وسمّ الخلود.

في عينيها نظرة زجاجية مكحولة إلى الأبد وثابتة محفورة على الحدقتين.

كنا نذهب ليلة العيد أنا وأختي عايدة إلى الفرن في شارع ١٢ نستعجل صواني الكحك والبسكوت والغُرَيِّبة، ونقول للفران إن أمي تسلم عليك وتقول لك إننا لن نرجع إلا ومعنا صبي الفرن وعلى رأسه الصواني الممتلئة الفوّاحة بعطر الطِيب السخن الطالع من النار. ويشخط فينا الفران نصف جاد نصف عارف أننا لن نمشي إلا ومعنا غنيمة العيد ووعوده، سعيداً هو أيضاً بعيدنا نصف فَرِح لفرحنا ونصف راضٍ بما يشخلل في جيبه من فضة العيد.

نلعب قليلاً، إلى أن تنضج صوانينا، في الفرن الفسيح الدافىء الممتلىء بشوالات الدقيق المرصوصة في الظلمة الداخلية للفرن بعيداً عن الفوهة المشتعلة التي تئز فيها النار أزيزاً متراوح النغمة لا يخيف وإن كان يهز القالب، أكوام الشوالات طرية تضغط على بعضها بعضاً فتنبعج حناياها قليلاً بنعومة. والترام في الشارع يصلصل بهيجاً ومنيراً وخالياً تقريباً، وكنا نتكلم كالكبار ونحكي الكثير.

ماذا كنا نقول؟ أية حكايات تلك التي كانت تشغلنا وتهمنا وتثير روحنا؟

أي صفاءٍ للروح الصغيرة التي ما زالت تغمرني وتحفزني بالأشواق. الصفاء الذي أبحث عنه طول العمر أجده ويفلت مني باستمرار.

كانت نظرتها طويلة متأملة. ماذا كنت أقول؟ تلك النظرة النسائية الخاصة التي لا يعرف مغزاها إلا الرجال. قالت؟

ـ إطّمن يا خويا. إنت وصاحبك في نِنّ عينيّ الاتنين من جُوّة. بَسّ

خِلّوا بالكم برضو. وربنا معاكم. ربنا يباركّكم. مانـا وشنودة والحتـة كلها عارفة. ولا فيه حَدّ حيقدر يِهوّب ناحيتكم يا خويا. ربنا ينوّلكُم مقـاصدكم ويُنصر بلدنا على من يِعاديه.

ماذا كانت تريد أن تقول؟ هل كانوا كلهم يعرفون؟ وكانوا، كلهم، إلى هذا الحد حريصين علينا، وهم حقاً لنا الحماية والأمن المكين؟

لم أقل شيئاً. فهل كان صمتي، وحده، خيانة، واعترافاً؟

كان صوت الشيخ رفعت في رمضان طفولتي يترقرق من صناديق الـراديو الكبيرة ذات العين الواسعة المنيرة، في الدكاكين والقهاوي والبيوت المفتوحةِ الشبابيك قبل مدفع الإفطار، صـوتاً سلسـالاً وجيلاً ومُنـذِراً، بحزن، من عذابات الخيانات والكفران بالنعيم، بطريرك آخر وهو، هـو نفسه، صـوته أبـويٌ وعجوز وحنـون ومتعب من عبء الرحمة للخـاطئـين، ومـع وجـع الإيمـان يقبل صرامـةَ العذاب الحق المُحيق. هـذا العطف والحـزن الربّـاني الشفيق الذي يملأ عليّ شوارع طفولتي وهواجسهـا وآمالهـا في غيظ العنب، أين هي الآن مني؟ وهـل أستطيع أبداً أن أبتعث من جـديد هـذه الجنّات الواعدة البعيـدة مفتوحـة الأبواب عن كـرماتهـا وموصـدة في وجهي إلى أبد الآبدين؟ وهذه الأشجار المثقلة برمـان اللبن العسل والمرّ، والخمر الصهباء التي يشعشعها لي أبي بماء حُنوّه ومحبته ويسقيني، وأنـا طفل غـرير، فوانيس الغاز المضلعة الزجاج متّقدة أشعلها لنـا عفريت الليـل بعصاه الـطويلة التي يطقطق شَرَرُها، ثم مضى في مملكـة ليله التي لا نعرف لهـا حدوداً. من أين جـاء؟ وإلى أين يمضي ويترك لنـا حبّاتِ النـور، فاكهتـه المهتزة الفضـة عـلى شوارعنا الناعمة الغامضة الـتراب، أين هي؟ والبيت الخفيض جنب بيتنا، من دورين فقط، مقفـل دائـماً وغـريب ولكننـا نعـرف أنـه معمـور. نحس الحركة الخفيّة فيه ولا نرى سكانه أبداً، نـوافذه لا تنفتـح ولا يبوح بـأسراره قط. دائـماً مكنون عـلى بحيراتـه الشاسعـة الخفية السـاكنةِ المـاء وعلى أهـل

مملكته البنات الطيور اللاتي يأتين مرّة واحدة كل عام ويخلعن ريشهن فإذا هن الحور الخُود لا مثيل لجمالهن في الأرضِين. أين ذهبت البنات؟

قوة حضور الذِكْر تنقض القلب.

كل الآفاق التي طاف بها الحلم ولم تكن قط مواقع للأقدام. الشطوط الفسيحةِ الرمال على مياهٍ ساجية عذبة لا نهلت منها ولا رددت نفسي عنها، والبحار التي لم تَطْفُ عليها أشرعتي حتى لو هبت بها رياح أشواقي، والشوارع المبلّطة بالحصى المدوّر في القرى السحرية المستكنة بين المروج الخضر تحت شعاب الجبال وعلى سفوح المراعي تجري فيها قنواتٌ وجداول شفافة ثلجية الماء والأعمدة الضخام مكسورة الأضلاع أحجارها الهائلة يترعرع على خشونتها عشب الربيع النضير لا يعيش إلا قلائل الأيام، أنقاض لا تندثر وقوة الزمن لا تكسرها. فاضت نفسي، ولم تُشْفَ، بحب لا أدري ماذا أفعل به، ولا ماذا تفعلين.

كان المطر يسقط بلا انقطاع على خشب الشباك الذي يشبه المشربيات، له وقع متصل رتيب، طوال الأيام الستة الماضية.

أما الشوارع الراقية في الرمل وحول ملعب الملك وفي الحي اليوناني فقد كانت نظيفة تلمع ولخرير الماء المتدفق صوت بهيج، أما الحواري التي أخوض فيها إلى الربع القديم في بحري ثم إلى بيتنا في راغب باشا فقد كانت بركاً موحلة وما زال الطين فيها ملبّداً وشكله شرير.

رخام متسايل يبضّ بعربدة اللحم الشبقيّ أعمدة تميد بها الصخور ويسندها ظلام القلب العنيد كثافةُ العصائر الجسدانية تنزّ من شرخ الحب العريق وما زالت التيجان المرمرية المكللة بأغصان العنب الحجري تسقيها خمرُ الكروم المكنوزة أبداً لا تسيل تواجه الأفق بصمت وتُسائله بصمت صروحاً تتحدى السنوات والحِقب والدهور ولا يعنو بها زلزال الإنكار

تكسرت نفسي معكِ على سلّم الرخام الأسود المستدير وأنت تتعثرين في شبّاك الرفض قويةِ الخيوط غير مرئية ذراعك في يدي نحيلة غصناً مورقاً رقيق العظام كما هي دائماً في حلمي لم أكن قد قبضت عليها قط وعلى طول العمر جرأة التقارب بينهما ليست غير مألوفة الحلم هو الحقيقة الوحيدة في عرفاني والحلم لم يحدث قط قلتِ دعني دعني الآن وجهكِ فاكهة مضرجة بدم الشجاعة هل كان أيضاً دم الحلم الذي لم يُسْفَك قط سوائلُ الغضب المحسوبة الانسكاب تطيح بالحبوس مرارتها لا تطاق أصابعي وحدها من غير إرادتي تزيح خصلة من الشعر عن تاج الجبهة الناصعة مَسّ الشعر الخصيب واندفاق الدم في شرايين الشوق المفتوحة حتى الآن يدي ورقةُ شجر خفيفة النسيج أسقطتها أصابع الشتاء متقبضة الأصابع على سماء مستغلقة أدحصها ولا تموت في العتمة المحيقة ليس إلا نورٌ يحيط برخام وجهك المكسور وجسدك القائم شامخاً ومليئاً رغم الانحدار طقوس النَكْث وإقرار الإيمان مرة بعد مرة بلا انتهاء كل صبح وكل مساء وصوتك مِنحةٌ وذبيحة.

من ثلاث سنين لم أكن قد عرفت بعد أن أبي قد مات فجأة في ليلةِ ديسمبر القارصة البرد ولا أن كل مورد للرزق قد انقطع فجأة ولا أن الجوع حرفياً كان مهدِّداً ومائلاً ولم أكن قد عرفت بعد كيف تلطَّمْت في تعليم الأولاد الصغار في بيوتهم ألف باء الإنجليزية ومبادىء الحساب ولا كيف طرقتُ الأبواب وكتبتُ الطلبات بحثاً عن لقمة العيش لي ولأمي وأخواتي الأربع ولا كيف اشتغلت بعد ذلك وفي الحلق غصّة لا تزول مع الإنجليز الذين كنت أمقت عساكرهم وفحشهم في البلد في ١٩٤٢ كنت ما زلت في أولى سنوات الجامعة وأظن نفسي شاعراً وعاشقاً وأُحِب نوريس فخري الفخور الشامخة الصدر وأموت من المرارة والوجد في ظلام الوحدة وراحتها السرية دون أن أقول لها أو لأحدٍ كلمةً واحدة. كنت رومانسياً أعرف شيلي

وكيتس وناجي وابن زيدون ولا أعرف من التِّنِّين إلا ذهبه الأصفر الساطع في القلب مُخايِلاً في المستقبل المنذثر البعيد. وبالمناسبة اشترى لي أبي بدلة «شاركْ سْكين» بيضاء تتموج نصاعتها الحريرية المنسدلة بإنسجام وكرافته حمراء منقَّطة بالأبيض وجزمة بيضاء على بُني ذات نعل كريب عال ومريح وطري ينزل بي قليلاً عندما أخطو على الأرض كأنها خف جمل ولم أكن قد عرفت بعد أنه قد مات في آخر هذه السنة.

كان روميل قد توقف في العلمين ولكننا كنا قد مللنا الهجرة إلى أخميم ودمنهور والطرانة، وقلنا سنبقى في الإسكندرية، خلاص، مهما كان الخطر، ربنا كبير، وكنت أمقت الألمان كما أمقت الإنجليز سواء وقلت هم في البلاء سواء. في السادسة عشرة كنت صاحياً وليبرالياً ونباتياً ومن عشاق روسو وقُصيري والسيرياليين ولم أكن كبير الاهتمام بأخطر الأحداث في آخر هذا النصف الأول من القرن العشرين، كنت فقط قد حزنت جداً لسقوط باريس التي أحببتها من كتب أناتول فرانس وزكي مبارك ومحمد الصاوي محمد وموباسان وكنت أحلم أن أعيش فيها معنى المعرفة والحرية ولم أعرفها قط إلا بعد اكتمال العمر زائراً مشغوفاً يرثي أحلام صباه.

كان الإنجليز قد انسحبوا من ثكنات مصطفى باشا. تركوا فيها قوةً رمزية وكانت أعمدة الدخان قد توقفت عن الصعود من القنصلية البريطانية المبنية كالقلعة على ربوة عالية بازاء محطة الرمل قبل المستشفى الأميري.

ومع ذلك فقد كانت بنات الـ A.T.S. يتخطَّرن على الكورنيش الخالي في قمصانهن البيضاء الناصعة والكرافتات الصغيرة الأنيقة والجيبات الكحلي المحبوكة على الأرداف الرشيقة، ينزلن الدرجات القلائل إلى الشط الرمليّ النظيف الخاوي وإلى الكباين المخصصة لهن فقط في شاطىء مصطفى باشا يحرسها البكيت المسلح يمنعون حتى اقترابنا من السور الحديدي الذي نصبت عليه أسلاك شائكة متقاطعة. البكيت بالبيريه الأحمر وعلى ذراعه

الشريط الأحمر المكتوب عليه بالأبيض .M. P يلوّح لنا بمدفعه الصغير، بصفاقة وبرود، دون أن يقول شيئاً ونحن نلمح الأجسام البيضاء المشوقة الشاهقة البنيان والمايوهات الداكنة المصروفة - تعيين - من مخازن الجيش أو البحرية أو الطيران، تلمع في شمس ظهر الإسكندرية الشتوي وهن يغبن في البحر المضطرب دائماً بالزَّبَد والموج المتقلب في هذه البقعة بالذات.

دعاني صديقي أحمد صبري الرسام لقضاء العصرية في بيتهم الصيفي - قصرهم في الحقيقة - في العامرية. كانوا من أصل تركي أو شركسي وأغنياء جداً أصحاب أراضٍ واسعة في البحيرة والصعيد. ونزلت من قطار خط العامرية الممتلىء بالعساكر الذاهبين إلى الجبهة، يجر عربات البضاعة المكشوفة وعليها الدبابات الصغيرة الحجم والمصفحات ذات المدافع الرفيعة الفوهات واللوريات العسكرية المرتفعة الجوانب المغطاة بالمشمع الأسود.

كان الإنجليز قد أقاموا معسكراً لهم في العامرية والملاحة تترقرق بموج رصاصيّ مُحَمّرّ في العصر وقصور السراب عند الأفق تتخايل كأنها قائمة في السحاب والشمس وراءه تصب عليها ذهبها الباهت القديم. الخيام البيضاء الصغيرة صفوفاً وراء صفوف منتظمة ذاهبة إلى مسافة بعيدة في الصحراء، أقيمت على الأرض العالية الرملية من وراء قضبان السكة الحديد ومن غير سور يحيطها ولا حرس ولا شيء، والعساكر على السرر النقّالة خارج الخيام يقرأون كتبهم ومجلاتهم بهدوء في نور النهار أو أنصاف عرايا يحلقون ذقونهم - ربما لتزجية الوقت فقط - على مرايا يدوية، أو متمددين فقط لا يفعلون شيئاً وينظرون إلى السماء. التفت إليّ ولدٌ منهم لا يزيد عني في العمر إلا قليلاً ونظر إلى البدلة الشاركسين اللامعة البيضاء والجزمة الكريب المُبَيَّضة بعناية، بما خيل إليّ أنه قليل من السخرية والاستهانة والحسد، ربما، نظرة المسافر بعيداً من غير رجعة، ربما، إلى المُقيم الكسول، وفي الدنيا كلها فجأة بعد رحيل القطار البطيء هدوء العصر

الشامل والصمت الذي تؤكده أصوات المعسكر القليلة الخافتة في الخلاء، والريح الملحية تهب ويتموج لها سطح الملاحة الشاسعة بمويجات صغيرة. ومع حسّي بأن معظم هؤلاء الصبيان سوف يذهبون لمقابلة الموت الوشيك وأنهم كانوا يعرفون أنهم أولاد الموت فلم أستطع أن أرفع يداً بالتحية الصامتة التي تصورت أنها رغم كل شيء من حقهم. ألم أقل إنني كنت رومانسياً وصبيانيّ القلب؟

وعلى الجانب الآخر من السكة الحديد كانت خيام البدو غير بعيدة، منخفضة الفتحات وسوداء معمولة من جلود المعيز الداكنة شعرها أشعث ملبَّد وناصل عند الأركان، وعند معاقد الأوتاد الصغيرة المشدودة بحبال رفيعة بين الأرض والخيام، وقد وقفتْ بضع جمال واطئة ولكنها كبيرة السنم تجتر عند بقايا الكوانين التي ما زال جمرها محمراً يتصاعد البخار من قدور سوداء منتفخة البطن منصوبة عليها، والمعيز تتجول ببطء تقضم حرشات النباتات الشوكية الجافة. ولم يكن هناك أحد.

بتّ ليلتها في سراي صديقي أحمد صبري ورجعنا في اليوم التالي بسيارتهم الباكار يقودها السائق بالكاب والزي الرسمي، وعندما درنا حول جانب المعسكر رأيت صفوفاً من اللوريات الضخمة المهملة مغطاة بتراب الصحراء فوانيسها مكسورة ونوافذها مسدودة بالكرتون وأرقام لوحاتها المعدنية ممسوحة، وبجانبها مصفحات صغيرة صفراء مائلة على جنوبها، فتحاتها الأماميّة أفقية ضيِّقة، يبدو زجاجها أسود اللون تومض عليه انعكاسات أشعة الشمس بدداً، وسلاسل عجلاتها الحديدية مفكوكة مرخية على الرمل ويعضها عليه شِباك التمويه الخضراء المقطّعة الخيوط. وانتبهت لأول مرة إلى المدافع المنصوبة على قواعد خرسانية مربعة وأفواهها مسدودة بما يشبه الأكمام اللاصقة أو الطواقي المحبوكة الاستدارة بالمطاط والمعمولة من المشمع الأسود اللامع بزيت التشحيم، وبجانبها صناديق خشبية

مرصوصة بنظام دقيق وعليها حروف وأرقام كبيرة بالأسود على لحم الخشب العاري.

وعدنا - كما لا أني أعود - إلى الإسكندرية.
شطّ إسكندرية يا شطّ الهوىٰ.
أهل إسكندرية رمانا الهوىٰ.
شطّ إسكندرية. . .

يتعامل الواحد مع التخاييل التي تغتصب لنفسها وجه الذكريات ويزورّ عن الواقع فكأنه يعاني الواقع ولكنه لا يتناول إلا جسد الحلم لُقَي الحلم غير معدودة وتفلت كلها من بين الأصابع المشعوفة فما قيمة الدموع المذروفة لكل الحزانىٰ والمقهورين الأحياء منهم والأموات بلا تبرير وثم توق رومانسيّ معكوس إلى الموت وإيمان به مع الترحيب والانتظار بل دعوة ونداء بأن يجيء قريباً جداً عند المنعطف التالي نوازع الخلود سِنان حادة تنخس الفِلذة النابضة ولا همود هناك وعقود اليشْبّ والعقيق والمرجان تلتف للأفخاذ والسيقان أفعوانات بازيليقية وأسماك الأنقليس ورُقَط الوشق على شاشات الحواسيب المكهربة بخطف الأرقام بالملايين والحروف التي لا يقرأها أحد ما جدوي الرحمة والحب في الخضم الذي يطفو عليه كوكب الأرض مياه التدفّق التي تجرف في سِكّتها العيون والذكور والأرحام المبقورة والمجبوبة والمبتورة الأوصال ينعق الوقواق على ربوات الردفين المكشوفة التي تسوخ بين عواسج العليق العزف على فيولينة الجسد أشرطة نباتات ملتوية وأرجل عنكبوت حريرية ملتفة تنهل من اللبن الأسود الغني الطعم تئزّ به محركات اللوريات الهائلة في طريقها الذي لا يحيد ما الجديد والدماء تهضب سُدى وهدراً في هذا أليمّ الذي آناً فآناً يضربه المحاق والجفاف ثم يمور بالطوفان إذ ينطلق إلى الداخل في عالم الجسم الممزق المطعون وسماديرسَوْسَن المستنقعات نفاذ العطر تفغم أفواه السعادين الظمأى التشوهاتُ المحكومة

والتقلصات المنتشية وأمجاد الموسّانا وتسابيح اللحم النازع نحو الملكوت النهود المضمومة تبضّ من تخريمات الدانتيلا وشبابيك المشربيّات وتقضمها أنياب الوَزَغات والعِرس المنسلة بين غيطان القطن والذرة وعلى تراب السكك الناعم تغوص فيه الأقدام الحافية الغزال المضروب الدمية الأبدية مفتوحة العينين لا تطرفان مصبوغة الشفتين بدماء الفرائس القانية التي لا ترتوي وبعد أن تتعاقب الأحلام وتنهار ولا تني تقوم من جديد في تلاحُقِ شرائح اللحم الممزَّع المشبوح على شواهد الطريق يأتي الخوف بل الفزع المخبوء بعناية من ذلك القاتل العدو الداخلي الذي يسكن الآن في المكامن الحريزة بين الضلوع البيلسان ليس للغريب كما قلت وأنا غريب لا أعرف أن أصل رحمي أين رحمي؟ لا أعرفهم شَقُّ الجمّيز الأحمر جاف على دمه مفتوحٌ أبداً برودةُ الغوص في عالم الجنين بين الأزرق والمُحْمرّ والقلب حمامة صفراء الزجاج الأسود اللامع هو تواطؤٌ سافر على ذُرَي ناطحات فوق شاطىء سيدي بشر المستباح للابتذال اللبلاب يدور يوثّق أنشوطته يعتصر الخصور التي تفيض على كثبان الرمل الموّار والحُب في هذا الخضمّ يصب وينحسر رغبةً شَبَقاً جِساً بالشوق نحو الجسد الآخر نحو الالتصاق المحموم طلباً للنجدة من القمع المحتوم رغوة الكوكاكولا البيضاء تغمر الحريق ولا تُطفىء الأنفاس السُخنة إذ تهب لاهبة تلهث على حصون الحس المتوفز الذي لا مَنَعة فيه بَخُور العندل والدارصيني والمرّ الأحمر أبيضُ النسقِ يَصّاعد في عماية الوهدات العميقة دوائر غير كاملة الاستدارة أبداً ما تني تئِنّ شوقاً للنهاية البداية بلا بدء ولا انتهاء الأحشاءُ مُصوَّحةٌ تحترق وتحرق السَمَنْدر في النار وتطسّ الماة الثعبانُ يمجّ اللبن من فمه المفتوح ليس الآن مدعوّاً للمجيء بل هو مقيم. ميتافيزيقا اللحم تتحدّى الحلول والإجابات.

كانت الساعة الثامنة صباحاً يوم جمعة شاتياً، بهذا التكبير جئت أرى صديقي قاسم إسحق في بيت بَحَري. لم أجده. طرقت باب شقته على

السطح بشدة ولا رد، ووجف قلبي وقلت هل قبض عليه البوليس أخيراً وما العمل الآن.

فتحت لي أم ميخائيل بابها، من تحت، ونادت عليّ:

- يافندي - يافندي - صاحبك مشي إمبارح.

- مشي إزاي؟ كده؟ لوحده؟

قالت:

- ماتخافْش أمال. ديهدي - الرجّالة برضو وصّدوه لِحِدةٌ أول شارع خمستاتر. ومن شنودة شال عنّه الشنطة لغاية المحطة. وقفوا معاه لغاية ما خد الترامواي.

تصورت فجأة الضغوط التي وقعت على صاحب البيت، من ناحية أو أخرى، ربما، وأرغمته على العدول عن اتفاقه معنا وعن الجنيهات الخمسة الغالية أجرة الشقة الصغيرة على السطح.

- لامؤاخذة يا سِيدْنا لَفندي. بقي صلي على كامل النور صليتْ لِي على النبي؟ بقي إحنا برضو ولاد بلد ونعرفوا الأصول. وإحنا نشيلكو في عينينا من جُوَّة يا راجل. لكن بقي العين بصيرة.. وأنت كللك نظر. برضو البيت فيه حريم. آه. وما يخلاش الأمر من كده ولا كده. الحُرمة من دول تطلع تنزل تيجي هنا تروح هنا برضو ما يخلاش. واحنا بقى وِلاد عَرَب، ودمّنا حامي. ما نقبلوش على دمّنا إنه يبقى في البيت طُلَبه.. شباب يعني لوحديهم في البيت مع الحريم. داحنا كُلّ مِن حاله بيدوَّر على المعايش. الجري ورا المعايش صعب يا سيدنا لفندي، والشرف برضو صعب. ما تآخذنيش إحنا ما نقولش حاجة لا سمح الله أبداً والله العظيم موش مُونكّن دحنا رقابينا سَدَّادة وإنتو ولاد أصول آه ما هو الكتاب يتقرا من علوانه، أُمال، لكيني بقي لَحَدِّيةِ العَرض وما نقدروش. طَبْ دا أهل الحتة كَلَت وِشّنا. ما هو ولاد الحرام ما خلّوش، على رأي المثل، وأنت سيد

العارفين، وكُلّيتِ الحتة بكُلِيتْها وحياة سيدي المرسي قالت لغـاية كـده وْلاَّ. إسمـع بقي يا سِيـدْنا لفنـدي، إحنا رجـالة بـرضـو وحنـوصَلوك لَغَيِّـة بـرّ الأمان.

عنـدما سلَّمت علـيَّ لآخر مـرة لحـظت فجـأة الـزرقـةَ النـاصلة في وشم الصليب القبطي المورق الأطراف على رسغها الأسمر الناعم، من الداخل.

كان الولد في حضنها ـ كالأول تماما ـ وكان نهدها في فم الثعبان.

الثعبان هائل الجسم ينبسط له جناحان عـريضان ثـابتان في الهـواء، يثب بسهولة من أعـلى السلم الخشبي الدائـري، تحت نافـذة المنور، جنـاحاه لا يكادان يرفـرفان، حتى يحط عـلى ذروة النخلة العريقـة القائمـة وحدهـا في عتمة الحوش الترابي.

ملامح وجهي مطبوعة على حدقتيْ عينيه الزجاجيتين.

هـل كنت قد قتلتُ أليفتـه الواحِـدانيّة التي مـا تني تُبعث حية، أبمجـرد الإرادة قتلتُها أم بالفعل. وما تني تتكرر بلا انتهاء؟

فهل هي يمكن أبداً أن تموت؟

٨ ـ غزال مضروب على الرمل

اكتشف صديقي أنطوان فجأة أنه مصاب بالسل.

ذهب للطبيب لأن الكحة طالت معه ذلك الشتاء، لا تريد أن تنجاب، ولما عمل أشعة وجد الدكتور أن عنده «نقطة» صغيرة في الرئة اليسرى.

في الصيف تلقيت منه خطاباً، من لبنان، بالفرنسية التي حرص على أن تكون فصيحة وسليمة لغوياً كل السلامة.

«صديقي العزيز

يؤسفني أنني تأخرت في الكتابة إليك. حالتي الروحية والعصبية حالت دون ذلك. لا أستطيع أن أسهب في التفصيلات إذ أن الكتابة، والقراءة أيضاً، ترهقني بسرعة.

صحتي أحسن قليلاً مما كانت عليه في الإسكندرية. والمؤسف أنه تعتريني من آنٍ لآخر كآبة عصبية تُفقدني ما اكتسبته من وزن قليل خلال هذه الأسابيع الطويلة الصَبور.

لا خيار لي للهرب من الماضي ومن الحاضر إلا أحد اثنين إما أن أقلِّب في رصيد الذكريات عن أطياف الطفولة، وهو ما يُلقي بي في غيابه الإحباط والحزن العميق، أو أن أرقب الدقائق والساعات والأيام تنساب ببطء، دون أن أفعل أي شيء، وهو ما يسبب لي كآبة جَهْماً راكدة.

أعزّي نفسي بأنني سأكون معكم في الإسكندرية عما قريب، وخاصة معك أنت يا عزيزي.

آمل ألا تكون كآباتك الخاصة أنت كثيرةَ الانقضاض عليك. وأرجو أن تكتب لي خطاباً طويلاً (بالعربيـة إذا أحببت أو بالانجليـزية). إن خـطابك لن يسعدني فقط بل سوف يشفي قليلاً ظمأي إلى لقائك.

تحياتي إلى كل الأصدقاء ومن جـانبي قُبلتان كبـيرتان إلى ن. . قـل لها إنها توحشني كثيراً واكتبْ لي أخبارها وقبِّلْ لي أيضاً أم دولت واسألها هل فرغتْ من كتابة مذكراتها؟

أرسل لك ألف قبلة وأشد على يديك بقبضة قوية وبحرارة.

أكتبْ لي دون أن تشير إلى حالتي الصحيّـة سـوف أقـول لـك لـماذا، فيـما بعد.

العنوان: «طرف الخواجة شكري ضاهر برمّانا الغابة».

كنت ـ حتى عنـدئـذ ـ محصناً ضـد نغمـة الحب الغـلاميـة التي سـادت رسالته، فقد كنت قد عرفتها منذ سنين ـ وتـأثرت بهـا جداً ـ عنـد صديقي شفيق بسـطوروس راقم، عندمـا هاجـرنا أنـا وأمي وأخـواتي إلى أخيم في ١٩٤٢ بينما ذهب إلى بيت عائلته في صفط الملوك التي كان أبـوه ناظـر محطة السكةالحديد فيها. وكتبنـا إلى أحدنـا الآخر مـا يقارب الخطابات الغـرامية وجاءت خيبة الأمل الضرورية عنـدما تبينتْ بعـد قليل مـدى سطحيـة هذه النغمة وزيفها ـ مع كل حرارتها ـ وقلت له بعد ذلـك إنه كـاذب فيما يتعلق بمجرد سرد الوقائع ولم ينصلح هـذا الشرخ قط خاصـة بعد أن خـذلني مرة خذلاناً أساسياً في محنةٍ أساسية ولعلني بالضرورة قد خذلته، لا أدري، مهما احتفظنا بصداقة عمر أحسستها مع ذلك حَذِرة مشروطة بظروف كثيرة، من الجانبين.

وتقلبت بنا الظروف ـ كالمعتاد ـ وسـافر ثم استقـر في لندن بعـد إصابتـه بـالقلب، وكان يمقت مصر لأنها قبلت عبـد الناصر ومجّـدته وألهّتـه، ويمقت

مصر لأنها رفضت عبد الناصر ولوثته وأدانته، ومقت ناسها وخمولها وتخلفها وفسادها وقذارتها ويحكم عليها بالموت، وقالت لي زوجته إنه يبكي في غرفته وحده شوقاً إلى مصر وعشقاً لها. وعندما رأيته في مهجره العام الماضي عرفت يقيناً أننا بالفعل أصبحنا شيخين فانيين وأحسست عضّة الزمن في قلبي. كانت فيه كل انحيازات الشيوخ لأفكارهم الثابتة، وحركة الشفتين المزمومتين على الأسنان العِيرة والنظرة الغائمة محدقةً أبداً إلى ما فات وإلى مستقبل متوهَّم ومفترض جداً. ولم يبق من فتى الأربعينيات، المَنظراني، المعجباني، إلا الجاكتة المحزّقة ووهم الاستعلاء على العالم للاحتماء من العالم. وظللت أُعزه جداً وأُحلُّه من القلب مكانةً لا بديل منها.

ولكن ما أزعجني قليلاً في خطاب أنطوان هو لهجته في الكلام عن نفسه، وعن نعمتي التي ظلت باقية. الغريب أنني أنسى الآن تماماً هل كانت أم دولت تكتب مذكراتها وإن لم أنس قط خطاباتها الغرامية المكتوبة بلهجة روايات الجيب.

ولم يكن أنطوان يعرف أنني أواعد شقيقته أوديت، ولعله يتجاهل إذا كان يعرف، ولكنه كان يعرف بالتأكيد أنني أزورهم في بيتهم وراء زنقة الستات في المنشية الصُغيِّرة، سواء كان هو في البيت أو لم يكن، وأن أوديت هي التي ينادونها لكي تستقبلني وتؤنسني وكنت أحس أن الأم والأب وأختها آرليت يرون فيَّ خطيباً مضموناً ـ أو يكاد ـ مع أنني كنت شديد الحرص على ألا أتخذ هذا الدور وشديد الحيطة من أن أشير إلى هذا من قريب أو من بعيد، لكنني مع ذلك لم أكن أدحض بحسمٍ تلك التلميحات العابرة البعيدة المرمى التي تُلقَى عادةً في معرض الحديث، أكان من الممكن دحضها صراحة والمغامرة بالقطيعة والجفاء؟ لا أدري.

كنت في ذلك الوقت أحب حباً لا أعرف ـ ولا أريد ـ الخلاص منه ولا الخلوص إليه.

وتزوّجت بعد ذلك بسنوات وأتيت للقاهرة وانقطعت تماماً أخبار أوديت عنيّ، كنت أعرف فقط أنها لم تتزوج. كيف عرفت؟ لا أذكر. وفي مرة كنت في سوق الطويلة في بيروت. وجدت نفسي فجأة وجهاً لوجه أمام أوديت. وقفنا كلانا، نحدق في أحدنا الآخر. لم ننطق بكلمة. نظرت إليّ فقط نظرة لا أنساها. كان وجهها قد شاخ وتجعد ورأيت أمامي امرأة محطّمة ومناضلة ضد الزمن وضد اليأس. ثم استدارت عني فجأة، ومضت. لم أرها قط بعد ذلك ولا بذلتُ أي جهد للسؤال عنها. أين هي الآن؟ كيف هي؟

قسوة القلب أستحقها. لا أنكر أحقيتها.

وبسذاجةٍ صبيانية مستمرة لا أستطيع حتى الآن أن أقبل القسوة المحتومة في الحياة ـ والضرورية ـ ولا أن أسلم بها.

قلت: لم هذا التفجع المستمر على ما فات وانقطع؟ واللّدَد في السؤال عن المصائر الغائبة؟

قلت: ألِأنَّ البحث عن الخلود ـ أو عن الديمومة ـ هو أُسّ رومانسيّتك ورَسيسها الذي لا يزول/

وقلت أيضاً: الوصال والانفصال اللقيا والافتراق، الموت والحياة، كلها وكل ما فيها عوارض، صُدَف، من غير قانون. هذا هو القانون، قانون العَرَض والزوال.

وسألت: لكأن خيوط حياتك كلها جذاذات مقطوعة، مبتوتة، معلقة في الفراغ.

وأجبت: ليس صحيحاً. ليست هذه أقداراً بل إرادات. أفعال من صميم الاختيار.

قلت: فما المشكلة إذن؟

في ذلك الصيف من الخمسينيات الأولى عاد صديقي أنطوان من لبنان ونصحه الدكتور بقضاء أسبوعين في جوٍّ جافٍ وهادىء ونقي.

حجز لنفسه غرفة في فندق صغير إسمه «مون ريبو» في كنجي مربوط، وحجز لي غرفة بجانبه دون أن يقول لي ثم ألحَّ عليَّ أن آخذ إجازة وآتي معه لأدفع عنه وحشات الإكتئاب وهُولاته، أو كما قال.

كنت معه في مكتبه بالمساجيري ماريتيم عندما طلب رقم ٢٣ العامرية وأكَّد الحجز وعرف أن إقامة شخص واحد بغرفة مفردة بالوجبات الثلاث في اليوم ١٤٠ قرشاً: الفطور ١٥ والغداء ٤٠ والعشاء ٤٥ والمبيت ٤٠ وأن الوصول بالأوتوبيس ١٥ إسكندرية ـ عامرية من محطة الرمل. لم يكن عندئذ قد اشترى بعد سيارته الستروين المستعملة التي سافرنا بها مرة للقاهرة بالطريق الصحراوي وقطعنا المسافة في ساعتين إلا خمس دقائق حتى ميدان الجيزة الريفيّ الشكل.

قالت لي أمي: خلِ بالك دا سُلّ يا بنْي. إحنا مالناش غيرك طَبْ هوّ عنده أبوه وأخواته ربنا يخليهمْ لُه وبيكسبو وكويسين. إحنا لنا مين غيرك وغير ربنا؟

كانت تعرف أنه لا جدوى في أن تحاول أن تثنيني عن عزمي.

قلت لها: ولا يهمك ما تخافيش.

قالت: «حارسك حارس اسرائيل لا يغفل ولا ينام».

قلت لها ضاحكاً وغاضباً: ما بلاش حكاية اسرائيل دي.

فلم تفهم لماذا ضحكت ولماذا غضبت.

نزلنا من الأوتوبيس الذي كان نصف خال، في مغربِ يوم سبت. كان العرب القلائل بالبرانس والصديريات المفتوحة واللباسات الضيقة الرِجْلين كلها من النسيج الأبيض المصفر قليلاً، ونساؤهم بملابسهن الثقيلة

ووشمهن الثقيل على الذقون وكحلهن الثقيل في العيون وحليهن الثقيلة المُصلصِلة وهن ـ لا رجالهن ـ يحملن ويهبدن الأعكام والأعدال والقفف والأحمال، قد نزلوا على مدى الطريق في غير محطاتٍ واضحة يهتف أحدهم «وَجِّفْ يا معلّم وَجِّفْ» فيقف السوّاق طائعاً وصامتاً وكأنه هو أيضاً يعرف المضارب والمواقف، على أنها متحرِّكة ومتغيِّرة حسب المواسم والتساهيل.

كنت أعرف هذا الفندق الصغير، أتينا كثيراً لقضاء سحابة النهار والعودة على العصر. وفي هذا الموسم كان هواة صيد العصافير الدوري والشحرور والسمّان أيضاً يقضون نهاية الأسبوع السبت والأحد ويتيقظون في الفجر ليطلقوا الرش من بنادقهم الطويلة اللامعة، على الأغصان الأثيثة في الجنينة الواسعة.

وكنت قد جئت في رحلةٍ مع الشركة وكان معنا فيليب نخلة وخطيبته اليوغوسلافية جانين بيركوفيتش وصاحِبه توماس الأبيضاني أبو كرش صغير، وصديقي سليم أندراوس وإيفيت ساسون وسعاد السماحي ومادلين وأختها ميريام، وستيفو وايفون وماريه، وأخذنا الصور الفوتغرافية التقليدية وباعتها لنا العلاقات العامة في الشركة بنصف ثمن التكلفة، وكنا ننظر فيها إلى الكاميرا بثبات، لحظة خلود ورقيٍّ لامع السطح، وركبنا حمير البدو الصغيرة الحجم كل سنة وأنت طيب يا مسيو كل سنة وأنتِ طيبة يا مدام وخرجنا بها ندور حول الفندق والجنينة بقرشين الواحد كل نصف ساعة، غالي لكن معلهش النهارده فانطازية، وأوجعتني عظام الحمار الناتئة وتوجست من البراغيث المُحتمَلة الكامنة في البردعة السميكة المبطّنة بقماش البطاطين المستهلكة، وفي الأحزمة الصوف الملونة والمخططة، وركبنا المراجيح ورأيت سقف الفنادق، وأنا فوق، حجرياً وخشناً يهبط تحتي وأنا أرتفع على المرجيحة أقطع السماء ثم يرتفع إلى مكانه من جديد وأنقاض الحجر والخشب التي تظهر لي لأول مرة تحت جدار المطبخ بينها الدخان

يصعد ببطء من المدخنة الحديدية السوداء الطويلة، وسرقنا عناقيد العنب الذي لم ينضج تماماً ومصصنا العنب بعيداً عن أعين مدام أولريخ التي ظلت تنظر إلينا بشكٍ وقلق عندما عدنا أبرياء العيون طاهري الأيدي. ولعبنا استغماية بشرط ألا ندخل الصالة ولا غرف الفندق وأن نجري فقط نختبىء بين الشجر والمساقي والكروم وخلف السور.

على الباب جاء يستقبلنا عم بشير النوبي العجوز المقدد الصلب العود، بعمامته البيضاء الكبيرة وجلابيته الصوف الرمادي الطويلة، كان الجو في أول الليل قد بدأ يبرد وإن كان هواء الصحراء الجاف يهب ما زالت فيه حرارة النهار.

لمحت السيارة الجيب المكشوفة تنطلق من وراء الباب الخلفي للفندق، وتهرس الطريق نصف الرملي نصف الحجري وتثير تحت عجلاتها المتينة سحابةً مغبرّة مختلطة ببقايا ورق الشجر الجاف المتطاير، ومحركها يئز بصوته الخشن يستبيح صمت الصحراء الساجية. ولمحت ظهر الجاكتة الجلد السوداء المرمية بإهمال على ظهرٍ رياضي مكين وياقته المفتوحة عن رقبة غليظة والشارب الأسود الكثيف على طريقة ستالين ونصف الوجه الغامق المنحوت، وبجانبه قريباً منه جداً على المقعد الجلدي المكشوف فتى رقيق الملامح أبيض الجلد. وسرعان ما رأيت خطاً متصلاً من الرمال التي تثور تحت العجلات القوية المتوغلة في البراح الصحراوي.

قال عم بشير: مُرسي بيه وصاحبه حمودة، طالعين يشوفوا منام الغزال.

استغربتُ الكلمة قليلاً ولم أفهمها تماماً ولم أستفهم.

جاء فرج، ولد سفروت قد البِلْية، فحمل الشنطتين الكبيرتين واحدةً على كتفه ناءت به والأخرى في ذراعه يكاد هو والشنط يصنعون شيئاً واحداً متقارب الأبعاد متداغماً يتحرك بنشاط بكُتَله الثلاث المتداخلة.

كان للفندق الصغير (إحدى عشرة غرفة ودور أرضي فقط) شرفة تطل على الصحراء، تحميها واجهة زجاجية من ألواح طولية سميكة الزجاج، بمفصلات، وعندما جلسنا فيها نأخذ الشاي بعد العشاء كان ليل الصحراء أمامنا غامضاً، أحسه ممتداً فوق الرمال، إلى بعيد، ذُبالات نور صغيرة وصفراء ترتعش وتختفي وتبدو من جديد، إبَراً رقيقة مُشِعّة لا أستطيع أن أحدد لها موقعاً أو معنى. كانت وحشة الصحراء كاملة في أول هذا الليل، ليس في الفندق إلا راديو ضخم قديم له عين كهربية خضراء مستديرة، يوشوش بخفوتٍ في الصالون الداخلي المعتم لا نكاد نسمعه بل يزيد من ثقل الصمت.

كانت مدام أوليخ صاحبة الفندق سويسرية الأصل تنصت إلى الراديو، بيضاء دقيقة منمنمة الجسم، مَحنيَّة في الفوتي الضخم المكسو بكريتون مشجَّر وبجانبها المائدة الصغيرة المغطاة بالمجَّلات المصورة القديمة الإيماج والإليستراسيون والروايات البوليسية صفراء الأغلفة بالأنجليزية والفرنسية.

كانت مدام أوليخ قد حكت لنا، أثناء زياراتنا السابقة، أنها جاءت مصر أيام «الحرب الكبيرة» مع زوجها الذي اختار هذا الموقع الموحش وسط الصحراء الشاسعة وحَفَر بئراً أرتوازية تدير الريح عجلتها الهوائية الضخمة وزرع الحديقة الخلفية ومات بلغم قديم عندما كان يصطاد في عرض الصحراء. قالت إنها عقدت عزمها على البقاء وزَعَت الحديقة حتى أصبحت الآن أثيثة محتشدة.

كنا نحسها الليلة مظلمة وكثيفة بكروم العنب وأشجار التين التي كبرت وغلظت سيقانها الآن وأشجار الزيتون المعكِّرة والنبق والجميز والتوت، أما الواجهة الزجاجية فقد كانت الرمال أمامها مفتوحة ونقية وعذراء.

أخلدنا للصمت وأسلمنا أنفسنا للصحراء السرِّية المتملكة. لم نحس أننا معزولون ولا منفيّون.

وعلى الأنوار الخافتة العالية، النازلة من خارج الشرفة الزجاجية على رمل الصحراء، لمحنا الفيران البرية الرمادية الممتلئة البطون تمرق بسرعة أمامنا في مساراتها الخاصة. وجاء إلى الزجاج الخارجي ثعلبٌ صغير، وقف غير بعيد منا، وبيننا الحاجز الشفاف السميك، براق العينين بكهرباء متقدة وباردة، أذناه المثلثتان منتصبتان في توتر التكشف والتوجس والتطلع معاً، ذيله الكث المليء معقوف وسريع الاهتزاز يكاد يقارب في طوله طول جسم الوحش النفور نفسه. لحظة، ثم عَنَّ له الخوف المفاجيء أو القصد الحاسم المبادر فانطلق يجري خاطفاً إلى مملكة ليله الأليفة.

عاد مُرسي بيبه يقظاً ومتوتراً وصاحبه حمودة متراخي الجسم خامل التقاطيع، وتبادلنا التحية باقتضاب. كان واضحاً أن أنطوان مرهق، فدخل لينام، وبقيت ساهراً وصامتاً حتى بعد منتصف الليل.

في اليوم التالي في الصبح الباكر، بعد كوب الشاي باللبن السخن، وقبل إعداد الفطور، خرجت ومعي أنطوان نطوف قليلاً بالحديقة الكثيفة الحرشات. كان خرير الماء في المساقي الطويلة رقراقاً في الصبح الذي يتفجر بزقزقة العصافير الخفيّة المزدحمة، ونور الشمس يرد عليه برقرقة ظلال مرتعشة تنزل من أشجار الكازورينا العالية الرشيقة على الأرض التي نصفها رمل ونصفها مغطى بورق إبَريّ مسنَّنِ الأطراف والمساقي تَتَشعِب محفورة في الأرض، طولاً وعرضاً، تصدر عن آبار صغيرة غويطة متناثرة بانتظام وماؤها البعيد زجاجي أسود. لها أسوار حجرية دائرية تتدلى منها أشْطان ثابتة تنتهي بالدِّلاء الخشبية الملفوفة بالخيش المبتل، تُحكم وثاقه حول جسم الدلو، خيوطٌ مفتولة قوية. أما البئر الارتوازية الواسعة في أول الحديقة جنب المطبخ فقد كانت عجلتها الهائلة تدور ببطء في الريح الرُخاء.

من وراء دغلات منخفضة الطول من النخل المتكاثف الخشن قصير القامات، لمحت العينين الواسعتين، خيل إليّ في اللمحة الخاطفة أنهما خضراوان، وفيهما - بلا شك - نظرة غريبة، كأنها طريدة، خائفة وجِلة وشُجاعة مستميتة في الوقت نفسه. كان الشعر الأسود الفاحم، ملموماً في عصابة ضيقة زرقاء ناصلة اللون، هو الشيء الوحيد الذي يقول إن هذه إنما هي بنت. كانت، كلها، على بعضها، شيئاً نحيلاً، رشيقاً برشاقة غلمانية، شيئاً جميلاً على طريقته، ولكن الساقين الرفيعتين في بنطلون ضيق قديم مقصوص من تحت الركبتين، والبلوفر العتيق الواسع المترب برمل الصحراء، والبلل الكالح على الصدر الذي لا تكاد العين تتبين نهوده، كلها تجعل هذا الجمال فيه شيء حيواني، حوشي، ونَفور.

اختفى الوجه الذي كان واضحاً أنه يرقبنا باهتمام، وأمل مُلِحّ.

سمعت صوت عم بشير الأجش العجوز من المطبخ: راوية - يا بت راوية - .

كانت أنفاس أنطوان قد تسارعت قليلاً، من المشي المبكر؟ من مشهد هذه البنت الغريبة؟ أم أصلاً من الضعف والنقاهة؟ وكانت العظمتان الناتئتان فوق الخدين، تحت محجري عينيه، مضرجتين بحمرة داكنة في الجلد الشمعي الأبيض.

قال لي، فقط: انظر.

كانت راوية - فقد عرفنا أن لها اسماً - تسرع الآن، محنية الظهر قليلاً، تهرول في الحقيقة وتثب بسرعة فوق المساقي وحرشات البومي المفاجئة وتدور جرياً حول شجيرات التين القميئة وتتجنب بالكاد الاصطدام بتعريشات العنب المتدلي بعناقيده الثرة المتضامة، وفي يدها نصف رغيف بلدي، وسلطانية زبادي فخار مدورة، ما زلت أرى عينيها، مفزوعتين

وحريصتين تتوقّدان من الجوع واللهفة والرعب معاً، فأر صحراوي أو عِرسْة تنسل بين الرمل والخضرة إلى ناحية الجدار الخارجي للمطبخ. والصوت ما زال مكتوماً فيه عجز وتسليم: راوية ـ يا راوية. كان اتساع الصحراء يخفض من حدة النداء، فيكاد يضيع في كثافة الحديقة، وكانت أنقاض الهَدَد على جدار المطبخ الحجري وأخشاب قديمة وجديدة وبعضها محروق وكومة رماد عالية وبقايا نيران منطفئة كلها تعطي المكان جواً مريباً، وطاف بذهني خطفاً هل هي كذلك تُستَغل بلا حياء وبشكل شائن، وجنسيٌّ أيضاً؟ وهل هذا الجسم الطفلي الصبياني مستباح؟

قال عم بشير وهو يضع أمامنا، ببطء وحرص، أطباق البيض المقلي برائحته الفّواحة ولمعان دوائره الصفراء، والجبن القَريش الناصع البياض، والزيتون اليوناني الأسود والأخضر الطري الجلد: مُرسي بيه وصاحبه كشفوا إمبارح منام الغزال.

سألته فجأة، دون مناسبة: عم بشير، مين البنت الجديدة إللي بتشتغل معاكو هنا؟

لم يجب بشيء، ولم يبدُ عليه أنه سمع شيئاً فكررت:
ـ البت اللي كنت بتنادي عليها الصبح، إسمها راوية، هِيَّ منين؟
لم ينظر إليَّ، استدار ومضى دون كلمة.
لم يسترعني الأمر كثيراً. قلت إن الرجل قد شاخ، وهَتَّر قليلاً.

دمدمة الأمجاد القديمة ما زالت تُدَوِّم وتدوي وغبار المعارك القديمة لم ينقشع ووجهكِ ما زال ساطعاً في الوهاد والمهاد الصحراوية بَعدتْ أعمدة التلغراف واختفت الأسلاك المشدودة عند الأطراف المتراخية في الوسط وراء ربوات الحصي الملوَّن والداكن والمكسّو بطبقة من هَبْو الرمل الناعم العَالَم مهجورٌ والجيب بجوانبها المعدنية القوية تلمع وتخوض اللجج الصامتة ليس

هناك الآن ظلال بل السطوعُ الكامل سرٌ كـامل والـطريدة الـوحيدة تـرتفع وتنخفض من بعيد عمـدان نـاحلة عيـدان حيـة رشيقـة تعـزف موسيقى الاستماتة لا تستسلم لليأس وَقدة الشمس قلبٌ مفتوح عن آخره تدوس فيه عجلات المطاط الكثيفة نهائيةُ العزم عينٌ بـلا ماء بحـرٌ كظيم لـذعُ الأحزان العريقة حـادُ السِنان خَـدَعَنا الـزمنُ وانقضى الآن خلت جَعبتُنا من رصيـد السنين والأيدي صِفرٌ من الزمن ليس من قطرة ماء والنـار كامنـة تحت طبقة الحصى والـرمل الخشن دوائـر واسعة من أزيـز الـطِراد بينـما صمت الهـرب مستجر ولا نسمة في جـوف قشرة البيضة المقلوبـة الشاسعـة الأبعاد خـاوية شمسُ أشعيا توقفت في قلبها تضربُهـا ولا تشققُها وظُهْـر الساعـة الأخيرة لا ينتهي حُبّي صحراء وصفحةٌ من رصـاص تحترق بـإصرار بلا بَصَرٍ ولا نـور الجيب ما زالت تدور حول الطريدة الطائرة على موسيقى سقوطِها الوشيـك وتُحيق بها بينما الأفق ليس فيـه صدى النـداء مرة واحـدة مرتـين النداء دائم الماء المِلح من غير صـوت شطٌ متجدد أبـداً ليس له عمق ليس لـه بحر لا ينتهي المِلح الأزرق نداء رغوةُ تجويف مقاعد السينما المبتورة جامـدةٌ في يدي تنفـرط كأنها حبـوب غلالٍ مبشـورة بيضـاءُ اللبِ فـما الـذي يشتعـل بنارٍ عقيمـة؟ أعمدة رفيعـة من العظام الهشـة أم من أغصـان خشبيـة منـزوعـة الـورق؟ غدائـر شعرٍ أشعث يـشيط بفـوح اللحم المحـروق نحن في العـراء صِفرٌ من الزمن تجاوزنا النقطةَ الأخيرة تقترب الجيب المحكمةُ التَـوحُّشِ من طـريدتهـا مفتوحـة العينينَ نحن الآن في الجُـزاف مجانـاً وراء الحـدود ما من حسابٍ لشيء ولا لأحد الأنفاس المتلاحقة متصلةٌ إيقاعهـا ثابت لا يـتراخى ولكن افتراس الرمال يزداد عزماً ويتسارع سقطةُ الجسمِ النحيل على الرمل لا صـدى لها والعينـان الـواسعتـان لا تغيب عنهـا نـظرة المطارَدة والـرعب النهائي وزرقة النداء الشاهقة اللون طلقة الرصاص الواحدة مـرةً ثم مرتـين وقُبح السقوط المتهاوي وانقضاض المحرِّك خشن الصوت.

كنت قد نمت بعد الظهر نومتي المضطربة القلقة تحت طنين المروحة الضخمة المثبتة في السقف تزيد من حرارة الغرفة بتقليب هوائها السخن، ورأيت الجيب تأتي من وراء سور الحديقة الخلفي. ذهب إليها عم بشير والولد فرج يجريان، فهل لمحت الغزال المضروب مربوطاً بحبل في مؤخرة الجيب متهدل الرأس متراكب السيقان بعضها على بعض؟ وهل لمحت في المقعد الخلفي - لم أصدق عيني، لحظة، ثم اختفت الجيب - جسماً ناحلاً تلفُ رأسه عصابةٌ زرقاء جف البلل عليها بلونه الداكنِ الحمرةِ الضارب إلى السواد؟ جسماً متهدلاً أيضاً قد استبيحت أطرافه للمرة الأخيرة، وملقىً به وفي همود غريب؟

عندما خرجنا لنأخذ شاي بعد الظهر كان الغزال مرمياً على الرمل، طلقة الرصاص القوية تركت فتحةً غليظة غير مشذبة الحواف في وسط الجمجمة من الخلف والعينان ما زالتا مفتوحتين بحياة ثابتة تتحدى المطارَدة وترفض النهاية.

ولم أحتمل إذ رأيت السكّينة الطويلة الرفيعة في يد عم بشير تشق الجلد الناعم البني الفاتح اللون ليبدأ في السلخ وإعداد الشواء. مشيت طويلاً في الرمل، وحدي، دون أن أفكر في شيء محدد.

كنت في الوقت الذي أحفظُ فيه الشعر الجاهلي وأقرأ القرآن وأترجم روايةَ مغامراتٍ اسمها «السهم الأسود»، وأُحبُّ الفتاة الإرستقراطية ذات الروب الحريري الأزرق التي تطل من الشرفة، أمام بيتنا في محرم بك، ثم تدخل مباشرة في اتجاه الحديقة المسورة التي ترتفع من وراء الفيللا بأشجار النخيل والمانجو والموز، أذهبُ للمدرسة العباسية الثانوية - كنت في السنة الثانية - عن طريق تخريمة في قلب محرم بك.

يرتفع بي الشارع الرملي الحجري المدكوك النظيف وأنفذ من ثقب في

سور ضخم قديم من الحجر الأنتري الذي أصفرّ وأربدت سطوحه الخشنة، فإذا بي في سفح ربوة رملية صلبة الأرض قليلة الارتفاع، ورائحة الغنم والجمال وروثها وصوفها وجلدها تنغمني كلها، وخيام الشعر المغبّرة الداكنة أرى وَبَرها ممزقاً ومرتوقاً بقطعٍ من الجلد الجديد مرةً ومراراً عند خط المِزْقة نفسها، واطئةً ومظلمةَ الداخل، متناثرةً على الربوة بين بضع نخلات نحيلة وسامقة الارتفاع. ثُغاء الماعز ودخان الكوانين يرتفع.

وفي أيام الجمعة، عندما تخرج أمي للسوق وتتركنا في البيت، كنت أجمع أُخْتَيَّ عايدة وهناء، وبنت خالتي، مارية الزنجية الوجه، وبنت خالة أمي، إسكندرة، وأتلو عليهن بأعلى عقيرتي، عن ظهر قلب، القصائد الجاهلية بقرقعاتها الجزلة الرتيبة الإيقاع، ملوحاً بذراعي دون أن ألحن أو أخرم حرفاً وتنصت إليَّ البنات بقهرٍ وفزع وإعجاب، ثم أترنم بعد ذلك بشعر ابن أبي ربيعة والمجنون وأنسى نفسي فيتهدج صوتي بما يقرب من البكاء وأجد البنات ينظرن إليَّ بعيون مبتلة.

وعندما أخرج، في السابعة والرُبع تماماً، حاملاً كتبي وكراريسي فإن الحركة في مخيمّ البدو تكون قد هدأت، فقد خرجت البنات وراء معيزهن التي ترعى على نفايات ورق الصحف وورق الشجر وخِرق القماش القديمة في شوارع محرم بك الهادئة، وكنت أجد نفسي فجأة في نَجْد، أو تُهامة، أو الحجاز، وأنا على ناقة أمرىء القيس، مع البنت البدوية القصيرة الملفوفة، بثوبها المخطّط، وأنفها مخزوم بحلق ذهبيٍ مشرشر الحافة، عصابةٌ حمراء عريضة تخفي شعرها إلا من ضفيرتين مجدولتين بقماش ملون يبدو غير نظيف تمام النظافة، ولكن العينين السوداوين تلمعان بِوَجْدٍ في وجهها الخمري المسحوب تحت نقاب نصَفيٍ سميك يخفي فمها فلم أر شفتيها قط، ولا عرفت ابتسامتها. كانت تنظر إليَّ، وكنت أحبها جداً، وأسميها ليلى الأَخْيَلِيَّة، وأنا أمر ببطء تحت حافة الربوة.

تنزل برشاقة، ردفاها المضمومان يتحركان بموسيقيةٍ لدنة تحت الحزام الأحمر العريض النازل على أسفل بطنها، أنسى البيوت القليلة المنخفضة التي تحيط بالمخيَّم من بعيد وأنسى الرائحة الحادّة وخوار الجمل الشيخ الذي يهدر فجأة أجشَّ ومحبوساً في حَلْقة وأنسى دخان الكوانين الذي ينفذ إلى أنفي ولا أعود أحس إلا بالمُحبين العُذريين وأعرف جميلَ بثينة وكثيّر عزة والمجنون يقطنون هذا القلب الذي كان ـ وما زال على كهولته ـ شيقاً وتواقاً وفياضاً بالحب والحلم.

وأخرج من الساحة الترابية المغبرة تحت الربوة كأنني أخرج من عالم سحري رثٍ ومختلط التاريخ، طريق ضيق وعر ومتحدر، وأجد نفسي مرة أخرى في الشارع العريض المسفلت الذي فيه عيادة الليدي كرومر، الإنجليزية التي كانت أمي تأخذني إليها وأنا صغير جداً لأمس عيني، وقبل دخول العباسية أذهب، كل يوم على الله، إلى دكان عم صبحي الذي يبيع اللب والسوداني والحُمّص والكراريس وورق التجليد الأزرق والإتيكات الصغيرة البيضاء المؤطرة بزخرفةٍ مستطيلة زرقاء، والأهم من ذلك كله أنه يؤجِّر المجلات وروايات الجيب بنكلة الواحدة أولاً ثم بمليمين ونصف بعد ذلك وكانت قطعةً معدنية واحدة مخمَّسة الأضلاع عليها صورة فاروق الشاب بالطربوش وبدلة التشريفة المغلقة الرقبة، وكنت قد دفعت له أول السنة قرشَ تعريفة بحالِه تأميناً للرواية إذا ضاعت مني، أو إذا استبد بي الإعجاب فقررت الاحتفاظ بها، وكنت أقرأها بنهم في الليل عندما ينام الجميع، وأنتظر بلهفة أن أقلِّب الأغلفة وعليها الوجوه الدراميَّةِ التلوين أو الغواني في فساتين السهرة الطويلة المشقوقة عن أفخاذ طويلة لامعة ووردية: نانا وغادة الكاميليا سافو بوجه جريتا جاربو والملاك الأزرق بوجه مارلين ديتريش، أنا كارنينا وبول وفرجيني، وبنات محمود كامل المحامي الأرستقراطيات اللاتي يقدن الأوتوبيل في المعادي والهرم والزمالك ـ مواقع

سحرية كلها عندي ـ ويتحدثن إلى المحبين في هدأة الليالي بالتليفون ـ وهو عندي أداة سحرية أيضاً. وكم ذرفت الدموع ساخنة ومدرارا تهز جسمي كله في كتمة قلبي الذي يتنزّى صاحياً من طفولةٍ قلقة إلى مراهقة مضطربة، وكانت أمي تربي الحمام في السندرة فكان هديله الرتيب يملأ الغرف الخاوية تقريباً إذ يصحو على نور غرفتي بالليل، كان أبي من غير شغل وكنا نبيع العفش أو نرهنه ونستعيده فيذهب السرير مرة والبورية مرة وكراسي السفرة مرارا ثم تعود، وكان بلاط البيت عاريا من غير حصيرة أو كِليم وخصوصاً في الصيف، كان الحمام ينزل على البلاط ويتخطّر في البيت يبحث عما يلقطه من حب أو فتات، ويترك على البلاط مخلفاته الصغيرة البيضاء الخضراء التي تجف وكانت أمي تكشطها وتجمعها من السندرة وتنادي الرجل الذي يمر في الشارع وينادي «زبل الحمام» وتبيع له الفضلات الجافة الصلبة ذات الرائحة الخاصة، وكانت القطة الضخمة المشمشية المنقّطة تجوب الغرف تموء وتشم الأرض ولا تجرؤ على الاقتراب من الحَمام الكبير ريشُه المتقلب الألوان ينتفخ عند الصدر وينكمش ويتسارع هديله في غضبٍ عدوانيّ بينما أقرأ، تحت الشباك وأمام شرفة الفتاة صاحبة الروب الأزرق، روايات سير رايدر هاجارد ووالتر سكوت بالإنجليزية في مجلداتها ذات الغلاف الأحمر السميك التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة وكنت أحب ملمسها وما زلت. وكم همت مع عائشة أو «هي» ويحثت عن كنوز الملك سليمان في جبل القمر وارتجَّ صدري مع مدافع القراصنة في الكاريبي.

ثبج الأمواج المَدارّية التي لم تعصف بسفينتي قط أما زلت طفلاً من غير سماء والعالم وحشٌ يولد من جديد وما طرقتُ شِعاب جبل القمر والغربة في العينين العميقتين اللتين ما نظرتا إليَّ قط نظرات العاشقات تُسَوِّحُ مكامن الجروح الندية احتكاكُ الخشونة النهمة بالنعومة الحريرية السخنة العالم

يتهدم ببطء وينقضّ رغاةُ الجمل العجوز لا يريد أن يُنيخ بينما الوحش يقترب يرفع رأسه من جديد من جديد أما زلت تَنشُد النهدَ الحَنون؟ تَموُّجُ السماء الزرقاء على الجسم المنساب حارةً والبلل البارد في العمق المفتوح جرحٌ لا برء له المياه تتدفق في خرير أجش أسير بين أطلال السماء هذه الأنيابُ وضرباتُ أقدام الوحش تخبط أرض موتي من جديد من جديد هذا الألم الغض الوليد لا يطاق لفحُ أنفاس الأشواق التي لا تفسير لها أبداً لا حلٌ لشفرتها ولا رَيٌّ لعطشها حفرةٌ في الأحشاء يملؤها الوجع التقليدي لا يفيقُ الجسمُ من غيبوبة نشوته التي كأنها أجنبية وليس أكثر منها حميميّة هشةٌ بلا أفق وخزاتٌ دقيقة تتقطر منها قطرات كأنها خرزاتُ مرجانٍ من الدم الصغير الذي يكاد يكون شفافاً في دوران حبُوبه أشواق عشقي لا تجف ولا ترِّم الشمسُ تومض على اهتزاز ثمرات الرمان المليئة القانية الأحشاء الرعشةُ في موالج الظلمة الخفية حُميّ الطلب ضربةٌ طلقة الرصاص قاتلةٌ لا تخيب.

كان أنطوان ممدداً على الشيزلونج القماش في الشرفة التي انفتح مصراع زجاجها السميك عن هواء منعش في أول العصر. كان يبدو مهزوماً، ملقىً به على الرمل، ولكنه عنيد شاحب الوجه كأنما نزفت عنه كل دمائه. توجست خيفةً عليه قليلاً، ولكنه قال لي بابتسامة واهنة وشُجاعة كأنه قرأ ما عندي:

ـ ما تخفْش عمر الشقي بَقِي.

وبعد سنين طويلة زرته في الأشرفية في بيروت. كانت شقته بورجوازية عادية فيها كل الكراكيب الأنيقة التي نقول عنها إنها تُحف، وللبيت جنينة في ممرٍ صغير مشذّب وأمامه السيارة الستروين الجديدة وكل شيء محدد ومحصور وفيه رائحة النجاح الصغير. كان الصّلَع قد بدأ يتحيّف شعرَه الذي كان ـ في الإسكندرية ـ حريصاً عليه جداً ومعنيّاً به جداً، وبدا وجهه مغضناً جافاً مضغوطاً ومردوداً على ذاته. غَدَّاني مع أسرته في البيت. كانت زوجته التي

عرفها من شركة طيران ساس أمام سينما ريو في شارع فؤاد قد ترهّلت قليلاً جداً ـ أيامها كانت نحيفة أنيقة ـ ولم تتحدث معي إلّا بالفرنسية أو باللهجة اللبنانية وحدست أنها نسيت العربية المصرية، التي لم تكن تُحسنها على أي حال حتى وهي في الإسكندرية. وكان ابنه وبنته ـ اثنان بالضبط، حسب الأصول ـ غريبين عليّ وكنت غريباً عنهما تماماً، كان الولد، روبير، يحفظ بصوت عال نشيداً وطنياً لبنانياً ويتحدث بولاءِ الطفولة الذي لا يقارَن عن كميل شمعون، كل ذلك قبل الحرب الأهلية، أما البنت فقد رفضت أن تجلس على المائدة معنا وبكت وأخذتها أمها إلى مجاهل البيت الداخلية وهي توشوش لها بما لم أسمعه تهدىء روُعها، بلا شك، من هذا الغريب الذي يتكلم بلهجة إسكندرانية غريبة ومنسية. هذا الغريب الذي كنت.

ضربت بيننا الأيام، عادتَها، ولا أعرف إن كان حياً أم راح في فواجع بيروت وأعرف أن الشوق المضطرب الذي يجيش في قلبي لرؤيته ولُقياه تطيح به الصروف، في الحالتين، وسواء لقيته أو لم ألقه فالغربة بيننا كاملة، وسواء كان يضرب في الأرض أم ذهب عنا، فلم تعد بيننا، حقاً، صلة، فقد كنا على المائدة في بيته لا نكاد نعرف ماذا نقول لأحدنا الآخر، ولا أصدِّق مع ذلك قسوةَ قلبي إذ أضع هذه التخمينات والحدوس والاحتمالات الباردة أمامي وأنظر إليها في عينيها، اكتشفت على الغداء أنه ينسى أحياناً فيرتد إلى اللهجة اللبنانية ويبحث عن الكلمة المصرية قليلاً حتى يجدها، وعلى أنني أعشق اللهجة اللبنانية عند أصحابها فقد أحسست بقبضةٍ صغيرة في الروح.

أين راح كفاح الحلقة الثورية الإسكندرانية القديمة في ١٩٤٦ عندما كنا نذهب إلى أنطوان في مكتب المِسّاجيري ماريتيم في شارع سيزوستريس، بعد مواعيد العمل، يفتح لنا عم صالح، الفراش النوبي الشاب الذي كان يفهم تماماً كل ما يدور ولا يفتح فمه بكلمة، ونطبع على ماكينة الرونيو

الفرنساوي منشوراتنا التي تدعو إلى الجلاء وإلى تأميم القنال وإلى سقوط الاستعباد والرأسمالية المستغِلة والتخلف، أو إلى تأييد إضرابات العمال في فبارك بولفارا والغزل والنسيج في كرموز، كان فتّوح القفاص يكتبها على الآلة الكاتبة على ورق الأستنسل الحريري الهفهاف في مكتب براءات الإختراع الذي كان يملكه مالطي يهودي عجوز أكرش عالي الصوت هاجر في ١٩٤٨ إلى جنوب أفريقيا وترك مكتبه إلى زوج بنته الذي اضطر بدوره إلى مشاركة محامٍ إسكندراني من عائلة وفدية عريقة انضم إلى هيئة التحرير ثم الاتحاد القومي ثم الاشتراكي وخلص من شبكة التأميمات.

كان عم صالح يساعدنا في إدارة ماكينة الرونيو بهدوء وصمت، ولا شكّ أبداً أنه قرأ العناوين المثيرة ورأى المطرقة والسندان ورقم ٤ على رأس حريرة الأستنسل. وبعد أن هاجر أنطوان وانقطعت أخباره تماماً وغادرتُ الإسكندرية كنت أذهب إلى مكتب إيرفرانس الذي يعمل فيه عم صالح عجوزاً الآن ولكن فتيٌّ صلب العود، لأسلم عليه فيتذكرني ويحييني بحماسة وحب ويسأل عن الغائبين الذين لا نعرف مآلهم ومصائرهم.

كنا نطبع المنشورات في نصف العتمة حتى لا يفضحنا نور الشركة بعد ساعات العمل وأحمل نصفها إلى زكي إبراهيم صدّوق ابن البلد اليهودي الإسكندراني القح الذي يشتغل في فابريكة بولفارا ويسكن في حارة في العطارين مع أهله: أخته مارسيل وأمه بالجلابية والمدورة وأبيه الصغير الجسم الذي كان يشتغل بتصليح الكراسي من بيت إلى بيت كان زكي أعرج قليلاً وذراعه اليسرى مشلولة ولكنه لماح الذكاء وشديد الإيمان بالثورة وكان عدوّاً لدوداً للصهيونية، وكان قد اشتغل صبياً في دكاكين البقالة، وإسطبلات العربات الكارو، وعند الحدادين والسمكرية، وفتح الله عليه أخيراً بشغله، في الفابريكة. كان يلبس الجلابية والبالطو البلدي ويعرف يكتب اسمه بالعربي بالكاد. ولا يعرف كلمة بأية لغةٍ أخرى.

في ١٩٤٩ وضعه بوليس الملك فاروق على مركب، بالقوة، ورحله إلى جنوا.

كنا نخرج من المِسَّاچيري ماريتيم وقد لففتُ الورق الأستنسل ونصف رزمة المنشورات تحت بالطو المطر الأزرق الغامق الذي كنت قد أخذته، بإذنٍ مكتوب وقَّع عليه وختمه مستر لي، من مخازن البحرية البريطانية في كفر عشرى والذي أخفيت في جيوبه بعد ذلك ثلاث قنابل يدوية قديمة اشتراها صديقي أحمد النمس من عرب العامرية. وكان أحمد النمس إرهابياً إسلامياً ثم ناقشته وحاورته وعلّمته أسابيع طويلة حتى أصبح ماركسياً لينينياً، تروتسكياً حافظ على عقيدته دون حِوَل حتى الآن حتى بينما كان يضرب في متاهات الغربة يعلّم الرياضيات في زائير ويترجم مواد عِلمية لهيئات الأمم المتحدة في باريس وجنيف وفيينا.

نزلت من ربوة العباسية ـ التي تحولت الآن إلى جامعة ـ فاروق الأول ـ بالليل، أتحدّر على الأرض المائلة بشدة المخضوضرة بالعشب المتلوي الملفلف الغضير دائماً.

كنا قد قررنا بالأغلبية الساحقة فضّ الاعتصام، كان الناس طيلة الأيام الثلاثة الماضية يلقون إلينا بالساندويتشات والأكل الجافّ الملفوف في فُوطَ، من النوافذ، عَبر شارع الإسكندراني. وكان الجيش بدباباته الصفراء الصغيرة تبدو كاللُعب، يحاصرنا بينما نقوم على حراسة جثمان الشهيد الذي سقط برصاص الأنجليز في محطة الرمل، حفرنا له قبراً في ساحة الجامعة وسهرنا والشموع الكبيرة مضاءة حواليه، من أين أتينا بها؟ ونحن نتبادل الخطب الثورية وننشد الأناشيد الوطنية.

اختبأتُ قليلاً في سفح التلة المخضرضرة، في الظلام، كانت الدبابات بعيدة نوعاً ما، وسرت بهدوءٍ من أمامها ولم يتصدَّ لي أحد.

وجئت بيتاً قديماً من مدخل ضيق مظلم وكدت أتعثر على درجتين متآكلتين في سلّم ترابي طويل من الناحية الأخرى من البيت الذي يقع في دُحديرية الفَخَرانية، بابه في مستوى الشارع من ناحية، أما الناحية الأخرى ففيها هذا السلم الطويل المحفور في أرض الدحديرة نفسها التي تعود إليَّ كثيراً، حتى الآن، في نومي. كان هذا الطريق لا يعرفه إلا قلائل من جماعتنا.

كانت الشوارع الجانبية المتربة خاوية وموحشة تنتهي فجأة ببيوت سدّ، أعود أدراجي إلى الحواري المتفرّعة عنها، معتمة وحيطان بيوتها مصمتة بلا نوافذ ومبنية بالطوب النيء، وأنا أجري نازلاً باندفاع وقوةُ التحدّر تنطلق بي إلى تحت لا أملك رد جسمي وهو يهبط حتى أصل إلى محطة الحريق بأعمدتها السميكة القصيرة المدورة التي تشبه أعمدة أُدَيرةٍ قُوطيّة ذات أقباء وأحناء وممرات مبلطة تنبثق من بين شقوق بلاطها أعشابٌ صغيرة غضة، ولها فناء صغير ليس فيه إلا الرمل والحصى، تحيط به مخازن هائلة لها أبواب حديدية منزلقة على عجلات، موصدة الآن أمام كل أمل. وهناك جَرَس ضخم نحاسي يلمع، مدلى بحبل غليظ من قبوة عالية، وساكن لا يتحرك، رأيت لسان الجرس المعدني الداكن الكبير، وفكرت أنه لو أن هذا الجرس دق فسوف يصحو أهل البلد جميعاً بل ستدق كل الأجراس في مصر من إسكندرية إلى الشلالات دقاً واحداً متصل الجلجلة ومدوياً يوقظ الموتى ولم يكن هذا الجرس كَنَسياً بل هو أشبه بأجراس محطات المطافىء أو محطات السكة الحديد، صامت، ثقيل لا يهتز أدنى اهتزاز وحوله عساكر المطافىء واقفين كالحرس بخوذاتهم الصفراء الرومانية الشكل وملابسهم الداكنة الزرقة الكاملة الأُهبة.

كانت هناك بقعة داكنة كبيرة على الرمل، ورأيت على مؤخرة السيارة الجيب وعلى عجلتها الاحتياطية الضخمة المثبتة بها رشاش دمٍ جاف.

وكان عم بشير وفرج مُنحنيين على القِطع النظيفة الآن، المسوّاة بعناية، ورأيت الجلد مشدوداً على حبل الغسيل ليجف، هب الهواء برائحته الخاصة الطازجة. وفجأة تغير اتجاه الريح فجاءت برائحةٍ لا تُطاق من بقايا أحشاء الجثة والدم الفاسد والبراز المدلوق المتروك في العراء.

كانت شقشقة العصافير، فوق، بين أغصان الشجر الوحفة المتراكمة، سريعةً متقاطرة ومتلاطمة عالية وترتطم أمواج السقسقة بعضها ببعض بلهفةٍ وفزع، ورأيت الحَدادِي تطوف بعيداً في السحاب ثابتة الجناحين. بطيئة التحليق. وكنت أحدس أكثر مما أرى العيون الكهربيّة المتربّصة في وَغَلات الحديقة الوخمة.

دخل عم بشير، وفرج، إلى المطبخ، يحملان المزق الحمراء الكبيرة - وقد غُسلت وصُفيت من الدم. ودخلت وراءهما.

كانت مدام أولريخ تجلس على فوتيّ مشغول من البوص وعليه مخدة مدورة، على باب المطبخ، ترقب إعداد العشاء من صيد اليوم الطازج.

سألت دون مقدمات:

- عم بشير، فين راوية؟

نظر إليّ بعينين عجوزين غائمتين فيهما كل هزيمة العالم.

- مِنو راوية يا بُني؟ وِيش راوية؟

قالت مدام أولريخ بسرعة:

- راوية إيه هبيبي؟ مافي راوية - ما في راوية..

ألم توجد راوية قط إلا في خيالي؟

أعرف أنها كانت هناك. ماذا حدث لها؟

هتفتُ بلوعة:

ـ فرج. فرج قول لي أنتَ، قول. فين راوية؟

نظر إليَّ الولد فرج، فقط، ولم يتكلم.

تلك النظرة المطارَدة التي رأيتها في عيني البنت. لكن عينيه كانتا مبللتين بالدموع.

أكانت هي نفسها التي تنظر إليَّ من وراء قناع؟

٩ ـ موسيقى الملح لا تذوب

كيف ينحسر الزمن. لا يوجد ولم يكن موجوداً قط. والبراءة الأولية هي القانون.

في جوهرٍ من الكينونة لا أثر فيه لما مضى، الآن، وللمستقبل، أنا معها في قهوة على الكورنيش. البحر الأزرق النقي وزبده الأبيض الهادىء بلا صوت، كالصبا، حيٌ لم يندثر ولا انقضاء له، وصافٍ مثله، ليس فيه إيماءة لما جاء بعده، وليس قبله شيء.

ليس فيه عودة، ذلك البحر، وتلك التي معي. هما البدء الذي لا يزول ولا تدور به دورةٌ ما. والبدء أصلاً قائم دون أن يكون ماضياً ولا حاضراً وليس له مستقبل.

هو الآن. فقط. دون أدني حِسٍّ أنه الآن.

عصا سحرية قد محت عنه المستقبل الذي أصبح ماضياً فيها بعد والذي لم يطرأ قط بعد.

كانت معي. وكان هناك سلام، ونور الصبح الوائق.

وكانت ملامحها غير واضحة، كأنها تسبح في سحابةٍ مشعة صامتة الضوء.

لم يكنُ مهماً ـ ولم أتساءل قط، ولم يخطر لي أن أسأل أبداً ـ مَنْ تكون.
أعرفها تمام المعرفة، مطمئناً وراضياً، وساجي الروح.
ليس للحلم زمن. ليس حلماً. ليس هناك زمن.
عندما هب الهواء فجأة، منعشاً وأميلَ للبرودة، كان أدعى للتحدي.

وعندئذ تخلل نورُ شمس الشتاء شعرَها الأصهب المصفرّ، وسقط بوضوحٍ على خصلة خفيفة منه مرفوعةٍ على جبينها المدور، فاشتعلت بالنار. كان حاجباها عميقي السواد، وكانت العينان فاتحتين وصُلبتين فيهما شكّةٌ تُحِز القلب، تفيضان بإيحاءاتِ استفزاز.

«وأيضاً جعلتُ الأبديةَ في قلبك».

في ساحةِ محطة مصر الفسيحة كانت عربات الحنطور السوداء المنتظرة تحمل معنى معلّقاً غير محسوم، مواكب الوصول والرحيل معاً، الأفراح والمآتم معاً، ورائحة بول الخيل النفاذة من البِرَك الصغيرة لونها أصفر راكد في الشمس.

كان صوت المطبعة اليدوية يأتي إليّ وأنا أذرع شارع محرم بك، صلصلة الذراع الحديدية السوداء التي ترتفع وتنخفض بدقات مكتومة رتيبة، أراها من وراء الواجهة الزجاجية التي عُرِضتْ فيها كتب الهندسة والحقوق وفجر الإسلام وضحي الإسلام والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية من ترجمة راشد البراوي وعند قهوة الإسكندراني انحرفت وليس في ذهني هدف معين، قلت أطلع ربما أرى حسن محمد حسين وربما نزلنا وذهبنا إلى سينما بلازا في شارع فؤاد، وعددت القروش القليلة في جيبي، ونسيت فوراً كم كانت.

عينان ذهبيتان في محطة أوتوبيس وَهَيَاجٌ من الشعر المخضلّ بنار شقراء محمرة.

«الليلة لم أستطع أن أنام. انتابني أرق عصبي مرهف مليء بالأوهام والخيالات التي يخفق لها القلب بعنف، ويتصبّب العرق. في عتمة البيت الليلية كائنات مبهمة تملأ عليّ الجو، ووقْع خطى مسترقَة، وأنفاس خفية تتردد. كأنني ما زلت ذلك الطفل الذي يرى أشباحه رَأْيَ العين، بأشكالها المروّعة، في قلب العَتَمة، الرؤوس الحيوانية الضخمة الطويلة الجماجم، والأجسام الهائلة الكتلة، هوائية مع ذلك كأنها دخان متطاير. أذلك الطفل

كان يحيا بالمخيِّلة وحدها؟ صرخة واحدة مدويّة يرتجّ بها جسدي الذي لم يعد مِلْكي، لم يعد يطيق احتمال الرعب. والليل يتمزق بَدَدًا، يأتي أبي، وأمي، جرياً، وتستيقظ أخواتي، فَزَعاً، وأنا ما أزال أحدق، أحس نفسي، على الرغم مني، ثابت العينين مبهور النَفَس، غارقاً في عرق بارد ما زلت أعرف كيف يتصبب مني، حتى الآن. وتتلاشى الأشباح مرقوا حده حالماً ينطلق الرَوْع في صرخته التي لا عقل فيها. تلك الوجوه الغريبة الشائهة، نصف حيوانية، نصف شيطانية، تحدق إليّ ما زالت، من قلب الليالي، لا تطرف عيونها الضخمة الجاحظة، وجوه لا ملامح لها، لا معنى فيها، أشياء لا آدمية ولكنها قريبة جداً أعرفها، أشكالها جامدة عجيبة توقف الدماء لكنها أليفة عشت معها عيشةً حميمة. بقايا ذلك الرعب قائمة لا تريثٌ ورسيسها راسخٌ في أصل النفس. الليلة خفق قلبي بعنف، أكثر من مرة، كما اعتاد أن يخفق في تلك الظلمات الطفليّة، بمقدِم الأطياف المُلمَّة المُحيقة. أنكر وأسخر وأجد، والخيالات هي هي التي تسيطر على الروح. ألم أسمعها؟ سمعتها، أكثر من مرة سمعتها، لا شك عندي، خُطيٌ مسترقَة وأنفاساً تتردد وأقداماً خفية ترتطم بالأرض، بكوب زجاجب يقع ويتدحرج له صلصلة الزجاج ولا ينكسر.

قالت لي إن المخبأ الواسع الكبير في عمارة التركي أمام كازينو كليوباترا كان بارداً بالليل، وقالت إن تيته كانت ترفض أن تنزل للمخبأ وتقول إن العمر واحد والرب واحد، وكانوا يُحضرون لها البطاطين ويلفونها حول جسمها الصغير الرقيق فكانت تهز رأسها الشفّاف الأبيض وترضَى أن تذهب معهم فقط حتى لا تتركهم وحدهم. وقالت إن الست تيريزا الطليانية وأولادها: البنتين والولد، كانوا يبكون بصوتٍ مكتوم عندما تدقدق المدافع المضادة للطائرات، وإنه عندما يشتد الضرب كانت «أبانا الذي» تختلط بسورة الكرسي، والدعاء باليونانية والطليانية يختلط بيالطيف

يـالطيف يـا خفي الألـطاف نجِّنـا ممـا نخـاف، وإنـه عنـد انتهـاء الغـارة بالصفّارة الـطويلة المتصلة البهيجة كـانت الناس تضحـك، وتصعد سـلالم المخبأ وهي تكاد تسقط من النوم.

«أغمض عينيَّ بشدة، أتمالـك أنفاسي، أهـدىء ضربات دمـائي. أقول هـذا الهواء يهب في الفَسَحة، فأرٌ يجري ربمـا، شيء من هـذا القبيـل. لا أقتنـع. لا أقتنع. هـا هي ذي الأقدام من جـديد، والأنفـاس، والخـطى. الأرق العصبيّ ـ أقول لنفسي ـشيء مرهق ولا يُحتمَل. وفي خلال ذلـك كله أحلم بها. حلم يقظة آخر أم حلم منام؟ هنيء، على مرارتـه. لماذا أخـدع قلبي؟ هي. هي التي تـوقظ أشبـاحي، وآلامي. أحلم بـاستمـرار وييـأس منهـا. هي التي تسيـطر عـلى أحـلامي. ولا تعلم بشيء عـلى الإطـلاق من ذلك كله، بطبيعة الـحال. لعلّها لا تحسّ بوجودي أصلاً، على أي وجه. وماذا في ذلـك؟ حالـة كلاسيكيـة من حـالات الحب من طـرف واحـد، معـروفـة ومـوصوفـة ومألـوفة جـداً. ما أشـدّ رخص ذلك! ولعـلّ جمهـرة منّـا ـ فيلقـاً جحفلاً ـ يحلمون نفس الحلم ويتنهدون أيضاً في نفس اليأس. يا عيني! شدّ ما تبدو الحكاية جافة وهزيلة. كيف بدأت؟».

قالت إنه عنـد سيدي جـابر تقـوم صخرة كبـيرة بعيداً في البحـر وكانـوا يسمونها «صخرة مالطة» ويتسـابقون في السبـاحة إليهـا، وكانوا يعودون إلى صخور الشاطىء العـالية الـبرّية الشكـل، ويصطادون أبـو جلمبـو الصغـير الأبيض الجسم الشفّاف الأرجل بأن ينقروا على الثقوب الصغـيرة التي يأوي إليها في قلب الصخر، يدفعون إليها بعصيّ رفيعة تُرغم الحيوانـات المذعـورة الدقيقة على الهرب إلى الخـارج، وإن مَنْ كان يجمع أكبر عددٍ منها كـان له الحق في أن يكون سلطان اللعبة او سلطانتها، وأن يملي شروطه.

كان يوم أحـد. ثاني يـوم، تمامـاً، لبدء الـدراسة في الجـامعة، لم أذهب للكلية أول يوم. لـماذا؟ ما أهميـة ذلك الآن؟ المهم أنني دخلت المـدرَّج ثاني

يوم للدراسة، وفي آخر محاضرةٍ أيضاً. فتحتُ باب المدرج. كان مزدحماً على الآخر. وكان الدكتور عمر ممدوح يبدأ كلامه عن هندسة الإنشاءات فَسَكَت وأنا أدخل المدرْج. وفوجئتُ بها. رأيتها في الصف الأول، في أول مقعد جانب الممر الصاعد الدرجات في وسط القاعة الفسيحة. كان الصمت كاملاً. وكانت فاتنة، ناضرة، متألقة. البلوفر الأخضر الداكن، خفيف النسيج، يرفع صدرها الناهد المتحدي، وشعرها مضطرب فيه هَيَاج ضارب إلى الصُهبة، ووجهها مشرق في جو المدرج الذي يتطاير فيه غبار متطاير لا يكاد يُرى، ونور العصر. ألقت، بطبيعة الموقف، نظرةً عابرة على هذا الطالب الجديد الذي يدخل متأخراً عن بدء المحاضرة، متأخراً في كل شيء. صعدتُ المدرج، وحدي في الزحمة، وجلست في آخر صف. نظرة لا معنى لها. لكني أحسست بقلبي يغوص، وبالدم يندفع الى رأسي. عرفت عندئذ الشعور الذي لم يفقد قوته لحظة واحدة طيلة أسابيع وشهور لا نهاية لها. نصاعتها وسطوعها وتوهجها وحيويتها الدافقة الحارّة الجسور، وظلمتي وصمتي ووجودٌ كسير منطوٍ على عذابات غير ضرورية وغير مفهومة يترشّفها في جمودٍ مرير.

وأقول لنفسي: يا أخي والله عيب عليك. أهذا كلام؟

في اليوم نفسه، ذلك الأحد بعد الظهر، تركت هي المدرج في العشر دقائق بين محاضرة الإنشاءات ومحاضرة الرياضيات العليا فاقتربتُ، وأنا خارج، من مقعدها الخالي. ووقفت عنده لحظة. كان اليوم حاراً في اكتوبر، وكانت قد تركت جاكتتها على المقعد، وكتاباً. انحنيت، بجرأة ولا مبالاة، وقرأت عنوان الكتاب . «مختارات من أشعار لامارتين» بالفرنسية.

قلت لنفسي: كأنما في ذلك رسالة لي أنا. وقلت: قال يَعني. . ! شعرت بنظرات الطلبة حولي متسائلة ومتطلعة، فمشيت خارجاً في تثاقل مقصود، ونوع من استهتار اليأس. قال يعني. . ! الأمل لم يساورني في أية لحظة، ولا

لحظة، لماذا؟ كان أي نوع من الأمل منفياً، بِعَمْد، من البداية. وبديهيٌ أنني لم أحلم بشيء غيرها طول يومي، طيلة الأسبوع، والشهر، والسنة. من العبث أن أقول عن هذا الحلم. معروفٌ وموصوف بلا مزيد عليه. فقط، كان فيه ـ وما زال ـ نوعٌ من الظلام، والصمت، والصمت، الصمت. كيف يكون هذا الصخب الجيّاش المتصل صمتاً لا تتكسر شوكته؟ الوحدة مع هذا الصمت كانت ـ وما زالت ـ باهظة».

كان على الحائط، تحت السقف مباشرة، بُرص كبير، في طول نصف ذراع، أزرق رمادي مغبّر، يقف ثابتاً صامتاً ومهدَّداً. ولا أستطيع أن أحوّل بصري عنه، وكأنه هو أيضاً يترصدني، من فوق. وفي الصبح طرقَ رجالُ الدفاع المدني البيت ووزعوا علينا الأقنعة الواقية من الغازات السامة ووقّعتُ لهم على إيصال باستلام خمسة أقنعة، وكانت رائحة المطاط نفاذة والبلاستيك الشفاف السميك أمام العينين لم يكن صافياً، والخرطوم الغليظ فيه حلقات دائرية مضلعة. وضعناها في السندرة، ونسيناها وبعد الحرب إكتشفنا أن الفيران قرضت منها أجزاء كبيرة، وأن زبل الحمام الجاف قد تصلّب عليها.

«قلت لنفسي هذه نوبة شَغَف، مثل كل النوبات السابقة، فقط ربما كانت أشد حدة وعنفاً وروعة. كل هذه الفتيات أحببتهن أيضاً، بصمت، قلت: «من صومعتي الموحشة. كما يحب الراهب الله» قلت: «ليس حباً إنسانياً، إذا صح أنه حبّ على الإطلاق. أشبه شيء بموكب من الأحلام الجميلة، رغم كل شيء، ومن الكوابيس أيضاً، من التأكل الطويل الذي لا يتركز في شيء، سهومٌ عذْب ومرير معاً، وبأس كأنه مطلوب، ونجوى كأنها ضرورة، ولهب مدفون في الروح. موكب كأنه مستقل الإرادة، كأنه مستقل ومنفصل عني. عذابات وأشواق وتمردات، تتمزق في النهاية، دائماً،

وتسقط على حاجز من السخريات والابتسامات التي أتصور أنها مريرة ومن الدموع التي أعرف أنها مريرة.

فلماذا لم أبادر بأية خطوة؟ ألسنا زميلين في فصل جامعي واحد من كلية واحدة في نهاية الأمر؟ مجرد بادرة نحو إقامة علاقة صداقة، مثلاً، مجرد الإغواء البريء، مجرد العَرْض البريء للذات؟ لا، طبعاً لا. ما كنت - ما زلت - أريده هو شيء آخر، لا شيء غيره. هو المنح الكامل للذات. تبادل الهبَة، حتى لا يصبح ثم تبادل، ولا هِبة. وحتى أصبح أنا هو أنتِ، وأنتِ أنا. قلت: «أي عبث. أية صبيانية». قلت: «أي قربان.. أية ذبيحة..». قلت: «هبة الإستحالة، عطيّةٌ مستحيلة». وكان هناك مع ذلك سبب آخر. كنت بالفعل قد بادرتُ، على طريقتي، وعرفت الحبوط.
لماذا أتكلم الآن، بعد كل هذا الصمت بعد انقضاء العمر؟ لأن ذلك لا ينقضي».

في عشية عيد القيامة القبطي ذهبت إلى مسرح «الجلوب» في تقاطع شارع السلطان حسين وشارع صفية زغلول. كان صديقي جورج قد قال لي إنه سيكون هناك على الساعة التاسعة. كان الزجاج السميك الدائري الذي يحيط بالقاعة الفسيحة مندًى ببخار الأنفاس من زحمة العساكر والضباط من كل صنف وجنس، ورائحة البيرة تختلط بزعيق الموسيقى الصاخبة حقاً، والحَلَبة الخشبية مكتظة بالعسكريين يراقصون الفتيات السمراوات الجَعْدات والشقراوات وبنات البلد النحيلات والممتلئات بزواقهن الفاتح والإنجليزيات من بنات الـ A. T. S. الصافيات البشرة كأنهن أبيات شِعْرٍ مصفًى ترفرف في ضجيج الخمرة والقذارة والعرق والاحتفال الشرس بانتظار الموت الوشيك في صحراء العلمين وطبرق وبير حكيم، وكان وجه سيلفانا الطويل بشعره المفروش كجناحي مَرْوحةٍ بُنّية الخصل يطفو فوق الغمر. وكان العساكر يخرجون إلى الحوش رأيتهم وأنا

داخل يتقيأون ويتبولون دون تورع تحت العراء ويعودون متساندين على بعضهم بعضاً أو حتى على نسائهن اللاتي ينتظرن غير بعيد ويصرخن لمرأى الرجال يبولون أو يقذفون ما في أجوافهم، بأصوات ثاقبة، من السكر وانطلاق العربدة الحسية في الأوصال الجافة الجائعة. وخيل إليّ أنني رأيت، في غَيَام قادم لم يحدث بعد، نظرة اليأس النهائي بلا نجدة في عيني سيلفانا ـ هل هي هي؟ ـ وأن الموج على شاطىء ستانلي بيي كان متلاطماً، والرياح تهب باردة تخبط صدورنا، والمأوى الزجاجي الدفىء بعيد وملتبس، ونحن نرجع من أبراج عالية مدورة مظلمة على صخور البحر.

«وكنت أراها كل يوم أكثر تدفقاً بالحيوية وأنضر وأروع وأجمل. وبكثير من التسلي راقبت على حيطة ومن بعيد نشوء الحكايات ونسيج الإشاعات وضروب الإغواءات وأنواع الاستثارات والمخاصمات والصداقات والإنقلابات التي كانت هي محورها ومركزها. كان في الفصل بنتان فقط. أما الأخرى فقد كانت، تقليدياً، مكبوتة متحفظة مترفعة ليست جميلة ولا حتى جذابة ولا تريد أو لا تستطيع أن تعوِّض ذلك إلا بالعكوف على الدرس. راقبت النظرات التي كانت نوريس هدفها ومحطّها. الطويلة والخاطفة الوالهة المحترقة الباسمة والمنسحقة المتضرعة والمتحدية والإبتسامات الجامدة المنسية على الوجوه والحرجة التي لا تعرف كيف تنجاب والمتلهفة والعذبة والمغوية واللامبالية والمُزْوَرَّة والبريئة المظهر، راقبت الوجوه المحمرة والمتصببة عرقاً والتي نزفت عنها دماءها فابيضت والمقتحمة والداكنة والمتجهمة والمتخذة قناع الحياد، وتتبعت المنافسات الخفية والصراح والتلميحات والادعاءات وخفيّ اللمزات والغمزات، وصنعت من ذلك كله حياة عجيبة بديلة أعيش فيها وحدي، أما هي فطبعاً كانت تغذّي ذلك كلّه، بنظرة، بكلمة، بابتسامة، أو بمجرد مشيتها الجريئة، وبمكرٍ كأنه عفوي أو فطريّ تمد ذلك كله بوقود مضطرم تؤرّثه كلما أوشك أن يخبو قلت

مرة لصديقي حسن محمد حسين، كأنني أتكلم عن فتاة لا يعنيني من أمرها شيء: «هي خَطرة. تنشر الحُبّ حولها في كل مكان، دون أن تحصد شيئاً». وضحكنا، وكأنما نسيت أنني في قلب تلك الحكاية. لكنني لم أنسَ لحظة واحدة تلك النظرات الطويلة التي كانت تخصني بها - أو هكذا قلت لنفسي - أبداً. ذلك صحيح. مهما حاولت إنكاره أو تفسيره. لا يمكن إنكاره ولا تفسيره، لكنه صحيح.

قالت لي إنهم كانوا يلتفون جميعاً، صبياناً وبنات، حول الميجور الإنجليزي الذي كان يأتي إلى شقة الست تيريزا الطليانية في الدور الثاني من البيت، في شارع بورباستيس. كان اسمه جيمي، وكان يحرص على أن يحضر معه، كل مرة، شيكولاته نستله وبرادبوري محترمة، من «النافي» ويوزعها على عيال الحتة كلهم.

كان طويلاً ونحيلاً في ملابسه الرسمية من السيرج الكحلي، أشقر الشارب وشعره مقصوص مشذب ومحفوف جداً. وكان يقضي الليل عندهم لأن الخواجا لافونتي رجل البيت كان غائباً، كان معتقلاً في معسكر عمل جنب السويس. كان يلبس القميص الفاشستي الأسود وبنطلون الركوب الضيق عند الساقين ويركب الموتوسيكل القديم الذي يطلق دخاناً كثيفاً وقعقعةً كثيفة، في الشارع. وكانت مدام تيريزا ممتلئة الجسم وبطيئة الحركة وصموتاً قلما تتكلم. أما البنتان والولد فقد كانوا مسقّين بَمبَة العفاريت، ويعاكسون كل الأولاد في الحتة.

مرة بالليل جاء صوت هَدَّةٍ قوية في الجنينة الصغيرة التي تطل البلكونة عليها مباشرة. لازم حاجة وقعت. ما هي؟ قنبلة لم تنفجر؟ لا يمكن لأن صفارة الإنذار ما كانت قد ضربت. شلة الأولاد الذين كانوا نائمين صحوا، ولمّوا أنفسهم، ورغم زعيق الكبار انطلقوا جريا بالبيجامات وقمصان النوم والشباشب، وحفاة أيضاً، إلى الجنينة الصغيرة. نطّوا من

البلكونة، ووجدوه على الأرض. ممدد. هادىء الملامح. مغمض العينين قالوا الميجور جيمي خلاص، مات. وصرخوا. جاء الكبار وعرفوا أنه فقط سكران طينة. نزل على الأرض اللينة المبلولة وأخذ معه في وقوعه جزءاً من سور التراسينة التي فوق. راحوا ينادون: «يا ست تيريزا. . يا ست تيريزا الحقي جيمي. الحقي. » واحتمله الكبار وهو غائب ووجهه سعيد وصعدوا به إلى الدور الثاني ومددوه على سرير الخواجا لافونتي، حتى أفاق صباح اليوم التالي.

منذ أول يوم حضرت الكلية قرأت قائمة الطلبة المقبولين في السنة الأولى الإعدادية المعلقة على اللوحة. رأيت اسم «إحسان نصري» فلم أتردد وسهرت ليلتها أكتب لها أول خطاب غرامي في حياتي. مهذباً جداً وحريصاً جداً على مشاعرها ودون أن أوقع باسمي، كتبت فقط أنها ستعرفني، وأنها ما دامت تقرأ الشعر فإنها تعرف كيف يحبّ الشعراء. فاض قلبي بكتابة الحب الذي يرتطم دائماً بحوافه وينسكب طامياً. وأرسلت الخطاب باسمها على عنوان الكلية، والفصل وكل شيء. وبنيتُ تصوراتٍ معقدة وطويلة عن تلقيها الخطاب وبحثها الخفي عن كاتبه واهتزاز مشاعرها له وهام بي الخيال كل مَهَام. هل تسترق النظر إليّ؟ هل تعرف أنني هو، ذلك المحب المجهول؟ كيف يمكن أن يمضي كل هذا الحب عندي دون أن يلقى منها استجابة؟ ـ هذا دائماً أحد أوهامي الأثيرة ـ وحتى ولو لم تكن قد عرفت بالتحديد فهي لا شك تعرف بالحدس، بل بيقين أقوى من كل معرفة الإيمان بالمستحيل ثم إنكار الإيمان، مرة بعد مرة، من غير التخلي عن عقيدته. كأن الحنْث جزء من الإيمان. وما لبثت أن عرفت أن «إحسان نصري» هو زميل لنا في الفصل، عقدتُ معه بعد ذلك صداقة حريصة، لكنه لم يحكِ قط عن موضوع الخطاب. وكم سخرت من نفسي وأنحيت عليها بالتمزيق وكم ضحكت الضحك المرير وضحكت على الضحك

المرير. لماذا لم أرسل إليها، باسمها الحقّ هذه المرة، خطاباً آخر؟ لماذا لم أحكِ لها الحكاية كلها، وكنا بلا شك سنضحك معاً، وسوف يتطهر الألم؟ قلت: لا. . ليس عندي إلا وثبة واحدة ثم أسقط. قلت لا. . حتى عندئذ فإنها كانت تعرف.

أما في شقة شارع إبن زهر فقد كانت الساعة الثانية صباحاً وكانت النافذة محكمة الإغلاق عليّ، وكنت قد فرغت من «لزوميات أبي العلاء» وبدأت أستأنف ترجمة «قُبَّرة» شيلي، وفي اللحظة نفسها التي انطلقت فيها صفارة الإنذار بصوتها اللجوج المتقطع الملحاح تمزق سكون الليل وتدقّ القلب سمعت صموت الهدَّة المروِّعة واهتزت جدران البيت وسطع النور الأبيض خطفةً واحدة ملأ منور البيت ودخل عليَّ في حجرة النوم والمذاكرة التي يشغلها السرير الكبير المزدحم بأخواتي النائمات عايدة وهناء ولويزة ومع بَرْق النور الضارب صوتُ انهيارٍ أنقاض مقرقعٍ ومتلاحق وقريب جداً وخطف في ذهني أن البيت قد ضُرِب، لكني وجدت كل شيء كما هو، لبست الجاكتة على البيجامة ونزلت بالشبشب، وبعد قمة الشارع وجدت في أول الحارة المتقاطعة معنا واجهةَ البيت الذي فيه بياع الفول والفلافل قد سقطت كأنها كُشِطت بسكين ضخمة، وكومةً من الطوب والمَدَد في الحارة، والثلاثة أدوار بانت كلها في ضوء الكشافات التي تجوب صفحة السماء الزرقاء الصحْو بين قرقعات مدافع الآك الآك الرفيعة الثاقبة التي تنفجر وتنبسط ورود شظاياها القرمزية والخضراء كالألعاب النارية. كانت السراير والدواليب والملابس المعلّقة على المسامير في الحيطان وكراكيب البيوت وصور أصحاب البيت والآيات القرآنية وصور مار جرجس والعذراء الملونة بالأزرق والأحمر، معووجة قليلاً ولكنها ما زالت ملتصقة بالجدران الداخلية التي لم تُمس. وكان على الباب مجموعة صغيرة من الرجال والنساء بملابس النوم والبنات الصغيرات يبكين ويصرخن بخفوت والأولاد يتعلقون

بفساتين أمّهاتهم، بصمت، وجوههم تبدو بيضاء في الليل. وفجأة صفّرت صفّارة الأمان، طويلة ممتدّة سعيدة. ورجعت.

«لماذا ألعن دائماً كل ما أحبه؟ ألعنها باستمرار. ألعنها لآلاف الأحلام المنيئة التي ما زالت تعيش فيّ، والتخاييل التي تدور حولها، هي فقط، والكوابيس الميتة التي تملأ وحدتي فزعاً وتعذيباً. ألعنها هي، لبأسي أنا، ومع ذلك فأيّ شأنٍ لها بهذا الضحك الهستري الدامع؟ بالضبط. ألعنها لأنها هي البعيدة التي لا تدري بشيء، ولا جريرة عليها في أنها لا تدري بشيء، ولن تدري. ولن تحسّ كأنني أقضي «عصوراً مظلمة» أوجدها لنفسي، أو أغوص في حمأة أرضٍ محرّمة. وحتى الآن، فأن هذه السيدة لا تعرف شيئاً عن هذه الحكاية كلها التي تبدو مبتذلة وشديدة الرثاثة، وهي مع ذلك فريدة ومُحلّقة ولا نظير لها. أصبحت هذه السيدة مهندسة معروفة في الخمسينات، في الإسكندرية، ثم انقطعت أخبارها عني، وبالطبع لم تختفِ أبداً عن ذلك الكهل الذي ظل يحب على وجهها ترسّبات محبّاتٍ كُثُر. وصحوت ذات يوم بعدها بثلاث أربع سنين، فأدركت فجأة أنني، على غير معرفة مني، قد بريء قلبي من شغفته. بمصير الحيّ يتلاقى. فلم لم نتلاقَ؟ هل نحن نموت، أحياء؟ الحبُّ المتدفق الضائع سدى مسفوحاً، من غير ضرورة، ولا معنى».

أما قبلها بسنة واحدة، أو بسنتين ربما، فكأنما قمت بطقس من طقوس لَقانة الرجولة، بعد طقسِ الحريق، وخَلُصتُ من محتويات مراهقتي، في الدور السفليّ من «البترينة» الخزانة الخشبية ذات الدور العلوي الذي له واجهة زجاجية، رصصت وراءها ما أملكه من كتب قليلة «التنين» للشعر الإنجليزي، التوراة والإنجيل، والقرآن، «الأدب والدين عند قدماء المصريين»، «المنتخب من أدب العرب»، «مختار الصحاح» وقاموس وست الإنجليزي، وقاموس بيلو الصغير الفرنسي ـ العربي الذي بللّته وجفّت عليه

مياه المحمودية عندما غرقتُ، لحظة، وأنا أخرج من المعدية إلى الشط، وأعدادُ قديمة من مجلات «الهلال» و«المقتطف» و«مجلتي» «وأبوللو» اشتريتها من بياع الصحف الذي كان يضع فرشته تحت الجدار الرخامي لشركة ليبون في آخر شارع صلاح الدين، أجري حافياً على أسفلت الشوارع النظيفة السخنة، وصندلي تحت ذراعي، بالبيجاما أو الجلابية، عندما تنام أمي نومة بعد الظهر، وأوصي أختيّ عايدة وهناء أن تتركا باب الشقّة مفتوحاً حتى أدخل دون أن أدق عليه عندما أعود، لاهثاً دماء الجري والمغامرة واللُّقيْا تضرب جسمي، ومعي غنيمتي، دون أن تحس أمي أنني خرجت ورجعت.

لوحتان من الخشب ملصوقٌ بهما صَدَف ووَدَع صغير وكبير مجلوب من رمل الشاطي منذ الشتاء الماضي، جمجمة حيوانيّة بيضاء هل هي لغزال أم ثعلب؟ مفتوحة المحجرين لها رائحة جافة وليست سيئة أبداً، مجلوبة من رمل الطريق الصحراوي الذي كنت أشتغل فيه الصيفَ الأسبق مع خالي ناثان (كنت أحسب أجور عمال التراحيل المشتغلين في رصف «طريق المعاهدة» بعد الرست هاوس بقليل، وأسجل شكاير الأسمنت وحمولة لوريات الزلط كل يوم. وأكتب كشوفات بذلك كله بالقلم الكوبيا من نسختين). صليب مخصوف من سعف النخل مجلوب من كنيسة العذراء في محرم بك من أحد الشعانين. ظرف خطاب به شرائط ورق مصمغ مطواة صغيرة نال الصدأ من حدها المثلوم عِدّة حلاقة قديمة محطمة ملتوية المقبض نتيجة للعام ١٩٤١ في نصف صفحة هدية من مجلة «الإثنين وكل شيء والدنيا» إعلان مقطوع بعناية من «البلاغ» عن «أهل الكهف» التي اشتريتها من مكتبة صغيرة في شارع راغب بمبلغ فادح وقدره عشرة قروش صاغ ظللت أُلح على أبي حتى أعطانيه مبتسماً وراضياً وحانياً وفخوراً أيضاً، عملة فضية كبيرة عليها طغراء السلطان حسين، صورة جنجر روجرز

بالروتوغراف مقطوعة من مجلة «الكواكب» لامعةً وزرقاء وشعرها منتظم المياج كأنها إرهاص بوجهٍ محبوب في قادم الأيام مقطوعتان من شعر بودلير مترجماً للعربية، كتبهما صديقي هاني محمود عليّ بالقلم الرصاص على نصف صفحة مقطوعة بالطول من كراسة المدرسة ورقة نشاف نصفها غارق في حبر أزرق جاف متصلب بالورقة قطعة من الطباشير الأبيض مسروقة من المدرسة سن ريشة مكسور ومسوّدّ من الحبر والقدم مِشط ما زالت في أسنانه حبّات رمل صفراء متربة مسمار إبرة خياطة قلم رصاص محبرة فيها نُقْرتان مدورتان بهما آثار حبر أزرق وأحمر جافتان الآن ليس فيهما إلا آثار حبر عليها طبقة خفيفة من العفن الأبيض الهش السريع التطاير وسدادة فلين مقطوعة وقوقعة كبيرة حلزونية ملتوية الحنايا كنت أعتز بها أيضاً.

أذهبتْ كلها أرصدة الطفولة والمراهقة؟

كنت قد أمضيت سنة كاملة - إلا أسبوعين - وقد اعتنقت مذهب النباتيين، بعنف ودون دراسة ومن غير أية إمكانات حقيقية. كنت فقط أومن بأبي العلاء المعري وجورج برنارد شوروغاندي. وكان أبي لا يستطيع أن يقبل هنا الحرمان العنيد صلب الرأس وصبيانياً الذي فرضته على نفسي. كان حزنه عميقاً وصامتاً وملمّراً في النهاية، لم يكن يصرخ تارة أو يتضرع تارة كما كانت أمي تفعل، وتدقّ صدرها تحسراً وحبوطاً، وهي تغويني بالبطة التي عملتها على الكسكسي ريحتها ترد الروح وتساهل بقك طب خد بُقّ لبن عالفطار، طب بلاش، أسلق لك بيضة، عشان خاطري يا حبيبي يا ضنايا.

لم أُسلِّم حتى قبيل عيد القيامة وشم النسيم. وكان الفرح في البيت مزدوجاً ولكن حسي بالهزيمة، المزدوجة أيضاً، أمام الحب النيء الخام وأمام شهوة الأكل، ممتزج كذلك بفرح التسليم وقبول صَغار الواقع وحُكمه الغلّاب.

في أول السنة كنت لابداً في السرير متـدثّراً بلحـاف وبطانيتـين، وكنت قد استقللت بغرفتي في شقة شارع إبن زهر. وكأنّ البيجاما الكستور الثقيلة التي أرتديها تحت الأغطية غـير موجودة، وكان الفحم شحيحـاً فكان وابـور الجاز يئز في الغرفة وعليه إناء ماء يصعد منه البخار والدفء والباب موارب قليـلاً جداً خشيـة الاختناق، وأنـا أقرأ، وأنـا تحت اللحاف، «دليـلَ المـرأة الـذكية إلى الأشـتراكية» بشغف كـأنه روايـة بوليسيـة، وسمعت صفـارات البواخر التي تصل إليّ من الميناء الغربيّة حتى راغب باشا عبر سكون المـدينة في الليل، تتجاوب ويرد بعضها على بعض. كان جيراننا الأروام والطـلاينة واليهود والقليل من أهل البلد يقذفون، مرة واحدة، بالـزجاجـات الفارغـة والقلل الفخـار والأطبـاق الصيني المشروخـة والأصص القـديمـة، عـلى الاسفلت، في تتابع بهيج، سوف يصبح الصبح فنجد الشارع الواسع مغطّى بحطام العام القـديم. وكانت نـوّة عيد الميـلاد قد هبت منـذ ٣ أيام في ٢٣ كيهـك، والهواء يعصف والأمـطار نازلـة كـأنها مُـلاءات من الميـاه تفـرقـع وتصطفق بالشبابيك الموصدة ثم ترتخي وتعود تـرتطم بـالبيوت من جـديد. ومنذ أيام قلائل، قبل الكريسماس بيومين، كنت قد نزلت في أول الليل إلى الشاطيء الذي يتسع عند الشاطبي وتصطدم الأمـواج عنده، إلى اليسـار، بأحجار سور السلسلة السوداء وتعـود في صخب مُزْبِـدٍ مُدَوٍّ داكن الـزرقة. كانت النوارس تزعق فجأة، تنقضُّ وتعلو.

كنت قد قلت لا. هذا كفاية. لا يمكن أن يستمر هذا الألم. كفى.

وقلت هذه بداية المهزلة الحقيقية، ربما، أو ختامها، لست أدري.

كان في جيبي ثلاثة قروش، وفي روحي مرارة وغضب وعزم معقود.

قلت يجب أن اتحرّر يجب أن أحطم الأسوار، أسوار الحياة نفسها.

كان ما وراء ذلك كلّه عدَماً كاملاً يبدو لروحي راحةً كاملةً.

قلت انـطلقْ إذن انـطلقْ اخـرجْ من وحـل الألم والحب المنكـور ووطـأة الصمت.

ما أشد رهبة هذا اليمّ وما أقوى دعوته وغوايته. عذوبتهُ لا تضارع.

وسرت على الرمل المبلول متجهاً إلى هذا القبر الطامي بكُتَل الماء الضخمة السوداء، حتى وصلت إلى الشط وكان تصميمي ثابتاً وكأنني في غيبوبة وكانت أمامي خطوة واحدة. وقلت إنني عندئذ بالضبط وجدت التنين صغيراً وخائفاً بين أعشاب البحر اللزجة وأخذته إلى حضني وأدفأته وعدت به إلى حجرتي وكبر التنين وتضخمت زعانفه وضرب بها جدران بيتي ونمت له أسنان كثيرة حادّة أنشبها في روحي وما زالت كلما انتزعت منها جيلاً نَبَتَ له جيل، مرةً أخيرة بعد مرة أولى بعد مرة. وما زال التنين ماثلاً بينها البحر يفيض حوالي في هذه الكهولة الجياشة العامرة بأطياف معاشق الصبا الحيّة لم يَنَلْ منها شيء.

وبنيتُ الأسوار في مربعات حجرية ضخمة امتلأتْ عن آخرها بأمواج البحر المتلاطمة وأحصيتها في الحلم وكنت يقظاً غير نائم فكانت تسعة مربعاتٍ - أسوارٍ عدداً. والمياه المندفعة في كُتَلِها الداكنة تدفقت من على الحجر وما زالت تفيض لا تحجزها الأسوار. وفي قلب هذه الأسوار المربّعة التسعة كان العشب الطريّ قد غرق واضطرب الطين وكانت أشجار النخل السامقة تترنح في مهب الرياح المُوج والعاصفة الغاضبة تصدمها وتسفعها ولها صوت قوي. في داخل المربعات المتلاطمة بالموج هذه المخلوقات البحرية، سمكيّة إنسانية، حيوانات مائية مركّبة من التنين الأنثوي والإنسان الأنثوي، لها قشرة سوداء تبدو حادة وشائكة كورق الصنفرة الكاشط، تتخايل فإذا جلودها ناعمة خمرية ونهودها لدنة وقائمة متماسكة ورؤوسها تبدو جَعْدة الشعر خشنة العظام مدوّرة، تتخايل فإذا هي تموج بغدائر حريرية منسابة وعيونها فاتحة ونجلاء وفيها حنو أنثوي مغوٍ ونداءٌ حزين كأنه دعوة للحب وطَلَب لفعلِ الحب لا أمل في الاستجابة له، وفي هذا الكيان المركب الجيّاش في الماء مكرراً تسع مرات شحنةً من الوحشية

خفية ومخيفة كامنةً تحت مخايل العذوبة والشِعرية وأنا أجري بين الأسوار الحجرية المغمورة بالماء المِلح المضطرب، أجري باستماتة في ممرات ضيقة مبلّطة تترقرق على أرضيتها مُويجات صغيرة صافية، وطول الوقت أُحس فَحّة أنفاس هذه القروش النِسْويّة عرائس البحر التنانين الجِنّيات السيرينات الحوريات ذات الأذرع المحتضنة والزعانف الضاربة المتينة الغضاريف، البنات البجعات ذوات الريش المبلّل المغمور الهُولات النـدّاهات الصامتات، وطول الوقت أسوار المربعات الحجرية تهدد بالانهيار تحت ضغط طوفان البحر أجري أريد أن أخرج من متاهة الممرات المتقاطعة المتشابكة التي لا مخرج منها التي تغرق رويداً تحت دفقات الماء لا أرى أبداً أبداً المأوي ولا الملاذ الجاف المشمس ولا أجد أبداً أبداً طريق الخلاص من هدير داخليّ خارجيّ مضطرب ولا من عصف الريح المفتوح على آخر الأفق.

ولما صحوت وجدت مانشيت الأهرام سقوط أسرة محمد علي إعلان الجمهورية جمال عبد الناصر نائب رئيس الوزارة ووزير الداخلية وكان شبه مجهول وربما كان أيضاً مكروها قليلاً يومها في ١٩ يونيو ١٩٥٣ ولم نكن نعرف أنه سيأتي يوم نتحسر فيه على أيامه بكل ما فيها من أمجاد ومِحَن. وكانت الصفحة الأولى تقول داخل إطار أحمر إن الرئيس اللواء أركان الحرب محمد نجيب رئيس الجمهورية المصرية قد أصدر في الساعة الواحدة من صباح اليوم أول أمر جمهوري بترقية الصاغ أركان الحرب عبد الحليم عامر القائد العام للقوات المسلحة إلى رتبة اللواء، وكان هناك يومها، للإيجار، شقتان بجوار حديقة الحيوان ٤ غرف و٦ غرف ٨,٥ج و١٠,٥ ت٩٧٨٢٦، وكانت أسعار القطن الخام أمريكي ميدلنج ١٥/٢٦ حاضر تسليم أغسطس بإنجلترا ٣٢,٠٠ ومصري كرنك صنف ١٥٥ ٤٢,٨٠٠ وكان تايل الذهب واحد ونصف أوقية في هونج كونج ٢٧٠,٦٢٥ دولار، وقيمة الدولار في هونج كونج ثلث شلن وكان الدكتور إسماعيل القباني وزير

المعارف قد تسلم من المستر الفريد بوبلز بالسفارة الأمريكية شهادة المواطنة الفخرية لولاية أركنساس وتحددت الساعة السادسة من مساء الإثنين التالي لمناقشة رسالة الدكتوراه التي قدمها الأستاذ أحمد محمد الحوفي وموضوعها المرأة في الشعر الجاهلي في كلية دار العلوم بالقاهرة أما فرقة نجيب الريحاني فتقدم مسرحية «إبن مين بسلامته» وسينما مترو عندنا بالإسكندرية تقدم روبرت تايلور وجوان فونتين في مغامرات إيفانهو بالألوان.

وأشواك الصبار خشب مُخَرَّم في مشربية ملساء لدنة والجسد ملتبس ودانتيللا السوتيان موسيقى مصفاة النَسق اللحم البضّ المحجوز عن الانهيار ثمرةً غضة الجسمُ المعتم المضيء معاً متماسكُ القوام تهفهف عليه طيّات النسيج السخن المشبّك الملتحم عزْفُ أوتاره الرقيقة المتفضة شبقيٌّ لا تسمعه أذن.

سألتني سعاد السماحي: مالك النهارده ساكت كده؟

أجبتها: عندي شغل.

قالت: مسكين.

أجبتُ بشيء من الجفاف، بلهجة خاصة ذات معنى، وضحك:

- إيه الحكاية؟ أنا على فكرة ما أحبش عبارات الشفقة دي، من أي حد.

قالت ببساطة: طيب، أحسن.

أجبت بحدة: ولا عبارات التشفّي.

قالت: لا. دانت حرارتك مرتفعة صحيح النهارده.

فاضطررت ضاحكاً وخجلاً أن أهرّج، في وسط المكتب، أمسكتُ بجبهتي، وعددتُ نبضي وانتهيت إلى نتيجة: صحيح. عندك حق يا ستي. حرارتي مش طبيعية.

كانت طفلتي التي أحبها بجنون ويأس تستمع، صامتة.

ثم قالت فجأة: عارف بقى، إنت عَدِيْتني.

قلت كأنما بفرح: صحيح؟

ثم مستدركاً: متأسف. متأسف أوي.

قالت سعاد السماحي: إيه التأسفات دي كلها؟ إيه بس؟ على مهلكم شوية.

قالت، هي، كأنما بشكْوَى: عَدَاني. بِردْت. وحرارتي عالية.

قالت سعاد، بمعنى: كده.. اشتريتِ خلاص؟

ثم التفتت إليَّ قائلة، بضحك: بضاعة ماشية يا عم. ربنا يفتح عليك كمان وكمان.

قلت بحيرة، وخيبة: مش عارف.

أما هي فقد أعطتني ـ كعادتها ـ أحد أعداد مجلة «كونفيدنيس» الفرنسية التي تقرأها بانتظام، وقالت لي: طب خد إفتح نفسك عالحاجات الحلوة.

كان في المجلة صور ملونة للقبلات العذرية المهذبةِ الشَفَتيْن، وللعناقات العذريةِ المؤدبةِ الجسميْن.

وكان صوتها الطفولي، المداعب الشاكي، عذب الموسيقى ما أعذبه في مسامعي. وارتجف قلبي كالمعتاد.

يا غالين عليَّ، ياهْل إسكندرية.

بين شَطين ومَيّة، عشقتكم عِينيّة.

شفتاك القرمزيتان شفتايٍ أحدِّق في عينيك المكحولتين بسوادٍ غويط فأجد نفسي في غورها وجِش شعرك الوثير على جانبي وجهي ثِقلُ النهدين وحجمها المحسوس على صدري والذراعان البضتان متملكتان تلتفان بي. وقد دفنتِ العمود الصلب المتوهج في طينة النعومة السخنة المتلقية موتي وبعثي معاً في عمق الأنا الأنتِ أصغو بكل ما لديَّ من طاقة إلى الفناء في جسدك إلى أن أكون أنا وأنتِ نهائياً ذلك الجسد واحداً بلا انفصام لا لحظة

ولا طرفة عين أشارف حافة الاستحالة لا أسقط فيها أبداً الإيمان بالاستحالة حَنْث به. سوف يحدث. لم يحدث. حادثٌ دائماً. وغير عَرَضيّ.

وثاني يوم على باب الشركة القت إليَّ حبيبتي بتحية الصباح: «بونجور» وبنظرة خيل إليَّ أن فيها ابتسامة، وكأنها رسالة خاصة بيننا، كأنما هي تعتذر عن صمتها، وعن صمتي أنا في الوقت نفسه، طول نهار أمس حتى استحثتنا سعاد السماحي على الكلام، وكأنها تقول: ما العمل: قالت لي بشيء كأنه حنوّ خاص ورقة خاصة: «إزاي صحتك النهارده؟ خلاص الصداع بتاع إمبارح؟» قالت لها سعاد السماحي بمكر: «ليه هو كان تعبان إمبارح؟» فردّت هي كأنما تتآمران: «أَللّهْ.. ما شفتيش إمبارح كان ساكت وطول النهار مبوّز ونايم على روحه كده؟» قلت: «وبعدين بقى؟ «قالت بانعطافةٍ مميزة: «سلامتك، سلامتك». قلت: «مرسي، مرسي، أوي» وهاجمتني نوبة سعال عصبيٍ على الأغلب. قالت: «أنت لسه ما بعتش البرد بتاعك؟» قلت: بمعنى: «لا. مش لاقي حد يشتري لحدّ دلوقت.» فردّت بضحك وقصد: «طب اعمله في المزاد بقى» قلت: «لاه.. أنا بايع خلاص. ولقيت المشتري.» ضحكتْ بخفوت وموسيقية خاصة بها. فمهما زعمت لنفسي الصرامةَ العقلية والجدُّ الجاد كان قلبي يرتعش لهذه الموسيقى، كطفل. وعشت بالأحلام الجديدة الغضّة أتمنّى فقط طلوع اليوم الجديد حتى أراها مرة أخرى وأتعجل النهار وأخشى مروره وأرتقب الأيام المقبلة بقليل من الرعب ولكنٍ بشوق لا ردًّ عليه ولا مقاومة له. سلّمتُ بالاستحالة. لم أقبلها. ولم أتخلَّ عن طلب الكمال.

الشفافية الحارة الزرقاء في قلب السماء القَفْر هي قلبُ الغد الذي ينتظركِ. خبز أيامي القادمة شفتاكِ إذ تحدق بي الآلة السوداء بعيونها الكثيرة قبراً صغيراً قديماً تنمو عليه تعريشة العنب العذب المزّ معاً وظَهْرك يبتعد في الشارع المزدحم فإذا العالم خواء فجأة والأسفلت محرق أسود الوهج. وفي

الغد تفدحني السعادة في غموضِ ضبابِ الصبح، نعمتي غير محسوبة وهذه الأمواج خضراء ضَحُوك يهفو بها النَسَم بقلبٍ مشمس.

بعد غيبة سفرٍ قصيرة ذهبت للشركة ورأيتها فجأة أمامي، من وراء المنصة الرخامية الطويلة الدائرة بمَيْل. قامت إليَّ وسألتني: خير مالك؟ بون أريفيه. كان فيه حاجة؟ قلت: أبداً كان عندي شوية بِلْت شِمِرْز. قالت: طب كنت تقول. لو كنت عارفة كنت جيت سلّيتك. وكانت عيناها نديتين قليلاً.

قلت، بمرارةٍ غير مبررة: «لا ما أظنش. متشكر على كل حال». فقالت بسماحة غير مفهومة: «معلهش اشتم على كيفك يا سيدي. الشتيمة برضو مقبولة منك.» فتدهور قلبي. وودت لو قبّلتُها علناً على الملأ وليكن ما يكون. وظللت أجمع الكلمات اللطيفة، والنظرات الخاصة، كأنها قِطع من كنز. أي غِنىً. وأي ضوء. البشرة الناصعة الصافية تترقرق، زهرة عبّاد الشمس. دقات قلبي خطواتي تحت جدارك وازدهار الصبّار في شرفتك وابتسامةٌ ـ متحفظة ـ ترسلينها عبر الطريق تحفرين أغواراً تحت قدميّ تملأين السماء في زرقة الظهر في وهجٍ ضاع فيه الزمن. موسيقى الموج الرتيب يفتح ذراعيه يسقط على الرمال. تعود، ما زالت تعود، ترمي بنفسها على صدرك.

درتُ حول البيوت القديمة، حول ملجأ سان جوزيف، ومدرسة نبويّة موسى، وأدركتُ فجأة أنها تبوح بأسرارها، وأنني أستطيع الآن بسهولة، حلَّ شفرتها، وكان العساكر قد أقاموا خيامهم في فناء مدرسة إسكندرية الثانوية في شارع مِنَشّة، ونصبوا مدافعهم فيها.

وكانت مظاهرات القاهرة صاخبة وعالية النبرة جداً وعرفنا بعد ذلك بكثير أنها كانت مدبّرة ومخططة ومدفوعة الأجر وكانت المدافع مسددةً إلى قلبي.

ينساب الشوقُ مع صوت البحر من تشابيك المشربيّة العتيقة. كان جسمها الصغير الرشيق الرفيع الخصر ـ كان الطوق المعدنيّ الرقيق الذي يحيط براسها يمكن أن ينطبق طرفاه فيلتف بوسطها ـ هو نفسه تلك الموسيقى الملتبسة من هسيس الأشواق المُلحّة وانسياب النسيج وحصار السلاسل المعتصِرة. والمطر ينثال على النهدين الصغيرين الدافئيْ الشكل والأيدي الخشبية تمتد بنداءٍ موجع ولا يمكن أن يكون عليه ردّ. خيالات موسيقى المِلح هي الوحيدة صُلبة القوام ومِلْحُ أطياف الألم والنشوة معاً لا يذوب. دقات قلبي أمسٌ مَضَى حُلماً موجِعاً.

الآن أحلامي تحبس أنفاسها. أفي العالم كل هذا الفرح؟

تسكت الأصداء القديمة، تماماً.

«غَدُ حياتي وجهكِ إذ تنامين».

تسبح الشمس في شعرِك، ذهباً، غصنَ شجرة ينحني، يتقطّر منه الندى.

أشربُ ولا أرتوي من خمرتك.

إدوار الخراط

الثانية فجراً يوم الخميس ١٨ طوبة ١٧٠٥ (٢٦ يناير ١٩٨٩)

للمؤلف

١ ـ حيطان عالية مجموعة قصص، على نفقة المؤلف، القاهرة ١٩٥٩ (نفد).

٢ ـ ساعات الكبرياء مجموعة قصص، دار الآداب، بيروت ١٩٧٢ (نفد).

٣ ـ رامة والتنين رواية، طبعة محدودة، القاهرة ١٩٧٩ (نفد)
المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٠.

٤ ـ اختناقات العشق والصباح قصص، المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٣.

٥ ـ الزمن الآخر رواية، دارِ شهدي، القاهرة ١٩٨٥.

٦ ـ محطة السكة الحديد رواية، مختارات فصول، القاهرة ١٩٨٥.

٧ ـ ترابها زعفران نصوص إسكندرانية، المستقبل العربي القاهرة ١٩٨٠.

٨ ـ أضلاع الصحراء رواية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

٩ ـ يا بنات إسكندرية رواية، ١٩٨٩.

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

بنات إسكندريـة متعددات، وفـردانيّة، بـلا نظير. من أنتِ؟ ألم ألتقِ بكِ وجهاً لوجه، لكني أعرفكِ معـرفة الحميم للحميم، ليس بعدها معرفة.

حوريات الذِكَر والتخاييل، مائلات أبـداً عن أجساد وأرواح منـدثرة، تهاويم سحيقة القـدم، احتشد بهـا الصبا والشبـاب، والكهـولـة، متخـطّرات حتى الآن في أحـلامي، بحيـاة أكـثر جَسَدَانية من أية امرأة.

بنات إسكندرية، وبحر إسكندرية ـ غـواياتٌ قـائمة لا تنتهي ومَحَبَّات لا تبيد.

مهما كانت كثيرة فهي واحدة، مهما كانت عارضة خاطفة فهي أبدية.

كيف أقاومها.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

لوحة الغلاف: عدلي رزق الله
تصميم الغلاف: فصيح كيسو